



مطبعة بكتبة مصر

صداق السنين

تأليف

عبد الحميد عبودة السحار

الناشر :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - القهارة

دار مصر للطباعة

عبد جوده السحار وشركاه

صَدَى السنين

دخلت مكتبي ، وأمسكت بالقلم ، وحاولت أن أكتب . ولكن لم تكن نفسي متفتحة للكتابة ؛ كنت أحس كأن حملا ثقيلا حط على رأسي ، فعطل تفكيري ، فألقيت القلم ، وقعدت ساكنا أتلفت حولي في جمول ، فوفعت عيناى على كتاب كنت اشتريته وأبقيته لساعات فراغى ، فمددت يدي وتناولته ، وفتحته ورحت أقرؤه ، ولكن ما إن قرأت بضعة أسطر حتى عاقت نفسي القراءة ، فرميت بالكتاب ، وقمت كوسنان يداعب النوم جفنيه ، وسرت إلى غرفة أخرى حتى بلغت مقعدا وثيرا ، فارتيمت فيه ، وأرخيت جسمي ، ورحت أنعم بالكسل اللذيذ .

وتقلبت في رفقدي ، فرأيت على نضد قريب (ألبوماً) للصور ، فخطر لي أن أتسلى بتقليب صفحاته ، فتناولته وفتحته ، فرأيت صورة زميل من زملائي في المدرسة الثانوية ؛ كان شابا صغيرا ، في وجهه صفاء ، وفي عينيه ذكاء ، فأخذت أتأمل الصورة مليا . فتزاحمت الأفكار في رأسي ، وعادت لي الذكريات سنين طوالا ، فشخصت ببصري إلى السقف ، وجعلت أعرض حوادث تلك الأيام في شغف وحنين .

كنا صديقين قلما نفترق ، وكنا في الفصل متجاورين ، فإذا انتهى اليوم الدراسي انطلق معي إلى بيتنا ، أو انطلقت معه إلى بيتهم الرحب العتيق ، وكان في حي قديم من أحياء القاهرة المعز ، قريبا من ضريح من أضرحة القاهرة

الشهيرة ، التى يفد إليها الفلاحون من أقاصى البلاد للتبرك والزيارة ، فكنا نشق طريقنا بين جموع زاحرة من الفلاحين والفلاحات ، والشحاذيين والمجلوبين ، وبائعى المسابح ، وحاملى قدور العرقسوس . وأوانى الخروب ، ونحترق صفوفًا من عربات اليد الصغيرة المصطفة على جانبي الطريق ، محملة بأساور من زجاج أخضر وأحمر وأزرق وأصفر . أو بأكداس الترمس التى حفت بها قلل رشق فى أفواهها الفل والزهر . أو بأكوام اللادن أو الجوافة الضامرة التى دب فيها الفساد ، وكنا نستشق الهواء يعبق بدخان المياحر المعزوجة بالدخان المنبعث من الصينيات التى تحمر فيها الأكباد والقلوب ، وكانت الأصوات المتنافرة الصادرة من هنا وهناك تصك آذاننا ، فنغذ السير ، لنفر من تلك الضوضاء الذى يدير الرعوس .

وكنا إذا بلغنا دارهم نلج من باب هائل كبير ، صنع من خشب متين ، وحصن بأزرار من حديد ، دقت فيه فى صفوف ، وما إن ننطلق بخطوات فى ممر قصير حتى نجد بابًا آخر يوصل إلى فناء الدار الواسع ، الذى صفت فيه أرائك خشبية عالية من طراز عربى قديم ، فكنا نجلس على أريكة من تلك الأرائك نستذكر دروسنا أو نتجاذب أطراف الحديث ، حتى إذا جن الليل انصرف كل منا إلى أهله .

وقابلت أهله وعرفتهم ، وأمضيت معهم أوقاتًا طويلة . وكنت أقابل أباه فأحبه فى إجلال ، فقد كان رجلاً وقوراً ، كان مدرسا للكيمياء فى مدرسة من المدارس الثانوية ، وكان شيخ طريقة من الطرق الصوفية ، فكان قليل الكلام ، فى وجهة مهابة . وكان الأتباع يفدون إلى داره لتقديم فروض الولاء ، فكان يقابلهم فى منظره رحبة ، يصغى إليهم فى تواضع ، ويقبل عليهم فى بشاشة ، ويحدثهم حديث الدين فى طلاقة ، فيقومون من عنده يتغنون بكريم خلقه ، وإيمانه الصحيح .

وفى يوم من الأيام قال لى صديقى : إنهم يحتفلون الليلة فى دارهم احتفالاً دينياً

كبيراً ، يحضره الأتباع من كل البقاع ، وأنه يدعوني لمشاهدة ذلك الاحتفال الرائع ، فاعتذرت إليه ، وقلت له : إن والدى لا يوافق على سهرى خارج البيت ، فقال لى إنه سيذهب معى إلى والدى تستأذنه فى حضور ذلك الاحتفال ؛ وأنه على ثقة من أن والدى لن يمانع فى أن أحضر جفلاً دينياً جليلاً . وانطلقنا إلى والدى ، وتقدم منه صديقى ، والتمس منه أن يأذن لى الليلة بالسهر عندهم ، فوافق ولم يبد اعتراضاً ، ولعله قد سره أن يندمج ابنه فى زمرة رجال الدين .

وذهبت إلى دارهم نشوان ، وجعلت أغدو واروح فى فناء الدار الكبير الذى جهز لاستقبال الوفود وأنا أحس اغتباطاً ، ودوت فى القضاء أصوات دقوف وطبول وصنوج ، وجاء صديقى وجذبنى ، لنخرج لاستقبال طلائع الناس ، فانطلقنا حتى وقفنا على وصيد الباب ننظر ، فرأيت رجالاً فى ثياب قدرة ، أرخوا لحاهم ، يحملون رايات نصل لونها ، وراحوا يقفزون ويتأيلون على دق الدقوف . وأنا سائسرون فى صفين طويلين وقد تشابكت أيديهم ، وراحوا يذكرون الله وهم يقصرون ويطولون ، ويتأيلون ويتسرعون ، ورعوسهم فوق صدورهم تدور ، قشعرت بشعور غريب ، كان دق الدقوف ينزل الرهبة بقلبى ، ومنظر الرجال وهم يتأيلون يخز روحى ويجعلنى أحس تضاًؤلاً وأسى عميقاً ، وانطلقت الزغاريد من وراء الشبايك ؛ وأقبل شيخ وقور فى ثياب سود ، وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، يتهادى على بغلة مطهمة تحت الرايات التى عقدت فوق رأسه ، ودنا الركب منى ، ففرست فى وجه الشيخ ، فاذا به والدى صديقى ، مدرس الكيمياء فى المدارس الثانويه .

وتدقق الركب إلى فناء الدار ، واشتد دق الطبول ، وارتفعت أنغام الناي

حلوة عذبه تهز القلوب ، واتسابت أصوات الصفارات ، فراح الرجال يذكرون الله في حرارة ، ويتأيلون في سرعة وتوافق ، فجعلت أرصد ما يجري أمامي كلماخوذ .

ودوى المكان دوى النحل ، واستمر الطبل والزمير ، واختفى الشيخ من جوف داره ، وراح الوقت يمر والناس يتأيلون مطبقى الجفون ، كأنهم قد غابوا عن الوجود ، وأقبل خدم شداد ، يحملون طناجير الثريد . فخفت الأصوات وتعلقت العيون بقطع اللحم التي كانت تخفى وجوه الطناجير ، ووضعت على الأرض ، فتحلق الناس حولها خفافا ، ولم تمتد إليها يد ، وتطلعت الأنظار إلى باب صغير ، وما انقضى كثير وقت حتى انفرج الباب عن الشيخ في جبة زاهية ، وفي يده عصا طويلة ، وتقدم الشيخ في وقار ، وهو يتمم بكلمات خافتة ، ومد العصا ولمس طرف طنجير من الطناجير ، فانبعث لهب أخضر ، فهلل الناس وكبروا ، ودار على الطناجير كلها يلمسها بعصاه ، فانبعث منها ضياء ، فزاد التهليل ، وارتفع التكبير ، حتى شق عنان السماء .

وخفت الأصوات ، وراحت الأيدي تتسابق إلى القصاص ، وتلقى في الأفواه المفتوحة ما تصل إليه ، واستمر الناس في ازدراد الطعام الذي باركه الشيخ ، وبقيت واقفا أنظر وقد ارتسمت الحيرة على وجهي ، فقد خيرني ما فعله مدرس الكيمياء ، لانبعاث ذلك الضياء !

وتلفت حولى ، فرأيت صديقى ينظر إلى وقد رقت على شفثيه ابتسامة فأردت أن أبتسم ، ولكنى لم أستطع ، كان ذلك الضياء يحيرنى ، فاتجهت إلى صديقى ، وجذبتة من يده ، حتى إذا ابتعدنا عن الحشد المنهمك فى طناجير الثريد قلت له :

— ماذا فعل أبوك ؟ .

فقال فى بساطة :

— لم يفعل شيئا .

— وما هذه النار التى بعثها من الطناجير ؟

فقال مى خبث :

— بركة من بركاته .

فدفعته فى كتفه فى رفق ، وقلت له :

— لا تضحك على ، فليست من أتباع أيك .

— هذا سر الأسرة .

— لن أنافسكم فى مشيخة الطريقة يوما .

فقال فى همس :

— أقول لك على ألا تبوح بسرنا ؟

— أفعل .

— لقد ثبت فى كعب العصا قطعة من الفسفور ، فإذا ما لامست نحاس

الطناجير اتبعث ذلك الضياء .

وعدنا إلى حيث كان الناس ، ونظرت إلى مدرس الكيمياء الوقور فى ثيابه

الزاهية ، وعمامته الخضراء الكبيرة ، وتطلعت إلى وجهه الهادئ الذى ينم عن

التقوى والصلاح ، فأحسست قهقهة ساخرة تدوى فى جوفى دويا .

وقلبت صفحة فى (الألبوم) ، فرأيت صورة ما إن وقعت عليها عيناي

حتى اضطربت ، كانت صورة فتاة واسعة العينين . باسمه الشجر ، فى خديها

غمازتان زادنا فى فتنها ، وقرأت الإهداء .

و إلى عزيزتى التى أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة ، لن تمحوها

يد السنين » . فخفق قلبي ، وسرى في صدري إحساس غامض للذيد ،
ولفتني الحيرة التي طالما دثرتني كلما قرأت ذلك الإهداء . لم أكن أدري
أكتبته لزوجتي أم كتبته لي .

كان ذلك من عدة سنوات . يوم كنت أذهب عصر كل خميس لأمضي
بعض الوقت مع أبناء عمي ، ثم أهبط . أنا وابن عمي الذي كان في مثل سني
نقطع الوقت في الطواف في الشوارع القريبة من دارهم ، حتى إذا وفد الليل
عاد كل منا إلى داره .

وفي ذات يوم ، قابلت عندهم درية ، كانت شابة في السابعة عشرة ،
حلوة كالبدر ، نديه كالقمر ، يزين وجهها الجميل عيناان واسعتان آسرتان ،
وغمازتان بديعتان في وجنتيها ، وفم حلو صغير ، يغري من يراه بلثمه
وتقبيله . وجلست قبالتها ، ورحت أسترق النظر إليها في نشوة ، وخفق قلبي
في فرح ، والتقت عيناان بعيناان مرات ، فعبث بأوتار فؤادي ذلك البريق
الخاطف المنبعث من مقلتيها ، وهامت روحي تخلق في سماء صافية من الحب
والوداد ، وتقضي الوقت وأنا نشوان ، وأقبل الليل فأنصرفت ، ولو طاوعت
قلبي ما غادرت المكان .

وسرت في الطريق مطرقا أفكر ، وما كنت وحيدا ، فقد كان طيف درية
يرافقني في طريقي . فكرت في تلك الفتاة الفتاة التي قطنت دار عمي
حديثا ، فغمرتني نشوة لذيدة ، سأراها كلما زرت عمي ، وسأتعسم
بالإصغاء إلى حديثها الشهى الذي كان يدغدغ حواسي .

ومرت الأيام بطيئة ، وصورة درية تحتل ذهني ، وخطر لي أكثر من مرة
أن أنطلق في أثناء الأسبوع إلى دار عمي ، لأرى من هفت النفس إليها ، وتعلق
القلب بها ، ولكنني أحجمت على مضض فقد كنت معتادا أن أذهب إلى هناك

يوم الخميس ، وخشيت أن يفطنوا إلى ما اعتراني من تغيير !
وجاء يوم الخميس ، فانطلقت إلى دار عمى ، وقد ارتديت حلة بديعة ،
وزينت شعري ، ورحت أغذ السير ، وقلبي في صدري نشوان ، ودنوت من
البيت ، ورفعت عيني ، فقفز قلبي في جنون ، وسرى في بدني تيار كهربي ،
كانت درية تطل من شرفتها ، وخيل إلى أن ثغرها قد افتر عن ابتسامة حلوة لما
لمحتني .

وصعدت في الدرج خفيفا كالطيف ، تدثرنى الغبطة ، ويلفني السرور ،
ورأيتها تفتح باب شقتها ، فاضطربت واعتراني ارتباك ، ولكن ذلك الإشراق
الساحر الذي ارتسم على وجهها . والبريق اللطيف المنبعث من عينيها ، وتلك
الابتسامة الحلوة التي رفت على شفتيها ، أفرخ بها روعي ، فحنيت لها رأسي
محيا ، فردت على تحيتي ، وصعدنا معا في الدرج ، كانت لحظة سعيدة لن
أنساها .

وجلسنا في شقة عمى ، وراحت تتحدث ، وأنا أصغى إليها كالأخوذ ،
كان حديثها يخلبني ، ويستولي على لبي ، أو يسلبني تفكيري .. ورحت
أرقبها ، كانت حركاتها تستهويني ، وسكناتها ترضيني ، كنت أراها بعين
الحب التي ما كانت تقع إلا على الروعة والجمال .

وأخذت درية ترصد مقدمي كل خميس ، فإذا لمحتني مقبلا من شرفتها
هرعت إلى الدرج تستقبلني ، وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب ، ثم تصعد معا إلى
شقة عمى ، نمضي الساعات الهنية التي كانت تمر كلمح البصر ، ويا طالما
اجتررت حديث تلك الساعات في الليالي والأيام !

وفي يوم من الأيام ، أخذنا أنا ودرية نرتقي الدرج ، لنصل إلى شقة
عمى ، وقد لمس كنفى كتفها ، فخفق قلبي في جوفي ، وتحركت إحساسات

الحب . وراحت تنساب في صدري ، فالتفت إليها ، فرأيت في عينيها بريقا هز
كياي ، وجعلني أهمل لأنهم د بها وحدي . وبلغنا شقة عمي ، ولكني لم
أعرج عليها لأدق الجرس ، بل وجدت نفسي أنساب في الدرج كالماخوذ ،
وأجذب درية من يدها في رفق فتساب خلفي ، كأنما ألقت إلى مقاليد
أمرها .

وبلغنا سطح الدار ، فوقنا برهة ننظر إلى الأفق البعيد ، لا ينس أحدا
بكلمة ، وراح قلبي يقفز ليغوص ، ثم يغوص ليقفز ، وأخذ الدم يتدفق حارا
إلى رأسي ، واعترتني رهبة واستولى على ارتباك ، وأخيرا وجدت لساني ،
فرحت أشرح لها حبي ، وأبشها وجدى ، وكانت تلك اللحظات أشهى
لحظات حياتي ، التي عشت أنعم بذكرها سنين .

وأخذنا نتلاقى فوق سطح الدار ، وبعيدا عن العيون ، نسعد بحبنا ، ولكن
لم يدم لنا الصفاء ، ففي يوم من الأيام هرعت إلى السطح لأقابلها ، فألقيتها
مطرقة ، فدنوت منها ، ونفخت في وجهها الهواء . ظلت في عبوسها ، فقلت
لها في حنان :

— ماذا يا درية ؟

فرفعت وجهها ، فأنخلع قلبي ؛ كانت الدموع تترقرق في عينيها
الساحرتين ، فقلت في صوت مخنوق :

— ماذا جرى ؟

فقلت في نبرات متهدجة :

— لن نتقابل بعد اليوم .

وشعرت بخنجر يمزق قلبي ، وبنار تشوى كبدي ، وبمطرقة هائلة تهوى
على رأسي ، فقلت في فرع :



— ماذا تقولين ؟

— انتهى كل شيء بيننا .

— ماذا حدث ؟

— خطبت ، وسيكتب العقد يوم الخميس القادم .

وأطرقت ، ولم أنبس بكلمة وإن كانت النار تحرق جوفى . ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئا ؛ وكنت لا أزال طالبا ، وكان أمامى خمس سنوات لأتم دراستى العالية ، وما كان من المعقول أن أتقدم لخطبتها ، وأطلب منها أن تنتظر هذه السنوات .

ونفضت درية تودعنى ، وفي عينيها دموع ، وفي جبهها أسمى ، فأحسست يدا قوية تضغط على رقبتى ، وجفافا فى حلقى ، وخطر لى أن اضمها إلى صدرى ، وأمسح دموعها بشفتى . ولكنى أحجمت ، فقد انتهى كل ما كان بيننا كحلم قصير ، وتقضت لحظات الهناء ، ولم يبق إلا الضنى والعذاب . وهبطت درية ، وبقيت وحدى فريسة للعذاب ، ثم هبطت فى الدرج وفى جوفى لوعة ، وعزمت على أن أعود إلى بيتى لأنزوى بعيدا ، حتى لا يفطن أحد إلى ما أكابد من كرب وهموم ، ولكنى وجدت باب شقة عمى مفتوحا ، فلم أجرؤ على متابعة النزول خشية أن يلحقنى أحد ، فدخلت وجلست صامتا لا أنطلق بشيء . وجاءت درية وأمها ، ودعت الأم زوج عمى وأبناءها لتشريف الحفل المقام ، بمناسبة كتابة عقد زواج درية ، ودعتنى الأم لتشريفهم فى ذلك اليوم ، فوعدها بأنى سأفعل مسرورا ، وقسمت لأنصرف ، فهمست درية لى بأنه يسرها أن أجيئ ، فأربد وجهى ولم أستطع أن أدارى ما لى ، وانطلقت وفى صدرى ثورة ، ورحت أهبط فى الدرج كمجنون لا يلوى على شيء .

وحاء اليوم الموعود ، ففكرت في أن أذهب إرضاء لدرية ، ولكن قلبي لم يطاوعني ، فقد ثار وتمرد ، فبقيت في حجرتي مطرقا مهموما . ومر الوقت بطيئا ، فرحت أذرع الغرفة صاعدا هابطا ، لأطرد صورة درية التي راحت تلاحقني ، وتحمل تفكيري ، وتعذبتي وتضنني ، وسمعت طرقا على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدت خادما عمى الصغيرة تقدم لي لفافة ، فقلت لها :
— ما هذا ؟

— إنه من درية هاتم .

دوى قلبي دويا شديدا ، وفارت دمائي في عروقي ، وتناولت اللفافة وقد سرت في بدني رعدة ، وتفككت مفاصلي ، وأغلقت الباب خلفي ، وأخذت أفض اللفافة على عجل ، وانتابني قلق ، ووقعت عيناى على ما أرسلته لي درية ، فانقبضت ، يا للسخرية ! كانت أول هدية بعثت بها إلى « علية ملبس » ليلة كتابة عقد زواجها ، ورفعت يدي ، وهممت بتطويح هديتها من النافذة ، ولكني لم أفعل . إنها من درية ، وما كان لي أن أحطم آخر ما جاءني منها .

ومرت عشر سنين ، وزوجت من ابنة عمى التي كانت طفلة في تلك الأيام ، وجلسنا يوما ننسق « ألبوم » الصور ، فقدمت إلى صورة درية فارتبكت ، وقرأت الإهداء ، فزاد ارتباكى . ترى أكتبته لي ؟ وخطر لي أن أستفسر من زوجتي متى أهدت إليها هذه الصورة ، فقلت :
— أظن هذه الصورة قديمة .

— لا ، إنها أهدتها إلى قريبا .

وبقت حيرتي ، ترى أتوطدت الصداقة بين زوجتي وبين درية حتى إنها تكتب إليها : « إلى عزيزتي التي لن أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة

لن تمحوها يد السنين « أم أنها ما زالت تذكر تلك اللحظات السعيدة التي قضيتها معا في شرح الشباب ؟! »
والله إن هذا يحيرني كلما نظرت إلى صورة درية ، وقرأت إهداءها العجيب .

وقلبت صفحة « الأليوم » فرأيت صورة أشاعت البهجة في نفسى . إنها صورة شاب بارز الفكين ، ذى شارب أصفر قصير في وجهه طيبة وبساطة ، عرفته في المصلحة ، وعطفت عليه لما رأيت من اضطهاد رئيسه له ، لا لذنوب إلا أن ذلك الرئيس يعتقد أن واجب الرؤساء الأول اضطهاد المرعوسين ، وكان من سوء حظله أن رئيسه في الدرجة السابعة إذ كان هو على أعتاب الدرجة الثامنة ، وإنه لبون شاسع وفرق كبير .

وأحس الشاب عطفى ، فأحببني ووثق بى ، حتى إنه كان يعرض على مشاكلة ، ويستشيرنى في أموره ، وفى يوم من الأيام جاءنى على استحياء ، وقال لى :

— سأطلب منك طلبا أخشى أن ترفضه .

— لن أرفض لك طلبا إذا كان فى مقدورى أن أحققه .

فقال وقد تضرع وجهه بحمرة الخجل :

— سأتزوج ..

— مبارك .

— وستذهب معى لتطلب لى يد من سأتزوجها .

— أنا ؟ وما دخلى فى ذلك ؟ إننى آخر من يصلح لمثل هذه المهمة .

— لا أطمئن إلى أحد غيرك .

— أرجو منك أن ..

— والله لن أذهب إلا معك .

فقلت فى استسلام :

— أمرى إلى الله .

— سنسافر يوم الجمعة .

— إلى أين ؟

— إلى بلدة قرية من طنطا .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة كنا فى طريقنا إلى طنطا ، وراح يقص على قصة الفتاة التى يريد أن يتزوجها : إنها تعمل مدرسة مع شقيقته فى إحدى مدارس القاهرة ، وقد رآها فى بيتهم فأعجب بها ، ولم يزد على ذلك شيئا . وغادرنا القطار فى طنطا ، وذهبنا إلى السكة الحديدية الضيقة ، لتحملنا إلى بلد المحبوب . قعدنا فى مكان مكشوف فقد كان الجو صحوا جميلا ، وكانت الخصرة الزاهية التى تكسو الأراضى المترامية على مدى البصر ، تهفو إليها النفوس ، وتشيع البهجة فى الصدور .

وزأر القطار ، وهاج وماج ، ثم زحف زحف السلحفاة . إنه قطار عجيب ، يتهاذى فى وقار الشيوخ ، لا يحفل بالزمن ، ولا يخضع لنظام ، يسير كما يشاء ، ويقف حيثما يحلوه . وظل القطار فى تسكعه ، ونحن فى سمر شهى ، وخطر لى أن أتمشى قليلا فى ذلك الجو البديع ، فهبطت من القطار وهو يسير ، ومشيت فى خطوات ثابتة أملأ رئتى بالهواء المنعش ، وأحسست نشاطا يدب فى جسمى ، فأغلذت السير ، وبعد مدة تلفت خلفى فألفيت القطار مقبلا نحوى بضجيج وزئيره ، فانتظرت حتى وصل إلى ، فركبته ثانية ، وجلست إلى جوار صديقى ، ليحملنا إلى بلد ما كنا بالغيه إلا يشق الأنفس !

وغادرنا القطار فى وسط المزارع ، ثم سرنا على شريط مرتفع من الأرض

ينساب على جانبيه جدولان ، فرحنا نسير وقد رفعتنا أذرعتنا في الهواء لنحفظ توازننا ، كأنما كنا نسير على الصراط المستقيم . وانطلقنا حتى بلغنا حانوتا متواضعا بنى بالطين ، فتقدم زميلي إلى من فيه ، وحدثهم قليلا ثم صافحهم في حرارة ، وجاءني مشرق الوجه يدعوني لمقابلة أهل عروسه . فذهبت معه إلى الحانوت ، وصافحت من فيه .

ودعينا للذهاب إلى الدار ، فسار أمانا شاب يهديننا الطريق ، فرحنا نساب في دروب ضيقة ملتوية حتى بلغنا الدار المنشودة . فدخلنا إلى منظره رحبة ، صغت بها الأنضاد والأرائك ، وكانت الآية الوحيدة التي تكشف عن أن أصحاب هذه الدار زاروا القاهرة ، تلك الصور الشعبية التي تباع في الموالد لأبي زيد الهلالي وهو يتكل بأعدائه ، والإمام عليّ على صهوة فرسه يطعن الشيطان طعنة نجلاء يسقط على أثرها مضرجا بدمه ، وكانت في إطارات بسيطة ، معلقة على الجدران في ذوق سقيم .

وفتح الباب ، وأقبل علينا رجل يرتدى طربوشا وجلبابا من الصوف الداكن ، وصافحنا في تحفظ ، وجلس إلى جوارنا يردد ألفاظ الترحيب ، وينظر إلينا في استغراب ، قفطنت إلى أنه لم يكن ينتظر قدومنا . وصمت الرجل فساد المكان سكون ثقيل .. رأيت أن أقطع ذلك الصمت ، وأن أرفع تلك الوحشة التي رانت علينا ، بأن أذكر سبب زيارتنا ، فالتفت إلى الرجل ، وقلت :

— جئنا نخطب ابنتك .

فنظر الرجل إليّ في دهش وقال :

— ابنتي أنا ؟!

فقلت في تأكيد :

— أجل .

فنهض الرجل ، وغادر المكان ، وظل صديقى صامتا لا يتكلم ، حتى أقبل الرجل وفى يده فتاة فى السابعة من عمرها ، وقال :
— هذه كبرى بناتى .

فأرتج على ، ولم أجدر لسانى ، ولم أدر ما أقول ، وصعد الدم حارا إلى وجهى ، وبلغ مسامعى صوت صديقى الخافت وهو يقول :
— جئنا نطلب أختك .

فرنوت إلى صديقى رنوة عتاب ، ولكنى فطنت إلى أنه لم يكن يدرى ذلك قبل الساعة . وتحدث صديقى قليلا عن الصلة التى تربطه بهم ، وحسنا فعل ، زال عنى ذلك الانفعال الذى استولى على ، واستجمعت خيوط نفسى التى ذهبت شعاعا عقب تلك المفاجأة التى لم أكن أنتظرها ، وابتدأت أستأنف حديثى ، فقلت للرجل :

— لا أحب أن أهدعك ، فأقول لك إن صديقى ينتظره مستقبل عظيم ، إننى أقول فى صراحة إنه لن يكون رئيسا للوزارة ، أو مدير المصلحة ، إنه يضع قدمه الآن على أول درجة من درجات الوظائف ، وإنه سيرقى فى سلم الدرجات كما يرقى غيره ، وسيكون قادرا على أن يعيش هو وزوجه حياة متوسطة كما يعيش آلاف من الموظفين أمثاله . إنه شاب طيب ، وإنى أزكيه . ورن فى أذنى « إنى » « أزكيه » رتيئا غريبا ، فالرجل لا يعرفنى حتى يقبل تزكيتى ، وأحسست أنى تجاوزت حدى فبدأت أنكمش ، ولكن كم كانت دهشتى عظيمة . لما رأيت الرجل يقبل على ويحدثنى متفتح النفس ، ثم ينهى حديثه بقوله :

— إنى سأزوجها له إكراما لك !

(صدى السنون)

وانتهت زيارتنا ، واستأذنا وانصرفنا ، وما ابتعدنا عن الدار حتى احتضنني صديقي ، وراح يقبلني في سرور ، وفهمت منه أن أخته خطبتها له قبل ذلك ، ولكنه رفضوا ، وأن الرجل لم يكن مجاملا لما قال إنه سيزوجها له إكراما لي . وخطر لي خاطر ، ترى لو قابلني الآن بعد أن كابد الحياة الزوجية أكان يهرع إلي ليقبلني ؟ ! .

وقلبت صفحة « الألبوم » ونظرت ، فانقبض صدرى ، وراح على نفسى الحزن العميق ، وأحسست غصة في حلقى ، وناراً تحرق كبدي ، كانت صورة أخى العزيز الذى أحبته لقلبه الكبير ، الذى كان يتسع لحب الناس جميعا ، وعادت بي الذكريات إلى شهور قريية ، إلى يوم انطبعت في نفسى ذكراه الأليمة ، يوم أغبر لن يمحو ما خلفه في من أسى . . مر الليالى وكر السنين . كان الليل قد أقبل ، وكانت زوجى تشكو وعكة خفيفة . فهبط من شقته إلى شقتنا ليعودنا ، وجلسنا نتحدث ، فراح يقنعنى أن نساغر في الصباح مع النادى إلى الإسماعيلية ، ولما كنت أنفر بطبعى من الناس الذين لا تربطنى بهم صداقة متينة ، رفضت ، فأخذ يثني عن عزمى ، ولكتنى أصررت على الرفض ، فأقسم أن يأخذنى معه برغم أنفى لأروح عن نفسى ، وبأطلما أخذنى معه قسرا إلى رحلات رائعة بهيجة .

واسترسلنا في الحديث ، ولاحظت احتقان وجهه ، فسألته عما فعله ، فقال لي إنه أخذ قبل عودته حقة لعلاج ضغط الدم ، وصفها له أحد أصدقائه ، وأردت أن أنباه عن ذلك ، ولكى لم أتكلم ، فقد كنت أعلم ألا فائدة من تحذيره ، فقد كان يستعمل أى دواء يسمع به ، أو يصفه له صديق ، أو حتى عابر طريق ، كأنما جسمه حقل تجارب للأدوية والعقاقير .

وقام بعد أن قال لي إننى ذاهب معه إلى الإسماعيلية في الصباح ، وجلست

أتحدث مع أمي التي كانت ستفضي الليلة معنا ، لتعتني بزوجي التي كانت تشكو وعكة خفيفة ، ثم دخلت فراشي لأنام ، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى سمعت جرس الباب يرن ربنا متواصلا ، فنهضت وفتحت الباب ، فألقيت زوجة أخى تقول فى اضطراب :

— تعالوا ، إنه يغط غطيظا مفزعا ، وقد ناديتنه ولكنه لم يرد على .
فهرعت إليه ، وإذا بأمي تسبقني فى الدرج ، قولول فى صوت خافت مفزوع ، كأنما حزر قلبها كل شىء ، ورحنا نهزه فى رفق ، ولكنه ظل فى غطيظه ، فأسرعت أمي إلى قلة الماء وصبتها على وجهه ، ثم حملناه وأقعدهناه ، ففتح عينيه ، وراح ينظر إلينا وقد ترقق الدمع فى مقلتيه ، وقال فى صوت لا يكاد يبين :

— انتهيت .. الأولاد .

ثم أشار بيده إلى نصفه الذى ما كان يستطيع أن يحركه ، ورننا إلينا فى أسى ، فأحسست سكاكين تمزق أحشائي ، ونارا تندلع فى جوفى ، وأسرعنا إلى التليفون ، وطلبنا طبيبا من أصدقائنا ، وانتظرنا مقدمه فى قلق رهيب .
وجاء الطبيب ، وما أن فحص عنه حتى اربد وجهه ، وبان فيه الحزن ، فتناول التليفون ، واستدعى طبيبا آخر ، وراح ينتظره صامتا لا ينبس بكلمة .
فرحنا تذهب ونجىء فى الغرف حيارى وقد لفتنا الرهبة ، ونزل بنا الهم الثقيل ، وأقبل الطبيب الآخر ، ومرت اللحظات التى غابها فى غرفة أخى رهيبة موحشة ، ثم خرج من عنده منكس الرأس ، فهبط قلبي من الخوف ، وأسرعنا إليه ، واستفسرنا منه عما وجد ، فقال فى صوت خافص أقرب إلى الهمس :

— نزييف فى المخ ..

وغادونا الطيبان وقد خلفا في القلب لوعة ، وفي الجوف نارا ، وجلسنا مطرقين ، مرهقي الأعصاب ، نحس مرور الثواني واللحظات ، وراحت أمتي تغدو وتروح شاحبة الوجه ، شاحصة البصر ، تدق صدرها في لوعة وحزن ، وانقضت الليلة كأسوا ما تكون ليلة مرت على إنسان .

وأصبح الصباح ، واستدعينا طبيبا آخر ، فحجمه ، وأمر ألا يدخل عنده أحد ، ورحلت أغدو وأروح في الردهة ، ثم اتجهت إلى باب غرفته وفتحته ، حتى إذا انفرج قليلا نظرت إلى أخي المسجى على الفراش ، فغاص قلبي ، وأحسست جافا وحرقة في حلقى ، ودثرني الحزن العميق ، فقد كانت رؤية أخي الذي كان يملأ الدنيا حياة وهو راقد لا يستطيع أن يرفع ذراعا تفتت كبدي .

وانقضى النهار ، ونحن نترجع بين اليأس والرجاء ، وفي المساء جاء الطبيب وفحص عنه . وقال إنه لو أمضى ليلته هادئا . فقد يجتاز الأزمة بسلام . وتعلقنا بأهداب الأمل ، ومددنا في حبل الرجاء ، فرحنا نذكر من نعرفهم ومن سمعنا عنهم ، ممن حدث لهم ما حدث لأخي ، ونجوا عما أصابهم ، واطمأننا إلى ذلك الحديث ، فاسترسلنا فيه ، فشاعت في النفوس الآمال . وانقضت الليلة هادئة ، وانتصف النهار وهو على حاله ، فرحنا نذكر ما سنفعله بعد إبلاله من مرضه ، ولكن ما إن وفدت طلائع الليل حتى ارتفعت درجة حرارته ، واحتقن وجهه بالدم ، فاستدعينا الطبيب ، فقال إن تلك الليلة فاصلة ، ولم يضاف إلى ذلك شيئا ، وتركنا قريسة للهموم والأفكار . وقعدنا محزونين ، نعد الثواني واللحظات ، ونبتهل إلى الله في حرارة أن يعفو عنه . وانتصف الليل أو كاد ، فتحطمت أعصابي ، ونال مني التعب ، فذهبت إلى فراشي لأستريح قليلا ، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى

استغرقت في النوم ، ورأيت ألى الراحل بوجهه الأبيض ، وشاربه الأصفر ،
يناولنى قطعة من الذهب ، فأطبقت عليها وأنا فرحان ، ولكن لم يدم فرحى
طويلا إذ وفد عملاق هائل ، بشع الصورة ، مفتول العضلات ، ولف ذراعه
القوية حول عنقى ، وأخذ يضغط في قوة ليكتم أنفاسى ، فشعرت بأنى أموت
من الاختناق ، ومد يده إلى يدى ، وحاول أن يغتصب منى قطعة الذهب ،
ولكنى جعلت أجاهد وأحاول أن أتملص منه دون جدوى ، واشتد الضغط
على عنقى ، فأرخيت يدى ، فأخذ منى الذهب الذى أعطانيه ألى ، وهيت
من نومى مرعوبا مفزوعا ، وإذا بصوت الجرس يرن فى أذنى رنينا موحشا .
مقبضا ، خلع قلبى وفك مفاصلى ، وقمت أعدو نحو الباب ، شاخص
البصر ، مبهور الأنفاس ، أكاد أنهار من الإعياء ، وفتحت الباب وقلبى
يغوص فى جوفى ، فألفيت من يدعونى للصعود ، فصعدت قلقا مضطربا
أشعر بغثيان . دخلت على أخى المسجى ، فألفيته بجود بآخر أنفاسه .
فأحسست ألما هائلا يحز فى نفسى ، ولم أطق أن أراه وهو فى نزعه الأخير ،
فخرجت من الغرفة أبكى أحر بكاء ، وشق سكون الليل صوت ألى الشكى
معلنا أن أخى الحبيب قد انتهى وأصبح ذكرى من الذكريات ، فلم أستطع أن
أكبت ما بى ، أو أتغلب على النار التى راحت تحرق جوفى ، فرحت ألتدم كما
تلتدم النساء .

ونظرت من خلل دموعى إلى الألبوم ، فوجدت عبراتى تتساقط على
صورة أخى الذى تقضت أيامه كحلم قصير ، فأغلقت « الألبوم » فى
حزن ، وشعرت بأنى أكاد أختنق ، فنهضت وذهبت إلى الشرفة لأريح
أعصابى التى هيجتها الذكريات ، ولأستنشق هواء جديدا ، لعله يطفى تلك
النار المتأججة بين الضلوع .

صديقي حبيبى

نمت تلك الليلة غرارا ، فما يكاد النوم يمس أجفانى ، وما تكاد عيناي تغمضان ، حتى أهب من نومى ، وأتطلع إلى الأفق الشرقى من خلل النافذة القريبة من فراشى ، فقد كنت أرصد طلوع النهار ، وأخشى أن يأخذنى النوم ، فأستيقظ متأخرا كما اعتدت ذلك منذ سنين .

ولاح لعينى بصيص نور يولد فى الأفق ، فتركت فراشى ، وارتديت ملابسى ، ثم ضغطت على الزر الكهربى ، فبدد النور ظلمة المكان ، فرحت أعدل هندامى ، ثم دسست يدى فى جيبى ، وأخرجت رسالة مطوية نشرتها أماء عبنى ، وجعلت أقرأها فى نشوة ، لأول مرة فى ذلك الصباح ، وللمرة المائة على الأقل منذ تسلمتها من الوزارة قبل ذلك يوم .

كانت رسالة من الوزارة إلى مصلحة من المصالح التابعة لها ، الضاربة فى الصحراء المتراصة بأرباض القاهرة ، وقد جاء فيها أنى عينت مترجما ، وعلى المصلحة أن تسند إلى عملى ، وأن تبعث إلى الوزارة بقرار تسلمى ذلك لعمل ، وطويت الرسالة فى رفق ، ثم دسستها فى جيبى فى حذر ، وانطلقت إلى العمل وأنا جلدان .

ولفح وجهى نسيم الصباح ، فأحسست راحة ، وأخذت أستششق الهواء منشرحاً ، وكنت أحس فى نفسى خفة ، فطويت الطريق التى تفصل بين الدار ومحطة الترام فى لحظات قصار ، وأخذت أدير عينى فيما حولى ، فبدأ

كل شيء جميلا ، فما رأيت الطريق من قبل اليوم هادئة ساكنة هدوء اليوم
الأخاذ ، وأقبل الترام ، فقفزت فيه ، وجعلت أتطلع إلى الركاب ، وأمد إليهم
بصرى وأنا نشوان ، وخامرني شعور لذيذ ، فقد اتسع قلبي لهم جميعا ،
فأحسست نحوهم حبا ، كأنما كانوا رفاقا من رفاق الكلية ، أو أصحابا من
صحاب الطفولة والشباب .

وأحسست رغبة في الكلام ، كنت أود أن أحدث أيا كان ، فالتفت إلى
الجالس بجواري ، وهممت بالحديث ، ولكن عقد الخجل لساني ، وماتت
الكلمات على شفتي ، فسكت على مضض ، وانطلق الترام ، ورحت أتلفت
وأطل من النافذة على الطريق الجديدة ، التي ستصبح من ذلك اليوم طريقى ،
أضرب فيها كل يوم وأنا فرحان .

ونخيل إلى أنى بلغت المكان الذى ينبغي أن أترك عنده الترام ، فهبطت ،
وأدرت عيني فيما حولى ، فلم أهتد إلى ما أفعل ، ووقفت لا أدري إلى أين
أتوجه ولحمت جنديا من جنود الجيش بالقرب منى ، فذهبت إليه ، وسألته عن
المصلحة التى عيّنت فيها ، فأرشدنى إلى طريق يجرى كشریان فى بطن
الصحراء ، فسألته :

— مسافة طويلة ؟

فقال فى ثقة :

— بضع دقائق .

وسرت حتى قطعت الطريق الممهدة ، ثم طفقت قدماى تغوصان فى
الرمال ، ولاح لعيني فضاء عريض ، يسيطر عليه سكون جليل ، فأخذت
أملأ صدري بالهواء ، وأزفر فى هدوء ، ورحت أصفر فى نشاط ، وأدندن فى
سرور ، وتوهج قرص الشمس ، فجعلت أرقب الألوان القرمزية والذهبية

التي انداحت في رقعة السماء في روعة وجمال ، فربا سرورى ، وأحسست
برغبة في القفز والعدو لأنفس عن الإحساسات العذبة المذخورة في صدرى ،
فانطلقت أعدو ، فلما انبهرت أنفاسى ، توقفت حتى أستريح ، ثم رحت أعدو
في الفضاء .

وبعثت الشمس أشعتها الأولى إلى الأرض ، فبدت الصحراء كأنما فرشت
بساط من النور ، ولاح لى على البعد بناية قائمة في جوف الصحراء ، فجعلتها
هدفى ، ورحت أطوى الأرض ، وتصرمت ساعة وبعض ساعة ، وما بلغت
المهدف . وتذكرت ذلك الجندى وهو يقول : « بضع دقائق » فابتسمت ،
فما كان في الوجود من شيء يعكر صفوى في تلك اللحظة .

وصك أدنى نباح كلب ، فأحسست راحة ، أيقنت أنى دنوت من
هدفى ، ولكن سرعان ما فرت تلك الطمأنينة ، وحل رعب وفزع ، فقد
لحت كلبين كبيرين قدرين يعدوان نحوى ، وينبحان في زجرة وغضب ،
فانخلع قلبى ، وأغذذت السير ، وتلفت مذعورا ، ثم هرولت ، ودنا الكلبان
منى ، فعدوت عدوا . ورأيت تراما مقبلا يخترق الصحراء ، فأطلقت ساقى
لريح ، وظلت المطاردة مدة حتى قفزت في الترام ، وأحد الكلبين يحاول أن
ينهش كعب حذائى .

جلست مبهور النفس ، يتفصد منى العرق ، ولا يكاد قلبى يستقر في
جوفى ، ونظرت إلى الكلبين اللذين كانا يجدان في أثر الترام ، فمشيت
قشعريرة في بدنى ، وأخرجت منديلا ، وأخذت أجفف به عرقى ، ثم
تذكرت الرسالة العزيزة التي في جيبى ، فتحسستها ، فلما ألفتيتها في مكانها
هدأت نفسى . وأخرجتها في حذر ، ونشرتها أمام عيني ، وقرأتها ، فنسيت
ما صادفتني من متاعب ، وعادت إلى نشوئى واطمئنانى .

وبلغت المصلحة في أمان ، وسألت أول من قابلت عما أفعل ، فأشار على بأن أقدم نفسي إلى حضرة كبير الكتاب ، وأرشدني إلى مكتبه ، فانطلقت إلى هناك ، فألقيت كهلا قصيرا لا يبعث مظهره على الاحترام ، فاقتربت منه ، وقد انتشرت في صدري إحساسات خوف واضطراب ، وألقيت عليه السلام بصوت مبحوح ، فنظر إلى الرجل في عدم اكتراث ، فقدمت إليه الرسالة العزيزة ، فتناولها مني وقراها ، فلما انتهى منها جعل يتفحصني ، فشعرت بانقباض ، وقال لي وقد رفت على شفتيه ابتسامة لم أرتج لها :

— حضرتك مترجم ؟

ضايقتني ابتسامته ، فاحتبست الكلمات في حلقي ، فلم أجبه ، والظاهر أنه لم يكن ينتظر إجابتي ، فقد استطرد :

— وماذا تترجم ؟

فقلت له في صوت خافت :

— أى شيء ..

فقال في إنكار :

— الأمر هنا يختلف . المترجم عندنا يحتاج إلى إلمام بالمصطلحات الفنية الكثيرة المستعملة بمصلحتنا ، ولقد عهدت بأعمال الترجمة اليسيرة إلى بعض الممتازين من موظفينا . فأخفقوا جميعا ، فاضطرت إلى أن أقوم بالترجمة وحدي ، إنني المترجم الوحيد في هذه المصلحة .

أحسست جفافا في حلقي ، ولم أنبس بكلمة ، وإن كان صدري قد صار مسرحا لإحساسات كثيرة ، وقال كبير الكتاب يؤكد حديثه :

— الترجمة خبرة قبل كل شيء ، وأحسب أنك لن تنجح وعلى كل حال

فلنتظر حتى يحضر المدير ، ويبت في الموضوع .

وسكت ، واستأنف عمله في هدوء ، وتركنى واقفاً أتميز غيظاً . كانت مقابلته لى جافة ، وما دار بخلدى أن أقابل بمثل تلك الجفوة أبداً ، اعتدت أن أقابل فى الكلية أساتذة مبجلين ، كنت أجد منهم رحابة صدر ، ودماثة خلق ، ورقة وكياسة ، فإذا لى اليوم أقابل أول ما أقابل جلفاً ، يمتاز عن السوق بوقاسته وقلة ذوقه ، وبقيت واقفاً مدة ، وقد فاردمى فى عروقى ، وكدت أنفجر فيه أكثر من مرة ، ولكنى تجملت بالصبر ، وأخيراً تعطف حضرته وقال لى :

— اجلس حتى يحضر حضرة المدير .

فجلست منقبض الصدر ، وصعد الدم حاراً لى وجهى ، وتقضى الوقت بطيئاً ثقيلاً ، وأخذت أفكر فيما قاله لى ، فربما ضيقى ، ترى ما الذى جعله يحزم بعدم كفايتى فى الترجمة ؟ أقرأ ذلك فى وجهى ، أم أن صغر سننى جعله يستخف لى ؟! وتلملت كثيراً ، وساد الغرفة سكوت بغىض ، وأخيراً جاء المدير ، فأصلح حضرة كبير الكتاب هندامه ، ثم وضع طربوشه فوق رأسه فى عناية ، والتفت لى وقال فى غلظة جندى بقتاد مجرماً :

— تعال .

فقممت ، وسرت خلفه ، فدخلنا إلى غرفة فاخرة الرياش ، ورأيت رجلاً عليه مهابة ، جالساً خلف مكتب ، فحيته من بعيد ، وتقدم حضرة كبير الكتاب ، واثنتى كقوس ، وقدم الرسالة فى احترام ، فما أن انتهى المدير من قراءتها حتى مد يده مصافحاً ، وقال :

— مبارك يا بنى ، أرجو أن تجد عندنا كل راحة . أنشأنا مكتباً جديداً للترجمة ، وأنت أول من عين فيه ، فأرجو أن يوفقك الله فى عملك .

ونزل كلام المدير على قلبى يرداً وسلاماً ، فهلأت نفسى ، وبان الدهش

في وجه كبير الكتاب ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، والتفت إليه المدير وقال له :
— أرسل حضرته إلى مكتب عبد الفتاح أفندى ، ليتسلم عمله .

فقال كبير الكتاب في تأدب ظاهر وهو ينحنى :

— حاضر يا أفندم .

وخرجنا ، وفي وجه كبير الكتاب ضيق ؛ كان يلوح عليه عدم الرضا عن ذلك التعيين ، ونادى فراشا واقفا بالباب ، وقال له :

— خذ الأفندى إلى مكتب عبد الفتاح أفندى .

وناولنى رسالة التعيين ، فسرت خلف الرجل في عمار ضيقة ، حتى بلغنا حجرة متواضعة ، فدخل الرجل ، فدخلت خلفه ، ووقفنا أمام شاب بدين طويل ، كان يكتب في أوراق مبعثرة فوق مكتبه ، فلما أحس بنا رفع رأسه ، وقال في صوت غليظ متبعث من حنجرتة :

— خيرا .

فقدمت إليه الرسالة ، فلما فرغ من تلاومها ، قال لى :

— تسمح تنتظر فى الخارج قليلا .

فتركت الغرفة ، وانتظرت فى الخارج ، وصلت أذن صوت عبد الفتاح أفندى ، وهو يتحدث فى التليفون بصوت عال :

— يا أفندم أنا طلبت مترجما له خبرة ، لا شابا حديث التخرج لا خبرة له .

فنزل لى هم ثقيل ، واعتراى ضيق ، وأحسست كأن الأرض تدور لى ، لقد طعنت فى كرامتى فى ذلك الصباح أكثر من مرة . ما بال هؤلاء الأجلاف يغزوني غزوا لا مبرر له . ويقدمون السيئة قبل الحسنة ؟ لى لم أترجم شيئا بعد ، ولم يظهر تقصيرى حتى أستحق كل ذلك . كان هجوم كلاب الصباح على أخف وقعا على نفسى من هجوم هؤلاء الظالمين . فكرت أن أترك ذلك

المكان البغيض . وأن أعود من حيث جئت . ومممت بالسير ، وقد طأطأت
بصرى ، وأحسست جفافاً في حلقى ، وشعرت بدمعة حائرة في عيني :
وفتح باب المكتب ، وخرج منه شاب أسمر ، يرتدى ملابس سوداء ،
ومد يده إلى نظارته وأصلحها فوق أنفه ، والتفت إلىى وابتسم ، فظهرت
أسنانه المقوسة الصفراء ، وقال :

— حضرتك الموظف الجديد ؟

— نعم .

— أنا زميلك في المكتب .

— أهلاً وسهلاً .

ومد يده في جيبه ، وأخرج لفيفة ، وقدمها إلىى ، وقال :

— تفضل .

— أشكر لك ، إلىى لا أدخن .

وبدأت نفسى تصفو ، وأقبلت عليه أحادثه ، فقال لى :

— حضرتك متخرج في الجامعة ؟

— نعم .

فسكت قليلاً ثم قال :

— الترجمة ليست بالمؤهلات ، الترجمة خبرة .

فسكت ، واعتراى وجوم ، حتى ذلك الزميل الذى حسبته أول الأمر
ظريفاً يحاول أن ينال منى دون سبب ، وأن يطعسى بلا مبرر ، واستأنف :
— العمل في الحكومة لا يحتاج إلى مؤهلات ، إنه مسألة دراية وخبرة ،

إننى ..

ودق جرس كان مثبتاً عند الباب ، فاعتدل الزميل ، ودخل الغرفة

مهرولا ، ثم عاد وقال لى :

— تفضل .

دخلت ، ووقفت أمام عبد الفتاح أفندى مطرقا ، فقد عرفت رأيه فى ،
قبل أن أبدأ العمل ، وجعل يحدثنى وأنا أنصت إليه ، دون أن أرفع وجهى ،
قال :

— جاءنى قبلك زميل من زملائك الجامعيين ، وكلفته ترجمة بعض قطع
صغيرة ، فلم يوفق فى ترجمتها ، فنقلته إلى مكتب آخر ، وسرى الآن ما
تستطيع أن تفعل .

لم تترج نفسى إلى ذلك الحديث ، فانبضت ، ولكن لم يكن أمامى إلا
الصبر ، وتجرع كل هذه المنغصات دون تبرم ، وقدم إلى كتابا مفتوحا ، وقال
لى :

— ترجم هذا الفصل .

تناولت الكتاب ، ووقفت حائرا لا أدرى أين أجلس ، وفطن إلى حيرتى ،
فأشار إلى نضد صغير ، يستعمل فى وضع الآلة الكاتبة عليه ، وقال :
— اجلس هنا .

جلست على مقعد خشبى أمام ذلك النضد الصغير ، فأصبح وجهى إلى
الحائط ، وطلبت ورقا ، فناولنى زميلى فى المكتب بعض وريقات ، وهو يتسم
ابتسامة صفراء ، فهمت ما ترمى إليه ؛ خيل إلى أنها تصيح لى مستهزئة :
« سرى الآن ما تستطيع الجامعة أن تقدم » . وشعرت بأنى طالب صغير ،
أمام لجنة امتحان قاسية لا ترحم ، فمشيت فى بدنى رعدة ، وسرعان ما جمعت
أطراف نفسى التى ذهبت شعاعا أمام تلك الإهانات المتكررة ، وملكت
أعصابى ، وقرأت ما طلب منى ترجمته ، فالفيتة سهلا لا يحتاج إلى خبرة

أو دراية ، وبدأت الترجمة ، ووطنت العزم على أن أنهج نهج كتاب الأساليب الرنانة ، الذين يلجئون عامدين إلى الألفاظ الضخمة ، والجمل المحفوظة الفخمة الطنانة ، ليدخلوا في روع قرائهم أنهم من أئمة الكتاب ، الذين يملكون ناصية البيان ، فجعلت أتمق الأسلوب ، وأنتقى الألفاظ الغربية ، لتكون شاهدا على علو كعبي في الكتابة !

وانقضت ساعة ، فأنييت ما عهد إلى في ترجمته ، ودفعت به إلى عبد الفتاح أفندي ، فجعل يقرؤه ، وأخذت أرقب أساريه ، لأستشف أثر الترجمة في نفسه ، فتيقنت قبل أن ينطق ، أن الديباجة المشرقة عملت عملها ، ولما انتهى من القراءة التفت إلى وقال :

— لا بأس :

وكأنما ساءه أن أوفق في الترجمة ، ففتح مكتبه ، وأخرج نموذجاً كبيراً قدمه إلى ، وطلب مني ترجمته . قرأت ذلك النموذج ، لم أفهم منه شيئاً ، كان مجموعة من الاصطلاحات الفنية الدقيقة ، فوضعتة أمامي ، وقرأته مرات ، ثم أمسكت القلم ، ولكن أغلق على . أحسست كأن الدنيا ضاقت في وجهي . وفتح الباب ، ودخل رجل إنجليزي ، واتجه إلى مكتب تكدست فوقه أضيائير عدة وجلس ، فنخف إليه زميل المكتب ، ووقف أمامه في أدب ، وأخرج الرجل الإنجليزي سيجاراً من جيبيه ، ووضع في فمه ، وما أسرع ما أخرج الزميل علبة الثقاب ، وأشعل عوداً ، وانحنى يشعل السيجار ، وهمس الرجل بكلمة لم أتبينها ، فهرع الزميل وفتح باب المكتب وقال بصوت عال :

— قهوة لمستر جيمس حالا .

ونفض عبد الفتاح أفندي ، وقال للزميل ، وهو يغادر الغرفة :

— إني ذاهب إلى مكتب المدير ، وسأعود بعد قليل يا شكري أفندي .

— حاضري يا سعادة البك .

ووقف شكرى أفندى بجوار مستر جيمس ، وانطبعت على شفتيه ابتسامة تملق ورياء . وهو يرقب حركات الرجل الإنجليزى فى انتباه ، فإذا مد يده ليأخذ ملفا من الملفات ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى أفندى إلى الملف وتقدمه فى لياقة ولباقة ، وإذا أخرج محبرته ليملا القلم ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى إلى المحبرة وتنزع غطاءها ، ثم يأخذ القلم ويملاّه وينظفه ، ولولا الملامة لأخرج منديلته المتدلى من جيب سترته ، ونظف به سن القلم العزيز مما لصق به من حبر .

ونظر إلى مستر جيمس طويلا ، كأنما كان يستفسر عن ذلك الدخيل الذى أقبل إلى المكتب دون أن يقدم نفسه إليه ، وفطن شكرى إلى نظراته ، فقال له :

— إنه موظف جديد .

والتفت إلى وقال :

— تعال أقدمك إلى مستر جيمس ؟

تركت النموذج الذى حيرنى ، واتجهت إلى حيث كانا ، فأخذ الرجل يحادثنى فى تحفظ ، ثم قال لشكرى :

— أراه الملفات ، ونظام حفظها ، لعله يستطيع أن يساعدك . أحسست هوانا ، فما جئت لأحفظ ملفات ، إني فهمت من مدير المصلحة أنى قادم لأنشىء قسما للترجمة ، وكنت أحسب الأمور سهلة هينة ، فإذا بى أجد أناسا لا يودون احترامى ، أو الاعتراف بتعيينى .

وخرج مستر جيمس ، وطفق شكرى بعرض على الملفات ، وهو يردد بين كل جملة وأخرى :

وأخرى :

— الحكومة ليست فى حاجة إلى مؤهلات ، العبرة كل العبرة بالخبرة .
وأيقنت من حديثهم أنهم لا يحقدون على ، بل يحقدون على مؤهلاتى ،
لأنهم يحاولون الغض من شهادتى الجامعية ، ويتحدثون عنها كأنها وصمة ،
ودليل على عدم الخبرة ، فعزمت فى نفسى أمرا .

وانتهى اليوم الأول بخيره وشره ، وأزف ميعاد الانصراف ، فأقبلت سيارة
حكومية ، ووقفت عند باب المكتب ، وفتح الباب ، وظهر عنده مستر
جيمس ، فأسرع شكرى وحمل حقيبة كبيرة بها أوراق كثيرة ، فحسبتها فى
أول الأمر حقييته ، وإذا بمستر جيمس يمد يده ليتناولها ، ولكن شكرى أصر
على أن يحملها حتى السيارة ، ووضعها بجوار السائق ، ووقف بعيدا ، وقد
رفت على شفثيه ابتسامة ذليلة ، ركب مستر جيمس ، وأشار لشكرى
بالركوب ، فأسرع وركب بجوار السائق مسرورا .

شعرت بضيق ، وتيقنت أنى لن أسيع العيش بين هؤلاء للمشغلين ،
ونخفضت بصرى فى استسلام حزين ، ثم نظرت إلى النضد المتواضع الذى
خصص لى ، فوقعت عينى على النموذج الذى أخفقت فى ترجمته ، فانقبض
صدرى ، وخيمت على نفسى سحابة كدر ، وأحسست أن كبريائى تثور ،
فما كنت أريد أن أخفق أمام هؤلاء التافهين المتعجرفين ، وخطر لى أن آخذ
النموذج معى ، وألا أعود إلى العمل إلا بعد أن أترجمه كما أحب وأشتهى .
وتناولت النموذج ، وخرجت وحيدا أضرب فى الطريق الطويلة الموصلة إلى
الترام .

وذهبت إلى مكنتبات القاهرة ، أبحث وأنقب ، حتى اهتديت إلى دليل
إنجليزى يشرح دقائق الفن الذى عهد إلى أن أترجم مصطلحاته فاشتريته ،

وعدت إلى دارى ، وأخذت أقرأ فى ذلك الدليل ، وتقضت ساعات ، وأنا مكب على القراءة والدرس ، وراحت الساعات تمر ، ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ، وما ترجمت من النموذج حرفا ، ولكنى كنت أوقن فى قرارة نفسى أنى سأتمكن من ترجمته قبل أن أدخل فراشى .

وبدأت الترجمة ، فألفيت نفسى منطلقا فيها ، وما دقت الساعة الثانية عشرة حتى كنت قد أنجزت كل شىء على ما أشتى ، وهمت بالنهوض لأنام ، ولكن خطر لى أن أقرأ باب الملفات وطرق حفظها ، حتى أفهم شكرى أفندى الذى تعالى على اليوم ، بل خطر لى أن أتحدى المستر جيمس ، وتناولت كتابا إنجليزيا فى الحفظ وطرقه ، ورحت أقسرؤه ، وأدون ملاحظاتي ، فلما دقت الواحدة ، ذهبت إلى فراشى لأنام ، وأنا مطمئن النفس ، فلن يسخر منى عبد الفتاح أفندى ، ولن يشمت فى شكرى . ولن يتعالى على بعد اليوم المستر جيمس .

وحاولت النوم ، ولكن لم أذق طعم الغمض ، رأيت بعين خيالى ما مر لى فى ذلك اليوم ، فاهتديت إلى أن مسألة هؤلاء الناس لن تجلب لى إلا الهوان ، فالناس جميعا لا يقيمون وزنا للوديع المسالم ، ولكنهم يهابون المشاكس الذى لا يحجم عن مناواتهم ، والتيل منهم ، يعملون له ألف حساب ، فعزمت على أن أناوئهم جميعا ، وأن أشعرهم بأننى لست سهل الازدراد .

وأصبح الصباح ، فخرجت إلى العمل ، ولم تكن نفسى صافية صفاء الأمس ، كنت بالأمس أحسب أنى ذاهب إلى حيث أجد رفاقا رحماء بينهم ، وإذا لى اليوم أنطلق وأنا أعلم أنى ذاهب إلى أناس محدودى الآفاق ، همهم الأول تنقيصى ، والغض من شأنى ، والاستعلاء على ، وإيهامى أن المؤهلات وصحة ينبغي ألا يوصم بهاذوو الخبرة والكفايات ! كانت الطريق هادئة (صدى السنين)

موحشة ، فزادت في وحشتي ، وكانت المصاييح خامدة هامة ، تلفظ آخر أنفاسها قبل طلوع النهار ، فكانت تطفئ روعي ، وأقبل الترام فصعدت في تكاسل وتراخ ، وأدريت عيني في الركاب ، فألفيتهم جميعا من رقيقى الحال ، الذين هجروا فراشهم الدفء في البكور ، ليكدهوا من الصباح إلى المساء لقاء لقمات ، كان البؤس مرتسما على محياهم ، ولأول مرة أحسست أنى واحد من هؤلاء البائسين ، فما اضطرني إلى الخروج في الصباح الباكر ، واحتمال سخافات الناس إلا الطعام ، فانتقبض صدرى ، وشعرت بغصة في حلقى ، وتضاءلت نفسى في عيني .

وبلغت المكتب مبكرا ، فقد عرفت أن هناك تراما يصل إلى المصلحة ، وأن لا ضرورة لاختراق الصحراء سيرا على الأقدام ، وأنخذت أقسلب الملفات ، فوجدتها لا تسير على نظام من النظم العلمية المعروفة ، فأخذت أتذكر ما قرأته في أمسى عن « طرق الحفظ » . وفتح الباب ، وأقبل شكرى أفندى ، وسلم على ، وقبل أن يتحدث عن الأقدمية والخبرة ، وأثرهما في الحكومة ، سأله :

— من وضع نظام الحفظ هذا ؟

— مستر جيمس .

فقلت في لهجة الواصل الخبير :

— خطأ .. هذا نظام خاطيء لا يستند على أساس .

فنظر إلى ، وفغر فاه كأنما قلت عجبا ، وظل ينظر إلى في دهش فما كان يصدق أن يجرؤ موظف ليس له في خدمة الحكومة أكثر من أربع وعشرين ساعة على تخطيط مستر جيمس ، وجاء مستر جيمس ، فحيانا بإيماءة خفيفة من رأسه ، وجلس إلى مكتبه ، ونظر شكرى إلى لسان حاله

يقول : « قل له ذلك إن كان عندك شجاعة » فلم أنتظر ، وتقدمت إلى جيمس ، وقلت له دون تمهيد أو مقدمات :

— اطلعت على نظام الملفات في هذا المكتب ، فوجدته نظاما شاملا .
فرمقني الرجل في دهش وقال :
— كيف ؟

— إنه لا يسر على طريقة عملية من طرق الحفظ ، فللحفظ طرق ثلاث .
وظفقت أسرد في طلاقة ما استذكرته في أمسي ، فبان في وجه الرجل حيرة وارتباك ، وظل ينصت إلى دون أن يقاطعني . فلما انتهيت من محاضراتي ، نهض وغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة .

وأقبل شكرى على محادثتي في تحفظ ، وقد خفف من غلوائه ، وفقد ثقته في نفسه ، فلم يتكلم بأسلوب الواصل ، وفطنت إلى أن شخصيته تضاعلت وانكمشت ، فسرت في صدري ابتسامة هازئة .

وأخذت أرقب إقبال عبد الفتاح أفندي ، ومر بعض الوقت ، وجاء يتهادى بجسمه الضخم ، وما إن جلس إلى مكتبه حتى ذهبت إليه وقدمت له ترجمة النموذج ، فجعل يقرؤه في إمعان فلما انتهى منه ، التفت إلى وقال :
— عال . أظن أنك تعبت في ترجمته .

فقلت في عدم اكتراث :

— أبدا ما أيسر الترجمة .

— ومن أين لك معرفة هذه المصطلحات ؟

— مرت على من كثرة الاطلاع ، إني أقرأ كثيرا .

ويعلم الله أني لم أكن أعرف قبل أمسي كلمة واحدة من تلك المصطلحات الغريبة ، ويعلم الله أني ما كنت أرغب في الكذب ، لولا أن هذه هي الطريق

الوحيدة التي تضمن لي العيش بين هؤلاء المتعاليين التافهين .
وجيء بمكتب لي ، ووضع بجوار مكتب مستر جيمس ، فرحت أعمل
هادئ النفس ، وجعلت أختلس النظر إلى شكرى بين وقت وآخر ، فأجده
مطرقا مهموما ، فأبتسم في شماته ، فقد أَرْضَانِي قهرى إياهم جميعا في ذلك
اليوم ، وانتقامي لما نالني على أيديهم في أمسى الذي لن أنساه ما حييت .
وخرج عبد الفتاح أفندى ، وتركني وشكرى ، فدنا شكرى مني وقال
في تملق ظاهر :

— أتعرف أن عبد الفتاح أفندى حاول أن يترجم ذلك النموذج من
شهور ، ولكنه لم يفلح !؟

فانشرح صدرى ، لأن عبد الفتاح أفندى أخفق في ترجمة النموذج ، بل
لأن تملق شكرى لي دليل على أنني ملأت مكافئ أسرع مما كنت أقدر ، وجاء
مستر جيمس ، وما إن وقعت عيناه على حتى قال :

— إن طريقة الحفظ التي تتبعها هنا من وضع الوزارة ولا يمكن تبديلها .
ووأدت بسمة ودت أن ترسم على شفتي ، فما أسرع ما أعلن الرجل
الهزيمة ، وانقضى اليوم ، ووافى ميعاد الانصراف ، وجاء مستر جيمس في
سيارته ، وفتح باب المكتب وقال لي :

— حقيقتي من فضلك .

لم أتحرك من مقعدي وإن ثار دمي في عروقي ، فقد شعرت أن في طلبه
إهدار الكرامتي ، فما جئت لأحمل حقيته ، ونظرت إليه شزرا ، وسرعان ما
هرع شكرى إلى الحقيبة ، وحملها في سرور ، وانطلق إلى السيارة في خفة
فوضعها ، ثم قفز إلى جوار السائق ، ولم يلتفت إلى حتى لا يرى في عيني
نظرات الحسد ، فقد كان يحسب أنني أحسده على مركزه الممتاز .

ومرت الأيام ، واعتدت إنجاز العمل الرتيب التافه ، واعتدت سماع
تفاهات شكرى أفندى فى عدم مبالاة ، وفى يوم دق جرس التليفون ،
فرفعت السماعه ، فإذا بصوت نسوى رقيق يطلب مستر جيمس ، قلت إنه
غير موجود الآن ، ولما وضعت السماعه ، ألفت مستر جيمس يقبل نحوى :
ويقول فى حدة :

— كيف تقول إنى غير موجود وأنا فى انتظار هذه المكالمه ١٩

فقلت فى برود :

— لم تكن على مكتبك .

— ولكن شكرى أفندى يبحث عني دائما إذا ما طلبنى أحد .

فأحسست كبريائى تدمى ، فقلت فى غضب :

— شكرى أفندى شىء ، وأنا شىء آخر .

وسكت مستر جيمس وهو مقهور ، وذهبت إلى مكتبى وصدرى
مسرح لإحساسات متباينه ، وفيما أنا غارق فى أفكارى ، أقبل على فراش
يستدعينى لمقابله كبير الكتاب ، فذهبت إليه وأنا حائق ، فما كنت أحب
مقابله ، ولكن ما إن وصلت إليه حتى قدم إلى كرسيا وأكرمى ، وسألنى أن
أترجم له بعض فقرات فنيه عجز عن ترجمتها .

تناولت ورقة ، وترجمت ما طلب منى على عجل ، وتركت له المسوده
متعمدا ، لأشعره أننى لست عاجزا مثله لأسود مرات ما أترجمه ، ولم أنتظر
منه حتى يقرأ الترجمة ، وتحركت لأعود إلى مكتبى وسرت خطوات ،
وسمعت صوته ينادينى ، فعدت إليه ، فسألنى عن معنى كلمه عربيه سهله ،
فابتسمت فى إشفاق ، وعرفته معناها ، وعدت إلى مكتبى ، وقد تبخر
غضبى ، وسرى فى صدرى إحساس سعيد ، شعرت أننى انتقم لكبريائى

التي جرحها حضرة كبير الكتاب يوم جئت إلى مكتبه أول مرة .
وفي يوم أخذ شكرى أفندى يكتب على الآلة الكاتبة تقريراً كتبته مستر
جيمس ، فتناولت نسخة من التقرير وقرأته ، فألفت به عدة أخطاء ، كان
مستر جيمس لا يحسن استعمال حروف الجر والأفعال ، فتناولت قلماً ،
وأخذت أصوب له الأخطاء ، فثار شكرى أفندى ، وأرغى وأزبد ، واتهمنى
بالغرور ، فكيف يصحح مصرى أسلوب رجل إنجليزي يكتب بلغته ؟
وراح يرصد قدوم مستر جيمس متلهفاً ، فلما لمح قادمًا إلى مكتبه هرع
إليه ، وقدم إليه النسخة التي أجريت فيها قلمي ، فلما رأى جيمس ما فعلته ،
احمر وجهه وضاحت عيناه ، وظهر عليه الغضب والحنق ، وغغم
بكلمات ، فأرهفت سمعى ، كانت سباباً ولا شك ، ولكنى لم ألتقط منها إلا
هذه العبارة :

— هذا عبث أطفال ، أصبح هذا المكتب لا يطاق .
وتناول التقرير ثائراً ، وألقى بالمسودة التي شرحتها بقلمي ، وخرج
بالتقرير ليرفعه إلى رئيسه الإنجليزي .
وغاب مستر جيمس ، وراح شكرى أفندى يرنو إلى في شماعة ، ولسان
حاله يقهقه سخرية من ذلك المغرور الذى أورده غروره موارد الهلاك . كان
يعجب فى نفسه كيف أن مستر جيمس أطاقنى فى هذا المكتب إلى هذا
الوقت ، وكنت أنا نفسى أعجب من ذلك ، ولكنى لم أكن آبه أن أعمل فى
ذلك المكتب أو فى سواه .

وعاد مستر جيمس ، وما أن رأيت وجهه حتى رأيت فيه ذلة الانكسار ؟
تقدم منى ، ووضع أمامى التقرير وهو يتسم ابتسامة مريرة ، فجرى نظرى
سريعاً على التقرير ، فألفت رئيسه قد صوب له بالمداد الأحمر جميع الأخطاء

التي أصلحتها وأثارت غضبه ، فرفعت نظري إليه ، وأنا أحس إشفافا ،
وكبت مشاعري ، وحاولت أن أبدو هادئا حتى لا أجرح شعوره ، ولكنه
ابتسم ابتسامة عريضة ، فرحت أهون عليه الأمر ، وبدأت صداقتنا .

ودق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالصوت النسوي الرقيق
يسأل عن جيمس ، فالتفت إليه وقلت له :
— يطلبونك .

— من ؟

— لا أدري ، صوت ناعم .

فابتسم وقال :

— إنها جان .

ولما انتهت محادثته ، قال لي في غبطة :

— ما أطفها .

فتعالييت وقلت له :

— من ؟

— جان ، إنها تدعوني للخروج اليوم .

وراح يقص علي قصة جان .

وفي ذات يوم أخذت أنا وجيمس ننسق طلبات المصلحة من الخانات
والأجهزة ، فألفيته يوصي بشرائها من إنجلترا ، فقلت إننا نستطيع أن نشترى
أغلب هذه الأصناف من السوق المحلية ، فنوفر جهودا ووقتا ، ولكنه راح
يقنعني أن من الأصلح أن نشترى كل شيء من إنجلترا ، ولم أقنع ، وما كان
اقتناعي ليقدم الموضوع أو يؤخره ، فقد كان كل شيء في ذلك الوقت في
أيديهم .

وفي يوم لن أنساه ، أقبل عامل يعرض على آلة من الآلات التي نشترها بكثرة من إنجلترا ، وقال لي إنه صنعها يديه وجربها ، فكانت نتائجها تضاهي نتائج الآلات البريطانية ، فهزني السرور ، ووعدته بأنني سأبذل كل جهدي لعرض آله على الرؤساء ، ليكاخوه تشجيعا له ، وكنت آمل أن تكون المكافأة سخية ، ليكون ذلك حافزا لزملائه على أن يقتنوا به .
وأخذت العامل ، وأدخلته على رئيسنا ، وعرضنا عليه الجهاز ، فأظهر سروره ، وقال لي :

— اعرض الموضوع على مستر جيمس .

وذهبت إلى مستر جيمس ، وما شرحت له الموضوع حتى ظهر على وجهه ما يحتمل في صدره من غيظ ، وقال لي في حدة :
— ساء ، هل فعل بعض أجزاء هذه الآلة في المصلحة ؟ فسألته ، فقال لي إنه اضطر إلى استخدام حوض الزيت لتقوية المعدن لأنه لا يملك في منزله حوضا .

فقال لي مستر جيمس :

— ساء ، في أي درجة من درجات الحرارة يتحول الحديد إلى صلب ؟
وراح مستر جيمس يسأل العامل أسئلة دقيقة حتى أخرجته ثم قال في لهجته الغاضبة :

— هذا عبث ، إنه يضيع وقته في صنع ما لا طائل تحته ، إنه لا يتج
للمصلحة شيئا ، سيكون أسوأ سيئة لإخوانه ، أرى أن يخصم منه ثلاثة أيام .
فأردمي في عروقي ، فذهبت إلى رئيسنا المصري ، وعرضت عليه الأمر ،
فقلت له إن مستر جيمس يسوءه أن ينجح عامل مصري ، وإنني أرى عرض
الأمر على الرؤساء ؟ ولكن رئيسي أطرق ولم يجب ، ففهمت أنه لا يريد أن

يعادى مستر جيمس .

وخرج العامل يحمل الجهاز الذى صنعه وهو يحمد الله على أنه قد نجا من خصم الأيام الثلاثة ، فقد عارضت مستر جيمس فى ذلك الخصم ، وجلست مهموما ، وإذا بمستر جيمس يدعوني إلى مكتبه ، ويقول لى فى رقة :

— حرام أن تشجع مثل ذلك العامل .

فنظرت إليه فى دهش ، وقلت له ؟

— لماذا ؟

— ستضره ، ستملؤه غرورا ، وتقضى عليه ، إنه لا يصلح لشيء .

فقلت فى غضب :

— إنك استعمارى قبح يا جيمس .

— أبدا .

— لا تعمل إلا لمصلحة بلادك ، وإن ضحيت بمصالح بلادنا .

— هذا قول هراء .

— لماذا تتنصل من ذلك ؟ كلنا يحب وطنه .

فقال فى هدوء عجيب :

— الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

— لا يا جيمس ، حب الوطن غريزة ركبت فينا .

— غريزة بدائية .

— الطير يحن إلى عشه ، والمرء يهفو إلى أرض منبته .

— ذلك من ضيق الأفق . لم لا تجعل الدنيا كلها وطننا ؟ إن مصر وطنى

ما دمت أجد فيها السعادة والهناءة .

— هذا كلام .

— ماذا يهمنى من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضرنى لو أن أستراليا انفصلت عنا ، ولو أن الهند استقلت ولم تصبح من ممتلكات التاج ؟

— هذه سفسطة يا جيمس .

— إن ما أقوله هو ما أعتقد .

— مثلك يا جيمس مثل الأب الذى لا يحس أية عاطفة نحو أبنائه ما داموا

معاقين ، فإذا ما تعرضوا لخطر ، شعر بالقلق والفرع والهول .

— دعك من فلسفتك ، قلت لك إنه لا يهمنى أمر إنجلترا ما دمت سعيدا .

— وما دامت جان بجانبك .

فابتسم وقال :

— وما دامت جان بجانبى .

— هذه أناية يا جيمس ، لو صدقت فى قولك .

— فسرهما كما يحلو لك .

ومرت أيام وأعلنت الحرب ، وراحت ألمانيا تلتهم أوربة قطعة قطعة ، فما تبدل

جيمس ، وما تحدث عن الحرب أبدا ، كأنما كان الأمر لا يعنيه ، وابتلعت

ألمانيا أوربة جميعها ، وتأهبت لتأكل بريطانيا ، وبدأت المعركة الرهيبة ،

وباتت إنجلترا فى خطر داهم .

وفى ذات يوم جاء جيمس عابس الوجه ، وفى عينيه عزم ، فلما رأيته

أنكرته ، وقلت له :

— ما بك ؟

— سأسافر .

— إلى أين ؟

— إلى إنجلترا .

— وما تفعل ؟

— الوطن ينادينا .

— الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

— بالله لا تسخر ، إلى حزين .

واسترسلت فى حديثى :

— ما يهلك من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضريك لو أن أستراليا قد

انفصلت عنكم ، أو أن الهند استقلت ولم تصبح من ممتلكات التاج ؟

— كفى أرجوك .

— ومتى تسافر ؟

— قريبا .

— وجان ؟

— إنها تشتغل بالتمريض ، وتقوم بواجبها هنا .

وسافر جيمس وماودع أحدا ، ومرت الشهور تتلوها الشهور ، وغمرتنا

الحياة ، فنسينا جيمس ، وفى يوم من الأيام ورعى الحرب الرهيبة دائرة ، أقبل

إلى مكتبنا إنجليزى من أصدقاء جيمس ، فجعلت أحادثه ، ثم سأله فجأة :

— أما تبلغك أنباء جيمس ؟

فقال فى صوت خافت :

— مات .

— كيف ؟

— قتل فى إغارة من إغارات الفدائيين على فرنسا

فأطرقت وأنا أفكر فى ذلك الذى أراد أن يوهمنى يوما أن الوطن لفظ

أجوف ، وخدعة من خدع الساسة .

غضبة الحريم

فتح الباب الضخم ، ورفعت الستر الفاخرة ، ولاح السلطان في ثيابه المزركشة بالقصب ، المزدانة باللؤلؤ والزمرد والياقوت ، فانحنى وزيره في تجلّة واحترام ، حتى إذا ما اتخذ السلطان مجلسه ، رفع الوزير رأسه ، وأخذ يعبث بلحيته ، وهم بأن يعرض على السلطان شئون إمبراطوريته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان شرد برهة ، ثم ضحك ونهض من مجلسه ، وانطلق إلى الباب الضخم ، فاجتازه إلى الدهليز الطويل ، حتى غاب في جوف القصر !

امتعض الوزير ، وضرب الأرض برجله في حنق ، ثم راح يذرع الغرفة الرائعة التي فرشت بطنافس فاخرة ، ونثرت فيها الثمار الجميلة في ضيق .. فقد تركه السلطان لينطلق إلى الحريم يقص عليهن قصة أسعفته بها ذاكرته الآن بعد أن خائنته بالأمس وهو يحاول جاهدا أن يذكرها !

كان السلطان في خريف عمره ، وقد اشتعلت في صدره تلك الجذوة التي تنوهج قبل أن تحمد وتصيح رمادا ، فكان يشعر بالنشوة التي يحسها الشمع قبل أن يفقد وعيه .. كان يقضى أوقاته بين النساء والجواري ، يقطف الورد من الحدود الندية ، ويلثم الشفاء الحلوة المزمومة ، ويمتّع عينيه بروائع الحسن والجمال .. وكان احتفاله بنسائه وجواريه ، وإقباله عليهن يضايق الوزير ويحنقه ، فما كان السلطان يقابله إلا للحظة من اللحظات . وحتى في تلك

اللحظة لم يكن ينصت إليه ، بل كان يشرد بذهنه ، فيضحك للحة تذكرها ، على حين أن الوزير يعرض عليه أمرا يوجب العيس والتقطيب ! وأخذ الوزير يعث بلحيته وقد أغمض عينه . وأسبل أخرى فقد كان ينمق مقالا يرجو أن يمس أوتار قلب السلطان ، فيبعده عن حريمه ، ليتفرغ لأمر رعاياه .. وفجأة عاد السلطان متطلق الوجه ، وجلس وهو يضحك ، فراح الوزير يعرض عليه أمور الإمبراطورية الواسعة ، فكان ينصت إليه حيناً ، ويتشغل عنه أحياناً . فتضايق الوزير وجمع أطراف شجاعته ثم قال :

— بعض وقتك يا مولاي ؟

— ماذا ؟

— لو منحتنا بعض وقتك يا مولاي لازددنا رضا على رضا ..

فحدجه السلطان بنظرة فيها بعض الغضب ، فقال الوزير :

— نظرة عطف من عينيك الغاليتين تملأ بالطمأنينة القلوب .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— هل يسمح مولاي أن نجوس خلال الأسواق ، نتفقد أحوال الناس ،

ونستمع إليهم ، ونحقق لهم أمانهم ؟

خفض السلطان بصره ، وقطب جبينه لحظة ، فقد كان يفكر .. ثم رفع

رأسه ، وبان الرضا في صفحة وجهه ، والتفت إلى الوزير وقال :

— لنخرج إلى الناس .

وقام من مجلسه ، وهم بالانطلاق صوب الباب الكبير وقال :

— سأعود إليك عما قليل .

وابتداً يتحرك صوب الحريم ، ورأى الوزير أنه لو دخل عليهن لنسى

وعده ، فقال في توصل :

— بالله يا مولاي دع النساء الآن !

فنظر إليه السلطان نظرة مشوبة بغضب ، ما ليث أن زال وحلت محله
ابسامة لطيفة ، فقد كان طيب القلب ، يحب وزيره ويثق به .

* * *

خرجوا بجوسان خلال الأسواق متكررين ، وراح الوزير يسقص على
السلطان قصصا عن النساء تحط قدرهن ، وتحقر شأنهن ، فقد كان يعمل
جاهدا على أن يفيض السلطان في نسائه وجواريه .. وكان الوزير محدثا لبقا ،
وناقدنا ساخرا : فنفذ إلى قلب السلطان حديثه ، وما قفلا عائدتين إلى القصر
حتى وطد السلطان العزم على أن يهجر الحريم ..

وتقضت ليلة ويوم وما طاف السلطان بنسائه كما اعتاد أن يطوف ، فبدا
الدهش في الوجوه ، فما كان يطيق أن تنقضى ساعة وهو عن الحريم بعيد ..
ومر اليوم الثاني ، وانقضت الليلة الثانية ولم يزر السلطان نسائه وجواريه ،
فتزل بصدورهن هم ثقيل ، وتساءلن في عجب عما قلب السلطان عليهن !
وانقضى اليوم الثالث في ترقب ، ومضى من الليلة الثالثة بعضها دون أن
يفكر السلطان في الطواف بهن ، فلم يطقن صبرا . واتجهن إلى سلمى —
وكانت أقربهن إلى قلبه — وقلن لها :

— اذهبي يا سلمى إليه ، لترى ماذا جرى !

نهضت سلمى تتأهب للقاءه ، فارتدت غلالة رقيقة تفضح تكوينها
البديع ، ورجلت شعرها السبط ، وتضمخت بالعطور ، وأسرعت أيدي
النسوة إليها تسوى من شعرها المتهدل ، وتعمل على إبراز محاسنها ومفاتنها ،
حتى إذا ما انتهت من زينتها انطلقت إليه في هيئة تفتن العابد في محرابه .

دخلت عليه في غرفته ، فألفته ساهما يفكر ، وكانت الشموع تبعث



ضوءها الهادئ ، فتضفى على المكان شاعرية ، وتبهى مسارح رحبة للخيال ،
وتقدمت نحوه فى خفة الطيف ، وارتقت إلى جواره ، ورنّت إليه بعينها
النجاوين ، وغمغمت فى دلال :

— مساء الخير يا مولاي ..

فظل السلطان فى تفكيره ولم يلتفت إليها ، فمدت يدها وجعلت تمررها
على لحيته فى حنان . فهب من الفراش نافرا ، وانطلق إلى الشباك ، وراح ينظر
منه ، فانسابت خلفه وهمست :

— انقضت ثلاثة أيام دون أن نجتلى طلعتك ، فلكانها ثلاثة دهور . ما
الذى غير قلبك الرحيم علينا ؟

— لا شيء ..

— ما كان من طبعك أن تهجرنا الأيام الطوال . بغض العيش ويرد
الفراش !

والتصقت به ، فملأت رائحتها خياشيمه ، فتحركت عواطفه التى كان
يقاومها ، وقد رنا إليها ، فبهره حسنها ، وكادت مقاومته تنهار ، ولكنه تذكر
أقوال الوزير فامتعض ، وحمدت الأحاسيس التى هبت تنصارع فى صدره ..
ولمحت سلمى دلائل الامتعاض فى وجهه فقالت :

— تبدلت يا مولاي حتى كدت أنكرك .

فغمغم السلطان :

— الوزير يا سلمى ..

— وماله الوزير ؟

— نهانى عنكن ، وبغضنى فى النساء .

فأطرقت سلمى قليلا ، ثم انسحبت تجر أذيال إخفاقها وبدأت أبجرة الحقد .

على الوزير تنتشر في صدرها ، وما بلغت الحريم حتى راحت تقص على النساء النبأ في غيظ ، فامتلات صدورهن بالغضب ، وأطرقن يفكرن في القصاص من الوزير الذي سلهن السلطان ..

ومرت أيام وهن ينسجن خيوط الانتقام ، ولما اطمأنت قلوبهن إلى ما دبرن انطلقت سلمى إلى السلطان .. كان صافي النفس ، فأقبل عليها يحادثها .. وتشعب الحديث ، فأخذ السلطان يقص عليها أنباء ما يفكر فيه لرفاهية شعبه ، ولما جاء ذكر الوزير أثنى عليه ، فانتهزت سلمى هذه الفرصة وقالت :

— وزيرك يا مولاي يضحى براحته في سبيلك وسبيل شعبيك ، إنه يستحق الخير كله ، لم لا تمنحه منحة ، تقديرا له وتشجيعا ؟

— وماذا أمنحه يا سلمى وله الحظوة والمال ؟

— أعطه جارية حسنة .. هب له بثينة ، فما عنده مثلها ، ولا رأى قط أجمل منها !

فطأ طأ السلطان رأسه قليلا ، ثم قال :

— هدية طيبة ..

ووهب السلطان بثينة لوزيره ، فلما دخل الوزير عليها ففرغاه ! بشرة ناصعة البياض ، وعينان آسرتان ، وحسن باهر ، وجمال قاهر ، لا يقوى على الصمود أمامه إنسان .. فتقدم وقلبه في صدره كجناح خافق ، ومد يده إليها ، ولكنها فرت منه في دلال ، ونفرت في خفة الغزال ، فابتسم في اطمئنان ، فلئن نفرت اليوم . فستقبل عليه غدا عارضة الوداد ..

ودخل عليها في اليوم الثاني ، وأخذ يتودد إليها ، فكانت تصده في جفاء ،

(صدى السنين)

فتعلق بها ، وكان يزدداد شغفا كلما ازدادت صدا .
ومرت الأيام وهى على الصد قائمة ، فتدله بها حبا ، ولم يطق الصبر على
ذلك الصد الثقيل ، فأخذ يتوسل إليها أن ترحمه من عذاب الفؤاد ..
وتظاهرت بالعطف ، ورنفت إليه بطرف عينها ، فأحس كأن قلبه يذوب
وجدا ، فقال :

— بثينة ، كفى صدا !

فقالت :

— أود أن أصدقك ، ولكنى أخشى !

— تخشين ماذا ؟

— أن تلعب بى ..

— أنا عبدك طوع بنانك ..

— وما برهان حبك ؟

— اطلبى روى أجد لك بها ..

— لا .. سأطلب أمرا هينا .

— ماذا ؟

— غدا إذا صلى الناس العشاء اتنى ..

ثم أخذت تهمس فى أذنه ، فقطب وجهه قليلا ، ولاحظت تقطيعه ،

فقالت :

— ولو فعلت هذا أيقنت من حبك لى ..

فقال فى صوت خفيض :

— إلى الغد بعد العشاء ..

انتهى الناس من صلاة العشاء ، فأب كل إلى داره ، وذهب الوزير إلى

بشيئة ، يمتنى النفس بالوصول . وانطلقت سلمى إلى السلطان وانتمست منه أن ينطلق معها إلى مخدع الوزير لأمر خطير . ولكن السلطان أبى وأعرض عن توسلاتها ، فهمست في أذنه همسة هب على أثرها ، وراح يجرد في السير ، وهي تهرول خلفه ، حتى وصلا إلى حجرة في قصر الوزير ، وإذا السلطان يغرق في الضحك .. إذ رأى بشيئة قد أسرجته وألجمته ، وركبت على ظهره !

وكتب عاصفة الضحك التي كانت تغالبه ، وقال لوزيره في عتاب :

— ألم تكن تنهاني عن حب النساء ؟!

فقال الوزير في ذلة :

— أعز الله السلطان ، كنت أخاف عليك أن يقع لك معهن مثل هذه

الحال .

ترويض امرأة

راح حسن يصعد في الدرج متصيب العرق منهوك القوى يشعر بالجوع ينهش أمعاءه ؛ فهو عائد إلى بيته محطما ، بعد عمل مضمن متواصل في الديوان ؛ إنه من أولئك البائسين الذين تدور على رأسهم مصلحة بأسرها ؛ فهو مسعول عن إنجاز أخطر الأعمال ، وعلى الرؤساء العديدين النازلين بالغرف الفاخرة الممتدة على جانبي الردهة الرئيسية ، أن يشرفوا أعماله بتوقعاتهم الكريمة ؛ وإنه لعمل جليل يستحق الحمد والثناء .

ووقف أمام الباب يطرقه في تراخ ، وهو يلتقط أنفاسه المبهورة ، وأقبلت الخادم الصغيرة ، وفتحت الباب ، فاندفع إلى غرفة النوم ؛ وراح يخلع ملابسه وهو ينظر إلى زوجه الممدودة في السرير في استعطاف ، كان الجوع يعضه بآنيابه ، والتعب يدب في أوصاله ، وكان يطمع في أن تنهض وتجهز له الغداء ، ولكنها ظلت في رقدتها لا تلتفت إليه . كان يحلو لها أن تتمدد لتسترخ قبل أوبته بلحظات . ودنا منها وقال :

— كريمة . هيا لتغدى .

فتمطت في تراخ ؛ ولم تنبس بكلمة ، فقال يستحثها :

— هيا .

فقالت في تكاسل :

— أحس تعباً يفلك مفاصلي .

— قومي .

— اذهب أنت وجهز لنا الغداء .

لم يكن هذا جديدا عليه ؛ اعتاد أن يسمعه كل يوم ، ولكنه أحس غضبا يتحرك في صدره ، وغيظا يلفه ، وفكر في أن يتنفس عن غضبه ، وأن يتفجر فيها صائحا بأنه ما عاد يحتمل ذلك الهوان ، ولكنه كتم ما به ، وذهب إلى المطبخ يجهز الغداء .

كان يوهم نفسه أن من الحكمة ألا يثور ، ففي الثورة تعكير لصفو حياته ، وقضاء على هنائه ؛ فكان يتغاضى عن إساءات زوجه ويزدرد أخطائها في يسر مدانه يستريح إلى خنوعه ، ويعد نفسه عاقلا رزينا لا يقيم وزنا لتوافه الأمور . إنه في واقع الأمر طيب القلب ، ضعيف الشخصية ؛ وزاد في تخلخل شخصيته أنه اعتاد أن يتلقى أوامر رؤسائه العديدين ، وأن يتفرضا دون اعتراض ، فاطمأن إلى الاستسلام والخضوع .

أخذ يغدو ويروح بين المطبخ وحجرة المائدة حتى إذا انتهى من غرف الصحافة ، وأعد كل شيء ، ذهب إلى غرفة النوم يدعو كريمة ، فألقاها لا تزال راقدة في فراشها ، فقال لها :
— انهضى فقد أعد الغداء .

فقلت له في تناؤب :

— تغد أنت ، إني أشعر برغبة في النوم .

فتحرك غيظه ؛ ولكنه لم يثر ، بل قال في توسل :

— قومي ، لقد برد الطعام .

— أوه !

وقامت في تكاسل ، وغادرت القراش ، ولكنها لم تذهب إلى غرفة

المائدة ، بل اتجهت إلى المرأة الطويلة القريبة من سريرها ، وراحت تديم النظر إلى قوامها اللدن المشوق ، وتقرب وجهها من صقال المرأة ، وتمرر أصابعها على أهدابها الطويلة ؛ ثم تنظر إلى وجهها الفتان في راحة وإعجاب .

وبقى حسن يتميز غيظا ، وكاد يزفر استياء ولكنه تمالك نفسه ، واستعان بالصبر ، حتى لا يأتي بما يجرح شعور كريمة ، فتثور لكرامتها المهدرة ، وتلرف الدمع السخين ، وهو يهاب دموعها ويخشأها ، فهي تمزق قلبه ، وتقبض صدره ، وتصده عن الطعام وإن كان الجوع ينهش جوفه ، ويقطع أحشائه .

وأخيرا ذهبا إلى غرفة المائدة ، وقعدا يتناولان طعامهما ؛ وراح حسن ينظر إلى وجهها الخلو القسمات ، فانقشع غضبه ، وأحسن راحة تكتشفه ، ونشوة تدغدغ حواسه ، وشعر برغبة في أن يتودد إليها ليرضاها ، فلعله أساء إليها وهو لا يدري ! فقال لها في انشراح :
— سنذهب الليلة إلى السينما .

فنظرت إليه بعينها الجذابتين ، وانبسبت أساريرها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة عبثت بأوتار قلبه ، فانداحت في صدره موجة من الغبطة والسرور .

وانتهى الغداء ، فحمل الصحاف إلى المطبخ راضيا ، ثم ذهب إلى فراشه وتمدد فيه ، ففكر في أنهما سيخرجان معا فانشرح ، سينطلقان الليلة في شوارع القاهرة يتناجيان كعشيقين ، إنه يحس سعادة كلما سار معها في طريق ، أو جلس بجوارها في سينا ، أو حادثها همسا في سيارة ، كان وجوده معها بعيدا عن البيت يحرك عواطفه ويذكى نار حبه .

واسترسل يفكر فيما يفعلانه بعد الخروج من السينما ، أيعودان إلى البيت ،

أم يذهبان إلى الجزيرة ، لينعما بجمال الطبيعة ، وروعة الليل القاتن الجذاب ، فاستقر رأيه على أن ينطلقا إلى شاطئ النيل ، يمتعان نفسيهما بالسحر الحلال ، واستمر في تفكيره ينعم بأحلام يقظته .

ووافي ميعاد الخروج إلى السينما ، فارتدى ثيابه منشرح الصدر ، متفتح النفس ، وغادر غرفته ، فألقى غرفة الاستقبال مفتوحة ، فأطل برأسه ، فأربد وجهه ، وطارت سعادته ، وانقبض . إن كريمة دبت — كعادتها — أختها ، وابنتى عمها ليشاركاها في سهرتهما ، وثارت ثائرتة ، كان يحلم بأنهما سيخرجان وحدهما بجوسان خلال القاهرة ، كحبيين فرا من أعين الرقباء ، فإذا بها تدعو أقاربها ، وتقوض أحلامه .

وضاق صدره ، وزاد غيظه ، وفكر في أن يدعو زوجته ، ويعلنها بغضبه ، وبأنه لم يعد يحتمل هذا التنغيص ، وأن يثور ثورة هائلة ينفس بها عن نفسه ، ولكنه رأى من الحكمة ألا يثور ، حتى لا يعكس صفو حياته ، أو يقضى على هنائه .

وفي ليلة من الليالى عاد حسن إلى داره بعد ميعاده الذى اعتاد أن يعود فيه ، فقد قابل بعض زملائه ، وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، فسرقه الوقت دون أن يحس ، فلما تيقن من أنه تأخر خفق قلبه ، وسرى في صدره قلق ورهبة . كان يدرى ما ينتظره عند أوبته .

ووقف أمام بابه يدقه في رفق ، وقلبه في جوفه يدوى خوياً ، ومر الوقت ولم يفتح له أحد ، فطرق الباب في شدة ، ولكن ما من مجيب ، واستمر في دقه والوقت يمر ، وهو يتململ في وقفته ، يلفه خوف وحنق . وأخيراً سمع صوت كريمة الغاضب ينبعث من وراء الباب يستفسر :

فقال في حشرجة :

— أنا ، افتحى .

فصاحت في غضب :

— لن أفتح ، اذهب وأمض بقية الليل حيث كنت .

فقال في همس وهو يتلفت ، خشية أن يراه جيرانه في موقفه الدليل :

— كريمة ، افتحى .

— لا . اذهب .

وهز الباب في غضب ، وهتف في صوت خافض ، كله توسل ورجاء :

— كريمة .. كريمة ..

ولكنها ذهبت ولم تجبه ، فحرك غيظه ، وطفى غضبه ، وفكر في أن يحطم الباب ، ولكنه ما كان بقادر على أن ينفذ خواطر الثورة التي كانت تراوده ، فتحلم على كره منه ، ولما كان التعب قد نال منه ، فإنه جلس على الدرج القريب من بابه ، وأخذ ينتظر أن يمن عليه قلب كريمة الغضبان .

وانقضى بعض الوقت ، وسمع وقع أقدام ، فنهض ينظر ، فألقى بعض جيرانه صاعدين قارتبك ، وخطر له أن يفر إلى السطح ، ولكن أغضبه ذلك الحائط ، وراح يعاود طرق الباب في شدة وحنق .

وقفت كريمة الباب ، ثم جفلت كفزال شارد ، وانطلقت كعاصفة نائرة إلى غرفة النوم ، فذهب خلفها وهو يضطرب ، فألفاها قد ارتمت في السرير تبكى وتتنحب ، فراح يخلع ملابسه منقبض القلب ، وأحس نار الغيظ تندلع في جوفه ، وتمنى أن ينفجر نائرا ، وأن يصيح بها بأن صدره قد ضاق عن احتمال ذلك العنت والعذاب ، ولكن طبعه غلبه . فلاذ بالصمت ، واندس في فراشه دون أن ينبس بكلمة ، حتى لا يعكر صفو هنائه ، أو يقوض

صروح سعادته !

وفي يوم من الأيام ، عاد إلى داره بعد عمله المضنى في الديوان ، ودلف إلى غرفة النوم ، فوجد زوجه في فراشها ، ولكن ما أن رأته حتى هبت من رقدتها ، واتجهت إليه ، منبسطة الأسارير ، فأوجس خيفة ، كان يخشى ما وراء ذلك النشاط الطارئ الغريب .

ودنت منه ، وقالت له قبل أن يخلع ملابسه :

— إني في حاجة إلى نقود .

فقال في صوت مبحوح :

— لماذا ؟

— بعثت الخياطة إلى لأتسلم الثوب الجديد .

فقال في صوت خافت :

— انتظري حتى أول الشهر .

فأربد وجهها ، ولاح فيه الغضب ، وقالت في ثورة :

— ماذا تقول الخياطة عني ؟

وتركت الحجرة حائقة ، ودلفت إلى حجرة أخرى ، وأغلقت خلفها الباب في شدة ، فانقبض ، وامتأأ حنقا وغضبا ، وخطر له أن يثور ، وأن يصرخ فيها بأنه لم يعد يحتمل غرورها ، ولكنه لم يثر حتى لا يعكر صفو حياته ، فمد يده في جيبه ، وأخرج ما فيه ، ثم ذهب إليها يقدم لها ما طلبته في ذل وخضوع .

واستمرت كريمة تجرعه كأسها المرير ، وهو يزدردها صابرا . وضاق صدره يوما بمشاعره التي يكتمها ، فشعر برغبة في أن يتنفس عن نفسه ، فأقبل

على زميله في المكتب يقص عليه متاعيه ، فقال له زميله :

— الذنب ذنبك .

فقال حسن في إنكار :

— ذنبي أنا ؟

— أجل ، لم تكن رجلا .

فاحمر وجه حسن ، وأحس كبرياءه تجرح ، فقال في تلثم !

— لماذا ؟

— نزلت لها عن حقوقك ، وأيديت الرضا والخضوع .

— من الحكمة أن نحني رءوسنا للروابع حتى تمر بسلام ، لنحافظ على صفو حياتنا .

— بل لنبقى على التنغيص الدائم المستمر ، لو أنك ثرت في وجهها أول ما حاولت أن تسلبك حقوقك ، لما استرسلت في طغيانها ، المرأة كالفرس ، إذا كبحت جماحها اتقادت لك ، وإذا أطلقت لها العنان جمحت .

فأطرق حسن قليلا ثم قال :

— وماذا أفعل الآن ؟

— روضها .

فقال حسن في فزع :

— أتشير عليّ بضربها ؟!

ولاحظ زميله فزعه ، فابتسم وقال :

— لم أقل لك اضربها ، بل روضها .

— وكيف أروضها ؟

— كما تروض القردة .

فبان الدهش في وجه حسن وغمغم :

— القردة !

— أجل . القردة ، ألم تر مروض القردة وهو يروضها ؟

— أبدا .

— فلا غرابة إذن في أنك لا تعرف كيف تروض امرأة .

— وهل رأيته أنت ؟

— أجل .

— أين ؟

— في يوم من الأيام دعاني صديق لزيارة مروض قردة ، فأخذنا نخرق شوارع القاهرة العتيقة ، حتى إذا خلقنا البيوت المتهدمة القابعة عند أقدام تلال المقطم ، رحنا نرقى مرتفعا ، فلما بلغنا قمته ، رأينا على بعد خطوات حجرة مشيدة بالصفيح الصديء القديم ، وتقدمنا ودقنا الصفيح ، فخرج إلينا رجل لوحته وجهه حرارة الشمس ، واسع العينين غزير الشارب ، في وجهه قسوة وصرامة ، يرتدى جلبابا أزرق ، وما إن رأانا حتى حيانا مرحبا ، ثم قدم إلينا صفيحتين ، وقال في بساطة : « تفضلا » فجلسنا .

وذهب الرجل ، وغاب قليلا ، ثم عاد وهو يسحب قردا وكلبا ، وتحت إبطه خيزرانة طويلة ، وشد القرد إلى وتد في الأرض شدا وثيقا ، وقعد القرفصاء والكلب أمامه ، وراح يقوم ببعض الحركات ، ويطلب من الكلب أن يفعل مثله ، ولكن الكلب ظل ثابتا لا يحرك ساكنا ، فسحب الخيزرانة وضربه بها ، فعوى . ورأى القرد ما حل بالكلب فأتكمش من الرعب ، وحاول أن يفر من الخوف .

استمر الرجل يقوم بحركات مختلفة ، ويطلب من الكلب أن يحاكيه .

ولكنه عجز عن ذلك ، فضربه ضرباً قاسياً ، فغاص قلب القرد ، وراح يقفز في فزع ، فما يقع أمام عينيه ينزل به الرعب الشديد .
ثم استل الرجل سكيناً ، وأضجع الكلب على مرأى من القرد وذبحه ، فراح القرد يقفز مرعوباً ، ويجذب نفسه ليقر من ذلك الهول ، ولكن أنى له ذلك ، كان في عنقه طوق من حديد ، تتدلى منه سلسلة شدت إلى الوتد الثابت المكين .

وألقى الرجل بالكلب بعيداً ، وعاد إلى القرد ، وقعد أمامه ، فابتعد القرد مفزوعاً ، فجذبه إليه ، وجعل يقوم ببعض الحركات ، ويطلب منه أن يفعل مثله ، فكان يحاكيه ، وأخطأ مرة ، فضربه بالخيزرانة ففزع ، وحرص على أن يحاكيه في دقة غريبة ، إنه أيقن أن بعد الضرب الذبح وما كان يجب أن يهدر دمه رخيصة . وصمت الرجل ، وغمغم حسن :

— بديع !

فقال زميله يحرضه :

— روضها كما روض الرجل قرده .

فقال حسن في عزم :

— سأفعل .

— أظهر لها أنك قادر على البطش بها .

— ما أيسر القسوة .

— أوح إليها أنك تستطيع أن تحيل حياتها جحيماً .

— سأعكر حياتها يوماً ، لتصفو حياتنا إلى الأبد .

وعاد حسن إلى الدار ، وراح يصعد الدرج ، وقد بيت في نفسه أمراً ، عزم على أن يثور ، وعلى أن يحطم كل شيء في سبيل استرداد هيئته ، ودق

الباب ففتحت له الخادم الصغيرة ، فدخل يضرب الأرض بقدميه في قوة ، وانطلق إلى غرفة النوم ، فألقى زوجته ممددة كمعادتها ، فلم يلمس منها أن تعد له الغداء كما اعتاد أن يفعل ، بل تلجع ملابسه ، ولبس منامته ، وتعدد في سريره ، ولم ينيس بكلمة .

وانتظرت كريمة أن يتكلم ، ولكنه لم يفعل ، فقالت :

— هلا تتغدى ؟

فقال في صوت آمر كلفه جهدا قاسيا :

— أعدى الغداء .

وكاد يضعف ، ولكن كم كان عجبه لما رآها تنهض ، وشد ذلك أثره ، فعزم على أن يسير إلى نهاية الشوط ، وليكن ما يكون .

وجلسا يتناولان طعامهما ، وما ازدرد لقيمات حتى طلب من الخادم كوب ماء ، فجاءت الصغيرة تقدم له الكوب ، فدفع يدها عامدا ، فسقطت عليه بضع قطرات ، فهاج وماج ، وصرخ في الطفلة ، فتقهقرت مرعوبة ، فتقدم نحوها وضربها بظهر يده ، أرادها أن تكون الكلب الذى يتحمل الأذى في سبيل ترويض القرد ، ولكن الضربة أصابت أنفها ، فسال الدم منها ، وما إن رأى الدم حتى تخلخلت مفاصله ، وأحس رأسه يدور ، أراد أن يكون مروضاً ، ولكن طبعه غلبه ، إنه يحس الأرض قيد تحت قدميه . وتحرك ليعود إلى مقعده ، ولكنه لم يستطع أن يملك نفسه ، فتهالك وسقط في حجر زوجته مغشيا عليه .

كازانوفا جديد

١

مشط شعره الذهبي بأصابعه ، ورفع وجهه الأبيض ، فلمعت عيناه
العسلتان ، ودعك أنفه المحمر دائما بيده ، ثم ابتسم ابتسامة رقيقة ، ودفع
صديقه بمرفقه في خفة ، وقال له في همس :

— أرايت ؟

— ماذا ؟

— إنها تغمز لي .

فرفع الصديق وجهه الأسمر إلى حيث كان كمال ينظر ، فلمح فتاة في شرفة
مرتفعة، ولكنها كانت تطل على الناحية الأخرى ، فقال كمال وهو
يضحك :

— أشاحت بوجهها لما مددت بصرك إليها .

وانطلقا بجوسان خلال طرقات الحى ، وراح كمال يلقي متولوج سهل
وجران ، من رواية النسر الصغير ، في نبرات ممتلئة ، وكان يضغط على
الألفاظ حيناً ويلين أحياناً ، فيتقلص وجهه وينبسط ، ويرتفع صوته
وينخفض ، وتتسع عين ، وتضيق عين ، ويلوح بيده في الهواء مندججا في

دوره ، ناسيا أنه في الطريق .

كانا طالبين في السنة النهائية بالمدارس الثانوية ، وكان كمال رئيس فرقة التمثيل بالمدرسة ، وكان حمدي رفيقه الذي لا يفارقه يصغى إلى تمثيلياته في إعجاب ، ويستمتع إلى مغامراته في لذة يشوبها طيف من الغيرة أحيانا ، وما أن أنهى كمال من متولوجه حتى التفت إلى حمدي وقال وقد انبسطت أساريره :
— كانت البارحة ليلة من ليالي العمر لا تنسى .

— وماذا حدث البارحة ؟

— أما قصصت عليك ما جرى بالأمس ؟

— لا ، وماذا جرى ؟

— نهلت من التبع الصافي ، وسبحت في بحيرات السعادة ، وحلقت في سماءات الحب ، وطرت على جناح الغرام .

— هلا هبطت إلى الأرض وقصصت على ما حدث ؟

— عدت إلى البيت بعد أن تركتك ، وأخذت أدق جرس الشقة دقا متواصلا ، فلم يفتح لي أحد .

طرقت الباب يدي في عنف ، ففتح باب الشقة المواجه لشفقتنا ، وخرجت فتحية ، كانت الرقة والظرف ، فلو أن الرقة والظرف تجسما لما كانا غير فتحية ، انسابت نحوى في خفة الطيف ، وهمست في صوت شحن أنوثة وسحرا :

— خرجوا وتركوا لك المفتاح .

تناولت المفتاح وأنا أرنو إليها في إعجاب ، رأيته كثيرا ولكني لم أرها قط في روعة الأمس ، كان شعرها الأسود محلولا يتهدل فوق كتفها ، وبدا وجهها كالبدن ، وراحت عيناها تشعان بريقا يخطف القلب ، فاضطربت أنا

الذى لم يعد يضطرب في حضرة النساء ، من كثرة ما رأيت من نساء ، ولاح على الارتباك ، ولكنى جمعت شجاعتي سريعا ، وابتسمت لها وحنيت رأسي ، وقلت :

— متشكر .

وحاولت أن أقول أكثر من ذلك ، فلم يسعفني الكلام ، فدخلت الشقة وأنا أشعر بضيق ، وظلت صورة فتحية بشعرها المسترسل المحلول ، وثوبها المتزلى الذى أبرز مفاتن الجسم أمام عيني لا تريم . دخلت حجرتي وفتحت كتابا ، وحاولت أن أقرأ ، لأشغل ذهني بشيء غيرها ، ولكن كانت صورتها في كل صفحة ، واسمها في كل سطر ، قلم أطق المكث ، فخرجت إلى الشرفة ألنقط الهواء ، لعل هبوب النسيم يطفئ تلك النار المندلعة في الضلوع ، والتفت فلمحتها في الشرفة القريبة من شرفتي ، فاضطربت النار المتأججة في جوفي ، وقفز قلبي في صدري ، وظل يطفو ويغوص ، وانساب دمي حارا في عروقي ، كأنما يتدفق من أتون ، وما كان أمامي إلا أن أفكر في طريقة أصل بها إليها ، فأخذ فكري يعمل في نشاط عجيب ، وما هي إلا لحظات حتى قفزت إلى رأسي فكرة استرحت لها ، فرحت أنفذها من فوري . لعلما قلت لك يا حمدي أن المسألة لا تحتاج إلا إلى شيء من اللياقة ، وقليل من الشجاعة ، قطعت زر البيجاما ، ثم ذهبت أطرق بابها ففتحت ، فقلت لها في صوت هادئ :

— إبرة من فضلك .

فظهر في وجهها التساؤل ، فقلت وأنا أرفع الزر بين أصابعي :

— قطع وبحث عن الإبرة ، ولكنى لم أهتد إلى مكانها .

وغابت قليلا ، وانتشرت في صدري أحاسيس متباينة ، أحاسيس النشوة

وأحاسيس الرهبة من أن يحقق تدبيرها ، وعادت وفي يدها إبرة ، ولم تدفعها إلى بل قالت :

— هات الزر أثبتته لك .

فقلت ممثلا الارتباك :

— لا أود أن أتعبك .

فقالت :

— هذا شيء بسيط .

فقلت وأنا أبتسم :

— هذا لطف منك .

ومدت يدها إلى البيجاما لثبت الزر المقطوع ، ولكنها فطنت إلى أننا نقف خارج الباب ، فقالت :

— تفضل .

فدخلت وأغلق الباب خلفنا .

انحنت تغرز الإبرة في البيجاما ، فاختلطت أنفاسنا ، وأصبح رأسها تحت أنفى فامتلات خياشيمي بعيرها فاضطربت ، ووقعت عيناى على الأخدود الغائر بين النهدين ، فسرت رجفة من بدنى . وتلاقت عيوننا مرات ، فكانت تترجم في ومضات عن الشعور المكبوت .

— لم أشعر إلا بيدى تضغط على يدها في حنان ، ولم تمض لحظات حتى شعرت بذراعى تلفان خصرها ، وشفتى تبحثن عن الشجر الحلو الدقيق .

رفع يده يمشط شعره الذهبى بأصابعه ، ومد بصره إلى لا شىء ، وقال فى
إلقاء تمثيلى :

— تلمع السعادة يا حمدى فى حياة الإنسان كوميض البرق فى سماء ملبدة
بالغيوم . سعدت روحى بالأمس لحظات مرت كلمح البصر ، وتقضت
كحلم جميل ، الحب يا صديقى كالحرب : مناوره فمفاجأة فتطويق فتسليم .
وصمت كأل قليلا كما يفعل كبار الممثلين ، ثم قال :

— رأيتهما تخطر عند الغروب ، كانت الفتنة والحسن ، صدر شاخ فى
استعلاء ، كأنما شعر بجلاله وروعته ، وخصر دق حتى أشفقت عليه من ثقل
الأرداف الممتلئة التى شدت إليه ، وساقان ممشوقتان خرطتا من مرمر ، أما
الوجه فكان آية من آيات الحسن والجمال .

ما وقعت عيناي عليها حتى انجذبتا إليها كما ينجذب مسمار إلى مغناطيس ،
اقتربت منها فلمحتها تمضع لبانا ، ولما كنت على يقين من أن الأمر لا يحتاج إلا
إلى شىء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، هرعت إليها دون تردد ، حتى كاد
كتفى يلمس كفها ، ورنوت إليها ، وقلت فى هدوء :
— قطعة من اللبان من فضلك .

فالتفتت إلّى فى ارتباك ما لبث أن غاض ، وأشرق وجهها دون أن يفتر
نفرها عن اللؤلؤ النضيد ، وهزت رأسها فى دلال ، فقلت فى إصرار :
— لن أبرح حتى آخذ قطعة اللبان .

فقلت في صوت رقيق :

— إذن لن أعطيك .

فقلت في انشراح :

— أشكرك .

فقلت في إنكار :

— وعلام تشكر ؟

قلت في هدوء :

— لأنك لا تودين أن أتركك .

فقلت في استخفاف متكلف :

— ومن قال ذلك ؟

قلت :

— أنت ، ألم أقل لك : لن أبرح حتى آخذ قطعة . فقلت إذن لن

أعطيك ، فهل معنى ذلك إلا أنك تريدني بقاءً ؟

فمدت أصابعها إلى فمها ، وأخرجت قطعة من اللبان ، وقالت :

— خذ .

فتناولت القطعة وأنا أقول :

— على ألا أنصرف .

فابتسمت في سرور .

فقال حمدي وقد شعر بعقارب الغيرة تلسعه :

— محظوظ .

فقال كمال في اعتداد :

— بل لبق جسور .

ومرت ثلاثة أيام لم ير حمدى فيها صديقه ، فانتظره فى شوق ، ولكن تقضت الساعات دون أن يقبل ، فأحس مللا ، فخرج وحده يطوف فى الحى ، ويضرب فى شوارع ، رأى فتيات رائحات غاديات ، فكان يرقبهن على البعد فى اشتاء ، ولمح فتاة تخرج وحدها ، فوسوست له نفسه أن يتبعها ، فراح يقتفى أثرها ، وفكر فى أن يقترب منها ويغازلها ، فشعر بقلبه يخفق خوفا ، وبرهبة تسرى فى صدره ، واضطراب يلفه ، فحنق على نفسه ، وسمع هامسا يهمس فى جوفه : « رعديد ما كان كمال ليحجم » فشار على ضعفه ، وحاول أن يصرعه ، فوسع من خطوه حتى إذا ما اقترب منها قفزت إلى ذهنه فكرة : « ماذا يفعل لو أنه غازلها فصفعتة ، بدل أن تبتسم ؟ » وما مثل هذا الخاطر فى فكره حتى جبن وازداد اضطرابا ، وفترت حماسه ، فقلل من سرعته ، وأخذت الفتاة تبتعد عنه ، ثم دخلت دارا قريبة .. فهدأت ثورته ، ونزلت السكينة قلبه ، غزفر زفرة طمأنينة وارتياح .

واستأنف سيره ، وما خطا خطوات حتى لمح كالا مقبلا ؛ وهو يمشط شعره بأصابعه ، ويدعك أنفه المحمر أبدا ، فابتسم مرحبا ، وقال :

— أين كنت طوال هذه الأيام ؟

— فى نعيم أمرح .

— فتحية أم فتاة اللبان ؟

— بل صيد جديد .

— وكيف وقعت عليه ؟

— كنت في دار عمى جالسا وحدى في الردهة ، وجاء إلى امرأة عمى زوار ، فقادتهم إلى غرفة الاستقبال ، بقيت وحيدا الحظات . وقع بصري على التليفون ، فلمعت في رأسي فكرة .

فرفعت السماعة ، وطلبت السترا ، فرد على صوت نسوي حلو فقلت :

— عندك جريدة من فضلك ؟

قالت :

— نعم ! ماذا تريد ؟

فقلت :

— أريد أن أعرف روايات السينما في هذا الأسبوع .

فقالت :

— رأيت رواية جميلة في سينما مترو .

فقلت :

— لم تعد لها قيمة عندي ما دمت قد رأيتها . إنني لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى وأظن أنك لا تحبين أن تشاهدي رواية واحدة مرتين في أسبوع .

فقالت :

— لا أفهم ماذا تريد ؟!

فقلت :

— بلى تفهمين .

فقالت :

— أهى دعوة ؟

قلت :

— متواضعة ، ليتك تلبين .

قالت :

— غدا أمام سينما ريفولى .

قلت :

— متى ؟ وكيف أعرفك ؟

قالت :

— فى السادسة مساء وسأرتدى ثوبا أبيض فى صدره وردة حمراء .
انتظرتما فى الميعاد ، ولحقتها مقبلة ، فأسرعت إليها ، حتى إذا ما اقتربت منها
قلت وأنا أمد لها يدي :

— آلو .. آلو .

فأخفت فى يديها بمنديل فى يديها ، لتعجب ضحكة ودت أن تنطلق . ثم
مدت يديها وصافحتنى وهى تقول :

— أهو أنت ؟

قلت :

— نعم ، أخاب ظنك فى ؟

فكسرت أهدابها وغمغمت :

— شيطان .

لم تكن رائعة الحسن ، ولكن زانها جمال الصحة والشباب ، كانت نابضة
زاخرة بالحياة ، إذا نظرت إليك بعثت الدفء فىك ، وأيقظت الإحساس
المهاجم ، نعمنا بالرواية ونحن فى غمرة من السعادة ، ثم انطلقنا بعدها إلى

الجزيرة ، ورحنا نذرع طرقاتها في سكون الليل وهدوئه ، كان القمر يتألق في
رقعة السماء ، ويعكس ضياءه على صفحة الماء ، ويفرش مسارب الطرقات
أمامنا بساط فضي أخاذ يهز المشاعر ، ويفعم النفوس بالغبطة ، كانت ليلة لن
أنساها .

تعلقت عينا حمدي به ، وكان يصفي إليه في انتباه ، وسمع همسا يهمس في
أذنيه : « محظوظ » ولكن سرعان ما راح الهمس يردد : « بل لبق
جسور » .

٤

سار حمدي في شارع قواد الأول يتلفت وقد انتشت روحه ، فقد مر
بأسراب ، وعجب لتلك الأيدي الماهرة التي صفت الشعور ، وزججت
الحواجب ، ونشرت المساحيق والأدهان في صفحات الوجوه في فن
وإبداع ، فأبرزت الروعة والجمال ، ورأى فتيانا يسعدون بمصاحبة فتيات ،
ففكر في وحدته ، وسأل نفسه : « ألا يجد بين هؤلاء المنطلقات من قبله
صديقا ؟ » منهن من ترحب بهله الصداقة من غير شك ، ولكنها لن تأتي إليه
عارضة عليه أن يسعى إليها ، المسألة لا تحتاج إلا إلى شيء من الباقة ، وقليل
من الشجاعة ! هذا ما يقوله كمال المجرب وهو يؤمن بذلك كل الإيمان ، ولكن
من أين له الشجاعة ؟ إنه ما يقترب من فتاة حتى ترتعد فرائصه ، وتتابه
رهبة ، ويفكر في الفرار .

سيعيش وحيدا إذا ركن إلى طبعه ، أما إذا أراد أن يحب كما يحب الشباب ،
فعليه أن يجمع أطراف شجاعته ، ويغازل فتاة . وكان قد وصل إلى شارع

سليمان باشا ، فخرج عليه وقد عقد العزم على أن يجرب مرة ، انطلق وقد اختلطت عليه إحساساته ، كان يشعر بخوف مما يتوقع حدوثه من أحداث إذا ما أقبل على مغازلة فتاة ، وكان يشعر بقوة طاغية عاتية تدفعه إلى القيام بهذه المحاولة الخطرة . وتذكر كالأفي تلك اللحظة ، ورنّت في أذنيه كلماته ، فشدد ذلك أزره ، وقوى من عزمه .

ورأى فتاتين يتهاوسان ثم تضحكان أمام سينا مترو ، وكانتا بعيدتين عن الحشد المتدافع بالمناكب في مدخل الدار ، فشجعه مرحهما على أن يتدفع إليهما ، فسار وقلبه يدق في جوفه دقا ، ودمه يتدفق إلى رأسه حارا ، فشعر بسخونته ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه ، فانطلق حتى أصبح أمامهما فقال في صوت ظاهر الاضطراب :

— أين سينا مترو من فضلك ؟

فابتسمت الفتاتان ، فهذأت نفسه القلقة قليلا ، وسكنت مشاعره المتصارعة في جوفه التي كادت تعصف به ، وقالت إحداها وهي تشير بإصبعها بعيدا :

— لعلها هناك ..

قال في أدب بعد أن جمع شتات نفسه :

— متشكر .. سؤال آخر من فضلك .

فقالت إحداها في تهكم :

— مثل السؤال السابق ؟

وقالت الأخرى وهي تضحك :

— أرجو ألا يكون عويصا مثله .

فقال :

— هل تشاهدان الرواية المعروضة في هذه الدار ؟

— لا ..

— وأنا لم أشاهدها .

فقالت إحداهما وهي تضحك :

— أفادكم الله .

وتحركت الفتاتان ، فقال :

— كلمة أخيرة من فضلك ؟

— ماذا ؟

— يحزننى أن تنصرفا دونى ، كل ما أرجوه أن أسعد بحديثكما .

— ثم ماذا ؟

— أنصرف عندما تطلبان منى الانصراف .

فضحكت إحداهما وقالت :

— إذن انصرف الآن .

— حقا !؟ إني وحيد ، فماذا يضيركما لو أسعدتني لحظات ، وكان لكما

عند الله الأجر والثواب .

فقالت إحداهما وقد أشرق وجهها وعمل :

— أصبح للترفيه عن الشبان أجر عند الله ، كالصدقة على الفقراء .

— كلانا يستحق العطف ، فنحن في الحرمان سواء .

انصرف حمدي مقعما بالرضا جذلان ، فما كان يصدق أنه يجرو على مغازلة فتاة ، فإذا به يغازل فتاتين ويواعدهما على اللقاء ، وراح يفكر فيما يفعله في الغد ، إنها فتاتان ، ولن يسعد بفتاتين ، فماذا عليه لو صاحب كالا ، وقرر أن يصحبه معه ، فهو صديقه وصاحب الفضل عليه ، فلولا ما وجد في نفسه الشجاعة لمواجهة فتاة .

وخطر له أن كالا قد يأسر الفتاتين بلباقته وجسارته ، فهو زير نساء ، ولكنه طرد ذلك الخاطر سريعا ، فقد كان فرحان ، وما كان لخواطر الريية والشك في نفسه مكان .

ووافي الميعاد ، فأقبلت الفتاتان ، فابتسم حمدي ، وبرقت عيناه سرورا ، ومشط كمال شعره الأصفر بأصابعه ، ودعك أنفه المحمر أبدا بيده في اضطراب ، وظهر عليه ارتباك . وقدمه حمدي للفتاتين ، فسحشرج حشرجات ، وساروا وحمدي يتحدث وكال صامت لا يتبس بكلمة ، حتى إن حمدي أنكر في نفسه هدوء زير النساء ، الذي لا يضطرب في حضرة النساء من كثرة ما رأى من نساء !

وبلغوا حديقة هادئة ، فجلسوا على أريكة واحدة ، وظل كمال غارقا في صمته حتى إن حمدي تمنى لو أنه ألقى مثلوجا من المتلوجات الروائية التي يلقيها عليه في الليل والنهار .. وخمن حمدي أن كالا قد يكون من ذلك الطراز الذي



لا يتألق إلا إذا انفرد بفتاته ، فأخذ فتاة وابتعد ، تاركا كالا وحده مع فتاة .
وانقضى بعض الوقت ، فعاد حمدي وفتاته منشراحين ، فألفيا كالا جالسا
على طرف الأريكة ينصت إلى الفتاة ، وقد بدا عليه الارتباك ، وما إن لفتها
الفتاة حتى قالت في تبرم :

— هيا لنعود .

فقال حمدي في إنكار :

— هكذا سريعا ؟

فقلت الفتاة في ضيق :

— أشعر بقشعريرة تسرى في بدني .

فقال حمدي متهمكا :

— من الحب ؟

— من البرد .

وقطن حمدي إلى أن هذه أول مرة يقابل فيها كالا فتاة . وأن فتحية وفتاة
الليان والسترال وغيرهن من بنات الخيال ، قابتسم في سخرية ، ولكن هذه
البسمة دوت في أذنيه قهقهات ، وهمس في جوفه هامس ساخرا :

— حقا إنه لبق جسور ، لا يضطرب في حضرة النساء من كثرة ما رأى

من نساء !

البخيل

هبط في البكور إلى فناء الدار ، وذهب إلى حيث وضع في المساء صفيحة
ملأها ماء ، ليختبرها هل ترشح . وما أن وقع نظره على الصفيحة حتى قطب
جبينه .. فقد رش أحدهم الفناء بالماء .. فهتف في غضب :

— عم محمود . عم محمود .

فجاء البواب يهرول . فقال له وقد زوى ما بين حاجبيه :

— من الذى رش هذا الماء ؟

— أنا يا سيدى ..

— ألا تعلم أنه ماء عذب وليس من البشر .. كنت سأستعمله فيما يستعمل

فيه الماء العذب ..

— لم أكن أدري أنه ماء عذب .

فدار على عقبه في انفعال ، والتفت إلى (سلامك) كان يتخذة مكتبا في

الصباح وصاح :

— محمد أفندى .. محمد أفندى ..

فظهر عند رأس السلم محمد أفندى في جلباب مخطط ، وعلى رأسه

طربوش قديم .. وفوق أذنه اليمنى قلم . إنه كاتب الحسابات ، فقال في حزم :

— اخصم من ماهية عم محمود مليمين ثمن الماء الخلو الذى رشه اليوم .

فقال عم محمود وهو يمد يده في جيبه :

— لا لزوم للكتابة والخصم وتعقيد الحسابات .

وأخرج مليمين وقال :

— هاك المليمين .

فبسط الرجل كفه وتناولهما ، ثم دسهما في جيبه . وذهب بجوس خلال فناء الدار الواسع ، فألقى في ركن من الأركان قطعة خشب ملقاة ، فالتقطها ، ويم صوب باب صيق ، ففتحه ودلف إلى مكان تكدست فيه قطع من الحجارة ، وأكوام من الرمل والجير والخشب ومكاتل وحبال ، ومفاتيح صدئة ، وأقفال قديمة ، ومشابك أبواب ونوافذ ومقابض أبواب .. ثم فوضع قطعة الخشب في حرص كما وضع كل ما في ذلك المخزن من قبل .. ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، فما كان يفرط في شيء يجده . علمته الأيام أن لكل شيء فائدة .. فإذا أصر ساكن من السكان الذين يقطنون مساكنه الكثيرة على عمل بعض الترميمات في مسكنه . كان في ذلك المخزن العون على إتمام الإصلاح ، دون أن يخرج من جيبه نقودا .

وجلس على باب الدار يستقبل الخدم الذين يقدون في الصباح ليشتروا منه الخضر التي يزرعها في فناء البيت . فما كان يحب أن يدع شيئا دون استغلال . وأخذ يقبض القروش متهلل الوجه . كان يفرحه دخولها إلى جيبه ، وكان يغما خروجها منه .. وأقبل خادم ، وطلب رطلا من ورق العنب ، ونقده ثمنه .. فأمر عم محمود — وكان بوابا وزارعا وبائعا وسباكا عند اللزوم — أن يقطف له من عريش العنب رطلا ، فراح عم محمود يقطف ورق العنب ، ثم أعطاه الخادم . ولاحظ السيد أن ما أخذه الخادم يزن أكثر من رطل .. فأخذ ورق العنب منه في عنف وهو يرغى ويزيد ، ووضع في الميزان فرجح .. فراح يسب عم محمود الذي سيسبب له الخراب ..!

وأقبل صبي صغير وتقدم منه على استحياء ، وقال له في صوت

مضطرب : إن كرتة سقطت منه في فناء الدار ، وإنه يرجوه أن يأذن له بالدخول ليأخذها . فقال له :

— لن أعطيكمها قبل أن تدفع قرشا ، حتى لا تسقطها مرة ثانية ..
وأخرج الصبي القرش الذي أخذه من أهله لينفقه في يومه ، وأعطاه إياه ،
فدخل عم محمود ، وعاد بالكرة وقدمها إلى سيده ، فلما رآها اغتم ، كان
يحسبها صغيرة ، فإذا بها كرة قدم .. فدفع بها إلى الصبي وهو مستاء ، يحس
إحساس من غبن في صفقة من الصفقات ، وراح يغمغم في حسرة :
— لو كنت أدري ما قبلت قرشا واحدا فقط !
وهبط ابنه من الدار .. فانطلقا معا إلى الدكان ، وفيما هما في الطريق .. قال
ابنه .

— سيحضر اليوم مفتش الصحة ..
فقال الرجل في امتعاض :
— مصائب تهبط علينا من السماء .. أتحسب أن الإصلاحات التي
أجريناها بمخازننا كفيلة بإرضائه ؟
فقال الابن في استخفاف :
— لن يأذن لنا بإعادة فتح المخازن مهما أجرينا بها من إصلاحات ..
— لماذا ؟
— لأنه يأمر بإغلاق المحال ، بحجة عدم استيفائها المواصفات الصحية ،
ثم لا يوافق على إعادة فتحها إلا إذا أخذ شيئا ..
فقال الرجل في فرع :
— أخذ ماذا ؟
— ألم تسمع أن الحاج سليمان دفع له خمسة جنيهات حتى وافق على إعادة

فتح محله .

فقال الرجل في تهويل :

— خمسة جنينيات !

وأحس كأنما أصابه دوار . وسار وهو مهموم يفكر في ذلك البلاء ، حتى إذا بلغ المحل دخل مكتبه وأطرق .. كان مكتباً متواضعاً ، لا يتفق مع مركز الرجل التجارى ، والأرباح الوفيرة التى يجنيها . رصت أمامه أرائك من خشب ، وعلق على الحائط إطار كتب فيه « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » .. ولا شئ غير المكتب والارائك والآية الكريمة وخزانة ضخمة ابتلعت جزءاً كبيراً من المكان ..

ومر الوقت وهو قلق .. ثم أقبل مفتش الصحة ، فقابلته بالترحاب ، وما إن جلس حتى قال له متطلق الوجه :

— عندى لك هدية طيبة ..

فانفرجت أسارير المفتش ، واتمعت عيناه فى جشع .. وانتظر أن يقدم الرجل هديته القيمة . ولكن الرجل قال :

— إنها عندى حتى تنتهى من التفتيش على المخازن .

فقام المفتش خفيفاً ، وذهب إلى المخازن وهو يفكر فى الهدية الغالية التى أعدها له أغنى رجل فى الحى ..

ومر بالمخازن سريعاً ، ثم عاد وفى وجهه لهفة ، وجلس ينتظر الهدية ، ولكن الرجل قال له :

— كيف رأيت مخازننا ؟

— استوفت جميع الشروط المطلوبة .

— أتأمر بإعادة فتحها ؟

— وهل في ذلك شك ؟

وأخرج المفتش ورقة ، وراح يكتب الإذن بفتح المخازن في سرعة عجيبة .. ثم دفع بالإذن إلى الرجل ، ودس الرجل الإذن في جيبه ، ثم مديده وفتح درج مكتبه ، وأخرج منه الهدية المترقة ، وأعطائها المفتش بوجه متطلق ، فأكفهر وجه المفتش ، وبان عليه الحق والضيق . كانت الهدية (برتقالة يافاوية) من الحجم الكبير .. !

وجلس أمام الدار يرقب الغادين والرائحين .. وكانت هذه جلسته المفضلة .. فما كانت تكلفه شيئا . وأقبل ابنه .. فلما لمح أباه اضطرب وانداحت الرهبة في جوفه ، كان يرجو أن يصل إلى البيت دون أن يراه أبوه . فقد اشترى دجاجة رومية تمنى أن يتعاون هو وأهله على إخفائها ، ليأكلوها بعيدا عن أنظار أبيه حتى لا يقرعهم على تبذيرهم الذي سيجلب الخراب . ووقف ابنه حائرا ، وفكر في أن يتركها في محل من المحال التجارية القريبة من البيت ، ولكنه نحجل من أن يفطن صاحب المحل إلى السبب الذي دعاه إلى تركها عنده ، فعاود التفكير . فاهتدى إلى فكرة قاسية ، ولكنها أرحم مما ينتظره من عذاب ..

أمسك يساق الدجاجة وكسرها .. ثم تقدم من أبيه وهو خائف ، فلما رأى الرجل الدجاجة قال في استنكار :

— ما هذا الذي بيدك ؟

فقال ابنه في صوت مضطرب :

— دجاجة رومية ..

— دجاجة ؟! ومن أين جئت بها .. ؟

(صدى السنين)

— لما رآها البائع مكسورة الساق باعها لى بخمسة عشر قرشا ..

— خمسة عشر قرشا ! هذا تبذير ..

— والله يا أبنى لو لم أعتقد أنها صفقة طيبة ما جئت بها .

— هذا خراب ..

وانسل الولد فى خفة ، وبقي الرجل يمصص شفثيه أسفا على أنه أنجب ولدا لا يعرف قيمة المال .

وجاء رجل وحياء وقال له : إنه عاين مسكنا نحاليا فى منزل من منازلہ ..
وإنه يريد أن يستأجره ، فدعاه إلى المكتب ، وسارا صامتين . وصعدا بضع درجات ، ثم دلفا إلى حجرة بعثر فيها أثاث قديم ، وقد جلس خلف مكتب محطم تكدست فوقه الأوراق . محمد أقندى بجلبابه المخطط وطربوشه القديم ، فلما رأى القادمين انتصب واقفا ، فقال له السيد :

— هات عقد إيجار ..

والتفت إلى المستأجر وقال :

— هل استلمت الشقة من البواب ؟

— نعم ..

— تسلمت مشايك الشاييك والأبواب ؟

— نعم .. خمسون مشيكا .

فقال السيد مصححا :

— اثنان وخمسون مشيكا .

فقال الرجل موافقا :

— اثنان وخمسون مشيكا !

— وتسلمت مقابض الأبواب والمزاليج والأقفال وألواح الزجاج ؟

— تسلمت كل شيء ..

وتناول السيد ورقة وكتب فيها بعض أرقام ، ثم قال :

— هات خمسة جنيهات وثلاثين قرشا .

— الإيجار خمسة جنيهات فقط !

— وثلاثون قرشا تدفع عند كتابة العقد ..

— لماذا ؟

— ثلاثة قروش تمغة ، وسبعة قروش ثمن العقد وكتابته .. وعشرون قرشا

حلاوة لإتمام العقد ..

فاتسعت حدقتا الرجل .. ولم ينبس بكلمة .. ودفع المبلغ ، فلما اطمأن

السيد إلى أن النقود باتت في جيبه ، التفت إلى محمد أفندى وقال :

— الآن اكتب العقد للأستاذ .

وقام يتمشى ، فلما بلغ رأس السلم لمح غم محمود يتناول قرشا من صبي

صغير ، فاتسعت عيناه ، وصاح في لهفة :

— عم محمود .. عم محمود .

فهرول الرجل إليه ، وراح يصعد في الدرج مكروب الأنفاس ، فلما

أصبح أمامه قال له :

— ما هذا الذى فى يدك !

فقال عم محمود فى صوت خافت :

— قرش صاغ .

— ولماذا أخذته منه ؟

— أراد أن يصطاد سمكا ، فطلب منى بعض الدود يستعمله طعما

للأسماك ، فلما أعطيته الدود أعطانى القرش .

فقطب الرجل جبينه ، وقال في غضب :

— وهل يأكل الدود من أرض أبيك ، هات القرش .

وأخذ القرش ، ووضع في جيبه وهو يغمغم ويهز رأسه حسرة :

— خربت الذم .

وتلفت فلمح الخادم وهي تهم بمغادرة الدار وتحت لإبطها لفيفة ، فنادها ،

فالتفت ، فأشار لها بيده أن تعالى .. فانطلقت إليه . فمد يده إلى الليفة

وفضها ، فوجد بها رغيفين .. فناروسب الفتاة ، وانهمها بالسرقة .. فقالت

تنفى عن نفسها :

— والله إن سيدتى أعطتني إياها ..

— أعطتك إياها ؟ وكيف .. ؟ ولماذا ؟ تعالى ..

وسار وهو يسوق الفتاة أمامه .. وراح يصعد في الدرج وفي صدره نار ،

حتى إذا بلغ زوجه قال :

— هل أعطيتها هذين ؟

— نعم ..

— ولماذا ..

— ستبيت الليلة عند أمها ، ولن تتعشى عندنا ، فأعطيتها هذين الرغيفين

لتتعشى بهما .

— هذا تبذير . هذا بطر . إنك ترفسين النعمة بقدمك .

ونخطر له خاطر أعجبه ، فقال لزوجته :

— آه .. إننا نستطيع أن نستغنى عن رغيفين كل يوم إذا ثبت لي ذلك ..

سأخاطب الخبز لينقص من الراتب رغيفين !

واتجه إلى التليفون ، وفتح القفل الصغير الذي يخلق به ، ثم أدار القرص مرة

ومرتين وثلاثا .. وتذكر أن هذه المكالمة ستكونه قرشا ، وأن المسافة بين البيت والخبز يسيرة يقطعها على قدميه في عشر دقائق . فوضع السماعة ، وأغلق التليفون ، ثم غادر الدار ، وذهب إلى الخبز يغذ السير ، ليخفف من الراتب اليومي رقيقين .

ووافق ميعاد سفره إلى القرية وحده .. كان يمضي بها أسبوعا يتفقد مشغونها . وكان ذلك الأسبوع أسعد الأيام في حياة أهله .. كانوا يمضون يومهم في المطبخ يعدون ما لذ وطاب ، ويأكلون في نهم ، ليعوضوا ما فاتهم طوال العام .

وسافر .. وما إن غادر الدار حتى وفدت إليها خيرات الله . ومر يومان سعيدان .. وفي اليوم الثالث دعا ابنه أصدقاءه إلى وليمة فاخرة ، ومدت المائدة ، ورصت فوقها الديكة الرومية والأوز والحمام .. وعشرات الأصناف . وتحلق أصحاب حول الطعام ، وراحوا يأكلون ويتضاحكون ..

وسمع طرق على الباب .. فأسرعت الخادم وفتحته .. فإذا بسيدها قد عاد قبل الأوان .. وصكت أذنيه ضحكات الشبان ، فدخل وهو يعجب ، فما كان يزور أوزار . وما أن بلغ مصدر الضحكات ورأى المائدة العامرة ، حتى أحس مطارق هائلة تهوى على رأسه .. ونظر إلى الأيدي التي تمتد إلى الطيبات ، فخيل إليه أنها تمتد إلى قلبه فتنهشه . وأحس الأرض تميد به .. وفطنوا إلى دخوله ، فدعوه إلى الطعام .. فلم يحرك ساكنا ، وظل ينظر إلى السكاكين وهي تمزق لحوم الطير ، فيشعر بها تمزق أحشائه .. وسار وهو يحس يدا قوية تضغط على عتقه ، وتكتم أنفاسه ..

وقعد على حافة سريريه وقد قار مرجل غضبه ، وتدفق الدم حارا في عروقه ..

وانتهت الوليمة .. وغادر الضيوف الدار . وبقي الابن مهموما وقد امتنع لونه ، وانتابه القلق . وأخذت الأم تغدو وتروح حيرى ، لا تدرى ما تقول لزوجها ، الذى عاد على غير ميعاد . وانقضت ساعة كئيبه رهيبه ، ولم يرتفع صوت الرجل نائرا صاحبا لما حل به من خراب . ومرت ساعة أخرى قاسية شديدة . ولما كان نزول البلاء أهون من انتظاره تقدمت الزوجة إلى غرفة زوجها وقلبا في صدرها يدوى دويا .

ودنت من سريريه ، فألفته مكبا على وجهه . واقتربت منه ، فألفته في غيبوبة يغط غطيظا .. فنادته فلم يرد عليها .. فهزته فلم يحرك ساكنا . فأسرعت وجاءت بقلة ماء ، ورشت الماء على وجهه .. واستدعت ابنها وحملاه بينهما وأجلساه .. ففتح عينيه ، وحاول أن يتكلم ، ولكنه لم يستطع أن ينس بكلمة ، فقد كف لسانه عن الدوران في حلقه ، وأراد أن يرفع ذراعه أو يحرك ساقه فلم يقدر . فقد مات نصفه الأيمن .. !

ومدداه في فراشه ، وبقي إلى جواره صامتين ، لا يجرو أحدهما على أن يشير باستدعاء الطبيب حتى لا يغضبه فما كان الأطباء يعرفون طريقهم إلى بيته إلا في حالة واحدة . حالة الوفاة .. وقعدا مطرقين وهو ممدود في سريريه ، وسمع صوت ماء يتدفق من صنوبر مفتوح .. فحرك رأسه في ضيق .. وظل صوت الماء المنساب يصك أذنيه فيضنيه ، واحتل فكره طيف عقرب عداد الماء وهو يجرى مسجلا استهلاك المياه وزيادة استحقاق الشركة .. فرفع ذراعه التى كان يستطيع أن يرفعها . وجعل يحرك أصابعه في ثورة ، تحريكها يفهم منه أن أغلقوا الصنوبر ، ففطن ابنه إلى ما يريد .. فهرع إلى الصنوبر وأغلقه .

وتقضت الليلة .. وطلع النهار وهو على حاله لا يستطيع أن يتكلم أو يحرك ذراعه أو ساقه ، فلم يجد ابنه مفرا من استدعاء الطبيب ، فذهب إلى التليفون ، وطلب طبيبا من أطباء الأعصاب المعروفين ، ومر الوقت وهو هادئ ساكن ، ولكن ما إن أقبل الطبيب وفحص عنه ، وقدم له ابنه جنينين ، ولحمه وهو يدسهما في جيبه ، حتى قطب جيبه ، وصعد الدم إلى وجهه ، وراح يتدفق إلى رأسه ، ولو أن الطبيب فحص عنه بعد ذلك لوجد أن حالته زادت سوءا .

وجيء بالدواء ، ورص على تضد قريب منه . فلما فتح عينيه ، ووقعنا على العلب والزجاجات المصفوفة ، هاله ما أنفق فيها من مال ، فاربذ وجهه ، وأشاح به عن المنظر البغيض . ولو أرادوا له الشفاء حقا لكدسوا له على التضد أكوام الذهب البراق .

ومر اليوم ، وتصيرت الليلة وحالته تزداد سوءا . فلما أشرقت شمس اليوم التالى استدعى ابنه طبيبين كبيرين ، وما انتبيا من عملهما حتى منحهما مبلغا كبيرا . ورأى الرجل فعلة ابنه الشنعاء ، فأحس كأن رأسه يتمزق ، وراح في غيوبة .

كان ذلك الإنفاق المتواصل الذى يقع تحت عينيه ضربات متلاحقة على رأسه ، لم يحتملها . فما أقبل اليوم الثالث حتى فاضت روحه من جسمه . وعلى الرغم مما قاساه فى سكرات الموت كان خروج الروح أيسر من خروج قرش من جيبه .

وأقام ابنه سرادقا كبيرا ، وأخذ ينقى عن سعة ، وهبط النعش من

الدار ، وجيء يعجل سمين ، ليندبح تحت النعش .
وما إن سال دمه على الأرض حتى ارتجف النعش المحمول على أعناق
الرجال رجفة شديدة . فأيقن الذين يعرفون المرحوم أنه يتململ في نعشه ،
آسفا على ماله الذي أصبح يراق بغير حساب !

مولد أديب

قام من نومه يتمطى ويشاءب ، ونظر إلى زوجه ، فألفاها في فراشها
سامة ، وقد شخصت يبصرها إلى سقف الغرفة ، فقال لها في سخرية :
— ما الذى يشغل بك ؟ إطعام الأولاد ؟

فقلت فى أسى :

— أختى ستطلق ..

— ومتى جاعك هذا النبأ ؟ ! كنا نتسامر قبل أن ننام حتى منتصف الليل ،

فلم تذكرى لى شيئا !

— رأيت ذلك فى منامى ..

— وماذا رأيت ؟

— رأيت أختى وزوجها غاضبين ، وقد ولى كل منهما الآخر ظهره .

ورفت على شفتيه ابتسامة هازئة وقال « آه » ممطوطة ، دلالة على الزرابة

والاستخفاف ، ثم غادر فراشه ، وراح يتأهب للانطلاق إلى عمله .

وانقضت ليال وأيام ، وعاد إلى البيت بعد انتهاء عمله فى الديوان ، فوجد

زوجه مطرقة ، وقد ارتسم على وجهها أمارات الأسى والحزن ، فقال لها وهو

ينسم :

— كفى الله الشر ، ما هذا العبوس ؟ لعل الطبيب احترق ؟

فقلت له فى اضطراب :

- تشاجرت أختى وزوجها ، وعادت إلى بيت أبى غضبى .
— وهل فى ذلك من جديد ، ما أكثر خصامهما ، وما أسرع أن يتصالحا !
— ولكن أبى يصر على تطليقها هذه المرة .
— هذا ما يقوله أبوك فى كل مرة .. قومى وجهزى لنا طعامنا .
وترادفت الأيام ، وتم الطلاق ، وراح يفكر فى حلم زوجه ، فحيره
فكره ، ولم يهتد إلى شىء ، فغمغم ليربح نفسه .
— مجرد مصادفة .
ومرت الأيام هيئة رتيبة ، وفى صباح يوم من الأيام استيقظ من نومه ،
فوجد زوجه أمام المرأة تمشط شعرها ، فقال وهو يتسم :
— صباح النور على البلور .
فاقر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، ولكن سرعان ما ذابت الابتسامة على
شفتها ، وقطبت جبينها ، فقال لها :
— ما الذى يكدرك ؟
— رؤيا رأيتها .
— وماذا رأيت ..
— سرادقا هائلا تصب أمام بيت خالتك ، أقيمت فيه الزينات . وخفقت
الرايات ، وانتعرت الثريات .
فقال وقد أشرق وجهه بابتسامة :
— لعل ابن خالتى سيتزوج مرة أخرى ، أو لعل خالتى اشتاقت إلى
الزواج !
— لا أحسب أن هذه الزينات بشير فرح .
— فعلام تدل إذن ؟

— إنها نذير حزن عميق .

فقال بعد أن زفر في استخفاف :

— يا فتاح يا عليم .

وغادر الغرفة وهو يعجب من زوجه التي تتعلق بأوهام . ولكن ما انقضى الشهر حتى كان ابن خالته قدمات ، وأقيم ذلك السرايق الذي رآته زوجه في المنام .

وترادفت رؤاها ، وتحققت كفلق الصبح ، فصار يؤمن بأحلامها ويهاها ، وإن أبدى الزراية والاستخفاف .

وفي ذات يوم استيقظ من نومه وزوجه تجفف دموعها . فأوجس خيفة ، وأحس قلبه يغوص في قدميه ، وهم أن يسألها عما أسال عبراتها ولكنه أحجم رهبة ، واستولى عليه قلق واضطراب ، ولما كان الموت أهون من انتظاره ، فإنه لم يستطع أن يعد رغبة الاستفسار التي تولدت في نفسه ، فقال لها في صوت خافت مرتجف :

— ما الذي أبكاك ؟

— لا شيء .

فتراد إنكارها في قلقه ، فقال في اهتمام :

— ماذا تخفين عني ؟

— رؤيا أفرعتني .

— وماذا رأيت ؟

— رأيت أن ضرسى قد خلع .

فقال في لهفة :

— وما تأويل ذلك ؟

— شر مستطير .

— مثل ماذا ؟

— لا أستطيع أن أقول .

فقال في إصرار وعناد :

— قولى .. قولى .

فخفضت رأسها وقالت في نبرات حزينة :

— هذا نذير بموت أحد أحبائى المقربين .

وترقرق الدمع فى عينيها ، فخيل إليه أنها تنعى إليه نفسه ، فسارتجف وتفككت مفاصله ، وسمع صوتا خافتا ينبعث من أغوار نفسه ، يهمس فى فحيح كفحيح الأفعى : « انتهيت رحم القضاء ، لم يبق لك على الأرض إلا أيام » . فانقبض صدره ، وراح قلبه ينزف إحساسات الحزن ، ونزل به هم ثقيل . وغادر البيت وهو حزين ، وانطلق شارد البصر ، لا يرى ما حوله ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يرى ما ينتظره من أحداث بعين خياله ، إنه سيموت وما ترك لأهله ما يشتررون به أكفانه ، إنه ينفق مرتبه على بيته ، وما ادخر منه شيئا ، ومن أين يدخر وقد كان يكفيه يشق النفس ، كان يحسب أن العمر سيمتد به حتى يزوج ابنته الصغيرة ، ويسلح ولديه بالعلم ليخوضا معركة الحياة فى أمان . وما خطر له على قلب أنه سيموت فى شرخ الشباب ، مخلفا وراءه يتامى يحيون حياة ذل وكفاف .

وأحس غصة فى حلقه ، وزاد أساه ، ولج فى التصورات ، فرأى نفسه مسجى فى فراشه ، وأولاده يكون ويصرخون مفزوعين ، وزوجه تذرف الدمع المتهون فى يأس مرير ، فأحس سكيناً تقطع قلبه ، وناراً تندلع فى جوفه ، فأطرق فى أسى عميق .



وخطر له في زحمة الأفكار أن يحسب المكافأة التي ستصرف لزوجته وأولاده بعد موته ، عن الخمسة عشر عاما التي قضاها في الحكومة ، فألفاها لا تكاد تكفيهم بضعة أشهر . وطفى حزنه . وزاد أساه لما رأى بعين خياله أهله وقد جاءوا بعد أن بلغهم النبأ الفاجع ، وقرروا تشييع جثمانه في جنازة فخمة ، وإقامة سرادق كبير يليق بالأسرة ، حتى إذا انتهت ليلة المأتم عادوا إلى دورهم ، وتركوا الدائنين يقاسمون زوجته وأولاده مكافأته الضئيلة ، التي لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وبلغ الديوان وهو فريسة لأفكاره السود ، وانطلق إلى قسم الحسابات ، والتفت إلى زميل له ، وقال في صوت جاد :
— لي عندك خدمة .

فاعتدل الرجل وقال في اهتمام .

— خيراً ؟

— أن تسارع إلى صرف نفقات جنازتي إذا جاءك خبري .
وحسب الحاضرون أنه يمزح فضحكوا ، وقال كاتب الحسابات وهو يبتسم :

— سأبعث إليك بأكفانك مع « مخصوص » .

وجلس إلى مكتبه وهو صامت ساهم ، وراحت الخواطر تتزاحم في رأسه ، والصور تتلاحق في مخيلته ، وأرهفت حواسه واستيقظت مشاعره ، فأحس قلبه يدمى أسى وكرها ، وشعر برغبة في البكاء ، ولكنه خجل من أن يبكي أمام زملائه ، فحبس دموعه ، وراح يجتر آلامه في صمت بغيض .
ووافي ميعاد الانصراف ، فذهب إلى بيته وهو قلق ، وما دخل مسكنه حتى راح يقلب ناظره في شروء فما كان يدرى متى يرى ثانية مسكنه الحبيب .

وأقبل إليه ابنه الصغير مسرورا ، فحمله وضعه إلى صدره في وله ، وأخذ يلثمه في وجد ، كأثما يقبله قبيلات الوداع الأخيرة . وجاءت زوجته ، فحاول أن يبدو أمامها هادئا ، فاعتصب ابتسامة كلفته جهدا ، ثم ذهبت تجهز له الغداء ، فراح ينظر إليها من خلل دموعه ، وقد أحس يدا قوية تجهز على قلبه ، وتفتت كبده .

وخطر له أن زوجته وأبنائه سيغادرون هذا المسكن ، ليسكنوا غرفة متواضعة ، يجود عليهم بإيجارها بعض أهله ، فأحس رأسه يدور ، وأمن فكره في تعذيبه ، فرأى أولاده في ثياب خلق ، يذهبون في البكور إلى مصنع من المصانع ، يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس لقاء قروش يمسون بها رمقهم ، فشعر بإحساسات الحزن تكتم أنفاسه وتضنيه .

وأفاق من تصوراته على صوت زوجته وهي تناديه ليتناول غداءه ، فنهض وهو يحمل ابنه ، وذهب إلى السفرة ، وجلس وهو حاضر بجسمه غائب بفكره ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان مشغولا بالخواطر الحزينة التي كانت تفد إلى رأسه توافد الموج ، وتخر روحه وخزا قاسيا يعذبه ويضنيه .

وذهب إلى فراشه ، وتمدد فيه ليستريح ، ولكن أنى له الراحة وأفكاره تهجم عليه في إصرار وعناد ، وشبح الفناء الكريه يلزمه في غدوه ورواحه ، يزلزل الأرض تحت قدميه . ويجرعه الموت غصة بعد غصة او هتف به هاتف أن يذهب إلى أمه يودعها ، فغادر فراشه ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق وأدار عينيه في الرجال الجالسين أمام حوانيتهم القريبة من داره ، ثم غمغم في حسرة : « إن هي إلا أيام حتى تشتركوا في تشييع جثائي الأخير » . ودخل على أمه ، فوجد لها قاعدة في ثيابها البيض على سجادة الصلاة ،

ترصد أذان العصر . كانت هادئة هدوء الملائكة ، وكان وجهها صافيا صفاء النفس الراضية ، فسلم عليها ، وجعل يصغى إلى حديثها العذب الخنون ، وكاد حديثها يمسح الحزن الذي ران على صدره ، ولكن قفزت إلى رأسه صورتها وهي واقفة عند جثمانه ، في ثياب سود تبكى أحر البكاء ، فثارت مشاعر الحزن في نفسه . وانعكست على وجهه ، فارتد واكفهر ، وغض من بصره ، حتى لا تفصح عيتاه عن ألمه الدفين .

وامحت من مخيلته صورتها وهي عند جسده المسجى ، لتحل مكانها صورتها وهي واقفة على قبره تقاسى نار الشكل الأليم ، فهاجت شجونه ، وأحس أن عبراته ستخونه ، فنهض مستأذنا ، وخرج من عندها كعاصفة ثائرة ، ليذرف دمعته في الطريق .

وسار وهو مهوم ، ولم يرحمه فكره ، بل أوحى إليه أن ينطلق إلى المدافن ، ليزور قبره ، ويقرأ الفاتحة على روح نفسه . فراح يضرب في مسالك مهجورة ، وهو غارق في أشجانه . وتلفت حوله وإذا بهمس ينبعث من جوفه يتمتم « اليوم تسير في هذا الطريق على قدميك ، وعما قريب ستقطعه محمولا على أعناق الرجال ، لتغيب في التراب ، وتتساوى أنت ومن غادر الدنيا من آلاف السنين » .

ولاح له عن بعد مدافنهم ، فأحس قلبه يهبط في فراغ صدره ، وراح يدنو من المقابر وهو يحس رهبة ما كان يحسها من قبل ، اتسعت حدقتاه ، وجعل صدره يعلو وينخفض في تنابع ، فقد كان يلتقط أنفاسه في كرب وضيق ، وبلغ المدفن ، فألقى بابه موصدا ، فذهب إلى الشباك ، ومد يديه ، وقبض على أعمدته الحديدية ، وأسند إليها رأسه ، وهتف في صوت أجش صك أذنيه موحشا غريبا :

— سلام إليك يا أبى من ابنك النازل إلى جوارك عن قريب .
ولم يستطع أن يكبت مشاعره ، فانتفجر باكيا ، حتى كادت كبده
تتصدع من البكاء ، أرخى البكاء ، أرخى الليل ستاره السود ، وصفرت
الرياح في الفضاء العريض ، فبلغت أذنيه كالعويل ، فخيل إليه أن الكون
يكيه ، فسار مطرق الرأس ، منقبض النفس ، يجر رجله في يأس مرير .
ومس أذنيه صوت المؤذن وهو يدعو الناس إلى الصلاة ، فرفع رأسه إلى
السما ، وراح يتهل في خشوع أن يقفر له ، وأن ينزله منازل الأبرار
والصالحين ، وأحس في تلك اللحظة أنه أقرب ما يكون إلى ملكوت السماء ،
قلج في الدعاء ، وقد سالت عبراته على خديه ، فلطفت من وقدة النار التي
كانت تلتهم جوفه ، وسرى في صدره أمن لطيف .

ودخل داره ، وراح يداعب أولاده ، وهو يبدى لهم الغبطة والسرور ،
وإن كان يحس خنجرا يمزق قلبه تمزيقا ، وظل يلاعبهم حتى غلبهم النوم
فناموا ، وخلا بزوجه ، وخطر له أن يوصيها بهم خيرا ، فما كان ذلك
بتدبيره ، كان يأمل أن يبقى بينهم ليسعدهم ، ويحقق أحلامهم ، ولكن الموت
جاءه وقوض آمالهم ، وفرق بينه وبينهم ، وأرغمه على أن يتركهم لمصيرهم
المجهول . ولكنه لم يجد في نفسه الجرأة التي تمكنه من التحدث في ذلك
الموضوع الدقيق ، فذهب إلى فراشه ، واندس فيه .

وراحت الذكريات ، تنال على رأسه ، فرأى نفسه صبيا يلعب مع
الصبيان ، وتلميذا يساق إلى مدرسة ، كما يساق المرء إلى سجن بغيض ،
وطالبا تفتحت أمامه الآمال ، وخطيبا ملأ صدره الحب ، وزوجا سعيدا ،
وأبا كريما ينكر نفسه ليسعد أهله . وراح يجتر حوادث الأيام في وضوح ،
وقفزت إلى ذهنه ذكريات حسبها انداحت في لجة التسيان ، وأخذت حياته

(صدى السنين)

تمر أمام ناظره كشريط سينائي ، فأفعم بالمشاعر والإحساسات ، وهاله أن حياته وذكرياته ستندثر ، وتمضى كأمس الدابر لا يحفل بها إنسان ، فخطر له أن يسجلها قبل أن تنمحى الفقاعة الصغيرة في المحيط ، واحتل ذلك الخاطر تفكيره . وأيده أنه يستطيع أن يسطر لزوجه ما يحسه من مشاعر وخلجات ، وأن يشها ما عجز عن أن يكشفها به من لحظات ، دون أن يضطرب أو يخشى أن تعقل لسانه قسوة المناجاة ، إنه يستطيع أن يعتذر لأبنائه الصغار عن ذلك الفراق الذي قوض مستقبلهم ، حتى إذا كبروا عرفوا أنه ما كان له يد فيما وصلوا إليه من مآل .

وألقى نفسه عبداً لذلك الخاطر الذي جعل يلح عليه ، ملأت أقطار نفسه رغبة تسجيل حياته ، فنهض وذهب إلى مكتبه ، وأدار الزر الكهربائي ، وجلس وراح يسطر على القرطاس حياته ، في عناية وتوفيق ، وخيل إليه أن عينيه تهتكان حجب الماضي ، وتبصران كل شيء في جلاء ووضوح ، فها هو ذا البيت الذي نشأ فيه من عشرات السنين ماثل أمام عينيه زانخ بالحياة ، وها هي ذى أمه وها هو ذا أبوه ، وها هم أولاء رفقاء الصبا ، وهنا الزقاق الذي مرح فيه ، واسترسل في الكتابة ، فارتفع نبضه ، وتدفقت إحساساته فوارة دافقة ، وراح قلبه يدق في قوة ، واحتشدت في صدره المشاعر الزاخرة ، وتقضت الساعات وهو يكتب في حماسة ، كأنما يخشى أن يتخطفه الموت قبل أن ينتهي مما هو فيه .

وفي هجعة الليل ، دقت ساعة الحائط النصف بعد الثانية ، وهو غارق في عمله ، وأحس كأن مطارق تدق رأسه ، فأسنده إلى ذراعيه ، فراح في سبات ، وما تسال أول خيط من خيوط الفجر إلى غرفته حتى هب من نومه ، واستأنف ما كان فيه .

ورافى ميعاد ذهابه إلى الديوان ، فخرج وهو مشغول بقصة حياته ،
ومرت الساعات وهي في تفكير عميق ، حتى إذا ما انتهى من عمله
الحكومي ، عاد إلى بيته مسرعا ، ودخل فراشه ليستريح قليلا ، ولكن لم تهدأ
له خالجة ، ولم تغمض له عين ، كانت الأفكار تتراحم في رأسه ، والمشاعر
تضغط على صدره ، وتلح عليه في إصرار وعناد ، فلم يجد مقرا من مغادرة
فراشه ، والدخول إلى مكتبه ، ليفرج عن أفكاره ، وينفس عن مشاعره التي
كانت تضنيه .

وكرت الأيام وهو مسترسل في الكتابة ، وفي يوم جاءته زوجته وقالت
له :

— إني ذاهبة لأعود أُمي .

— ماذا بها ؟

— جاءتني خادمتها ، وأنبأتني أنها مريضة .

فقال لها وهو يحدق في الورق المنشور أمامه :

— تفضلي .

فقالت له في تحريض :

— هل تأتى معي ؟

وهم بأن يعتذر ، ولكنه لم يشأ أن يفضيها قبل أن يموت ، فقال لها :

— وهل في ذلك شك .

وراح يرتدى ملابسه ، وخطر له خاطر ، فغمغم : يا للعجب ! ميت

يعود مريضا !

وانطلقا حتى إذا دخلا على المريضة ألقيا حجرتهما تغص بالزوار ، فاتجهتا

إليها ، وسلمتا عليها ، ثم قعدا مع القاعدين . وأدار عينيه في المكان ، فرأى

الحاضرين مطرقين ، فسمع همسا ينبعث من أعماقه بهمس : « لو كانوا يعلمون من أمرى ما أعلم لتركوها والتفوا حولى أنا ، فأبى سأفارقهم إلى الأبد عما قريب ، ليودعوني الوداع الأخير » .

وراحت عجلة الزمن تدور وهو غارق فى الكتابة ، وفى ليلة من الليالى نام مبكرا ليربع ذهنه المكثود ، وراح فى سبات عميق ، وسمع وهو نائم طينيا ، فلم يحفل به ، حسب أنه يحلم ، ثم صك أذنيه بكاء وشهيق ، فهب من نومه مرعوبا مفزوعا ، ووضع يده على قلبه ، ليرى ألا يزال ينبض بالحياة .

وتلفت خافق القلب ، فرأى زوجه تنشج بالبكاء . فقال لها فى لهفة :
— ماذا جرى ؟

فقالت فى صوت تخنقه العبرات :
— أمى .

— ماذا دهاها ؟
— ماتت .

فأطرق ، وأخذت إحساسات الرهبة والخوف تنقشع عن صدره وانبلجت الحقيقة ناصعة أمام عينيه ، لقد تحقق حلم زوجه ، وذهبت أمها ، ولم يعد هناك ما يخافه أو يخشاه ، فأحس سرورا يغمره ، سرور من أطلق سراحه بعد أن حكم عليه بالموت .

وقبرت حماته ، وعاد إلى داره وهو مغمم بالغيطة ، ودخل مكتبه ، وراح يقرأ فى هدوء ما كتبه من قصة حياته . فعجب . واشتد عجبه ، إنه لم يسبق له أن كتب شيئا ، وما كان يعرف أنه قادر على أن يكتب ذلك الذى يقرؤه الساعة مأخوذا مشغوبا ، كانت الصفحات التى يكتبها زاحرة بالحياة ، إنها ومضات فكر ، ونبضات قلب ، وذوب نفس .

ما كان يعرف أنه أديب ، إن ذلك الحلم الرهيب حرك مشاعره
وإحساساته ، وفجر في صدره ينبوع الفن ، وأضاء في نفسه الشعلة
المقدسة ، وسره أنه وجد نفسه أخيراً ، فاستأنف كتابة قصة حياته وهو
نشوان يحس كأنما خلق من جديد .

امراة أعمسال

انطلق يترفق في سيره حتى بلغ نهاية ترام الجيزة ، ففكر في أن يقفل عائدا إلى بيته ، فقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء ، ولكن الليلة كانت من ليالي الصيف النادرة التي يستحب السير فيها ، فالنسيم يهب رقيقا ينعش الأفئدة ، وضوء القمر الساحر فرش الأرض ببساط فضي أخاذ ، يستولي على المشاعر ، والهدوء الشامل يريح الأعصاب المكدودة ، فأغراه كل هذا أن يستمر في سيره ، فلم يشعر إلا وهو في أول طريق الهرم ، يرنو إلى الأرض الخضراء ، فتشيع في صدره نشوة خفيفة ، والسيارات الفخمة التي تمر به ، فكان يلتفت إليها لفتة ثم يستأنف سيره .

كان شابا لم يحتفل بعد بعيد ميلاده الثلاثين ، طويل القامة ، ممتلئ الجسم قليلا ، ناصع بياض الوجه ، له عيناه تمتازان ببريق أخاذ ولولا امتلاء جسمه ، واتساع فمه ، لكان من أبطال الروايات الرومانتيكية ، وابتعدت السيارات عنه ، فساد الطريق سكون .. لم يكن يعكره إلا نقيق الضفادع وحفيف الشجر .

وبلغ سمعه صوت سيارة مقبلة ، فأنحرف إلى الطوار ، ليفسح لها الطريق ولكنه أحس بها تتمهل ، فالتفت خلفه ، فألقى سيارة صغيرة فخمة تدنو منه ، حتى إذا ما صارت بجواره فتح بابها ، فتطلع داخلها ، فرأى خلف عجلة القيادة فتاة مليحة حلوة ، فمخفق قلبه اضطرابا ، واستولت عليه رهبة

وارتباك ، وتسمر في مكانه لا يدري ما يفعل ، وفطنت الفتاة إلى ارتبائك ،
فأشرق وجهها بابتسامة مطمئنة وقالت :
— تفضل .

وبقى في اضطرابه ، فلم تهدأ نفسه بعد ، فقد كانت مفاجأة مباغتة ما كان
يتوقعها أو يحلم بها ، ولكنه لم أطراف شجاعته التي تناثرت ، واغتصب
ابتسامة بدت باهتة لا مدلول لها ، ثم تقدم إلى السيارة وما مد رجله فيها حتى
سمعها تهمس :
— نزهة بريئة .

وما أن أغلق باب السيارة خلفه ، حتى انطلقت في طريقها ، وظل مدة لا
يجد لسانه ، ولا يدري ما يقول . وحدها بنظرة ، فأذهله حسنها ، وزاد في
اضطرابه ، كانت جميلة رائعة الحسن ، وقد تفتنت يد ماهرة في إبراز ذلك
الجمال ، فالظلال الخفيفة التي ظلمت بها الجفون زادت في سحر العيون ،
والأحمر الذي وزع في صفحة الوجه في دقة ، جعله قطعة رائعة من القطع
الفنية الممتازة ، وظل متقبضا في جلسته ، فرنت إليه بطرف عينيها ، وقالت
في سخرية خفيفة :
— خائف ؟

فقال في صوت متهدج يبدو فيه الاضطراب :
— من جمالك .

فابتسمت وقالت :

— اقرب وتكلم بحرية .

فاقترب منها قليلا وقد هدأ روعه بعض الشيء ، ووجد لسانه فقال :

— كما يتكلم الرجل إلى الرجل ؟

— لا . لا أقبل هذا .

— ولم ؟

— لا أقبل أن أكون رجلا ، قفى الرجال تردد ، وأنا أمقت التردد ،
فلتكلّم بصراحة كما تتكلّم امرأة إلى امرأة !
فأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، وخشى أن يفقد لسانه ثانيه ،
فقال :

— متزوجة ؟

— ولماذا هذه الإهانة ؟

— إهانة ؟

— أجل ، وهل ترانى خاملة ؟ ألا ترى فى صفات ممتازة لا تتوافر فى
زوجة ؟

فابتسم وقال فى خبث :

— بل فىك جميع الصفات التى تبعذك من أن تكونى زوجة .

— إني أدير أعمالا .

— أى نوع من الأعمال ؟

— توريدات .. عطاءات .. استيراد .. إصدار .. ما بالك مبتعدا

هكذا ، اقرب .. يخيّل إلى أن ذراعك عاطلة !

فاقرب منها ، ولف ذراعه حولها ، وقال :

— ولكن هذه أعمال صعبة تحتاج إلى خبرة ومؤهلات .

— ما أكثر إهانتك لى ، ألا تعجبك مؤهلاتى .

— تعجب الباشا ، ولكن كيف بدأت ؟

— حقا ما أصعب البداية ، قرأت عن عطاء فى مصلحة من المصالح ،

فخطر لي أن أجرب حظي .

— تقصدين مؤهلاتك .

— من حسن حظي أن مؤهلاتي ممتازة ، تقدمت في العطاء .

— ولكن ليس لك الحق في التقدم فما عندك سجل تجارى .

— تريت فقد وجدت التاجر الذى يمنحنى اسمه وسجله .

— قريب عطف عليك ؟

— لا تذكر العطف من فضلك ، فإننى لا أحب أن يعطف على أحد ، كان

رجلا قدر مؤهلاتي .

— ثم ماذا ؟

— كان لابد أن أזור رئيس اللجنة التى سببت فى العطاء ، فذهبت إليه وأنا

مضطربة بعض الاضطراب ، كما أنت مضطرب الآن .

— ولكنى لست مضطربا .

— إن جميع أفعالك تدل على الاضطراب .. اقترب .. كان الرجل لطيفا .

فما فاتحته فى الموضوع حتى وعدنى أنه سيبدل كل ما فى وسعه ، ووعدنى

اللقاء لنتناقش فى الموضوع فكان رجلا خبيرا بالأعمال .

— ورسا عليك العطاء .

— ليس بهذه السهولة ، فقد شئت أن أضمن موافقة بقية الأعضاء ،

فمررت عليهم ، ورسا على العطاء ، ولكن قامت عقبة .

— إن مؤهلاتك الممتازة تدل جميع العقبات .

— انتظر ، لم يكن معنى المال الذى أشتري به الأصناف التى سأوردها .

— مثون من التجار يعطونك البضاعة على الحساب ، إكراما لمؤهلاتك إلى

أن تسدد لك الوزارة قيمة العطاء .

— لن أقص عليك شيئا بعد أن عرفت قيمة مؤهلاتي .

فابسم وقال :

— بالله قولي .

— لم يبق ما أقوله ، فمؤهلاتي الممتازة فتحت في وجهي جميع الأبواب .
وكانت السيارة قد ارتقت منحدر الأهرام ، ووقفت عند السفح ،
ففتحت السيارة وهبطت ، فأسرع إليها ، ففحصته بنظرة سريعة وهو
متصب أمامها ، وقالت :

— أتقبل أن تعمل سكرتيرا لي ؟

— وما عملي ؟

— إن جميع معاملي مكنتني من الرجال ، فلو أنك عملت بمكنتي لأمكننا
أن نجذب بعض النساء .

— قبلت ، وما عنوان المكتب ؟

— تريث ، لن أذكر لك العنوان إلا بعد أن تجتاز الاختبار .

— متى الاختبار ؟

— أنت الآن في عز الامتحان .

وانطلقا وأقدامهما تسوخ في الرمال ، حتى بلغا مكانا منعزلا وجلسا ، ثم
مالت إلى الخلف قليلا ، وقالت :

— اقترِب ، مم تخجل ؟ أمن القمر الذي يشرف علينا ، أم من الأربعين

قرنا التي تطل علينا من قمة الأهرام ؟

فضحك وقال :

— لقد أصبحت اثنين وأربعين .

واتقضى الوقت وهما لا يشعران ، وتذكر فجأة أنه تأخر عن العودة إلى

البيت ، فقال :

— تأخرنا كثيرا .

فنظرت إليه في امتعاض وقالت :

— ألك أهل ؟

— وهل هناك من ليس له أهل ؟

— أقصد هل لك أهل يهمهم أمرك ؟

— لي أم وأخوات .

وهبت واقفة ، فنهض وسارا حتى إذا ما وصلا إلى السيارة هم بأن

يركب ، فالتفتت إليه وقالت :

— آسفة ، البطارية ضعيفة ، وتحتاج السيارة إلى دفعة ، ادفعها من

الخلف .

وركبت وأغلقت أبواب السيارة جيدا ، واستدار ليدفع السيارة من

الخلف ، وقبل أن يهم بدفعها سمع الحرك 'يدور ، وإذا بالسيارة تنطلق

كالسهم ، لقد خدعته ، لتخلص منه ، فوقف يرقبها وقد امتلأ صدره غيظا

وحنقا ، وغابت عن عينيه ، فسار مطاطئ الرأس ، كسير الفؤاد ، يحس

إحساس الذل الذى يحسه من رسب في الامتحان !

قصة حب

جلست مطرقاً أفكر ، فشغلت عما حولي بما تراحم في رأسي من مشاهد ، وعاونني على الاسترسال في تفكيري وجودي في عربة القطار وحدي ، وبقيت ساكناً في بحور الخيال ، وقد انتشرت في صدري إحساسات حزينة ، كان قلبي يتجاوب مع أفكارى ، فينقبض وينزف أسى ومرارة . وأحسست حركة بجوارى ، فرفعت رأسي ، فألفيت فتاة طويلة القامة ، متناسقة الجسم ، ناهدة الصدر ، رائعة الحسن ، شعرها كأسلاك الذهب ، ارتدت ثوباً أسود زاد في فتنها ، فرنوت إليها ، وهى تدرع الممر ، وجسمها يثنى في روعة ، فأحسست الحزن الذى ران على صدري ينقشع كما ينقشع الظلام إذا بهره الضياء .

ابتعدت عنى خطوات ، واستدارت في رشاقة ، فتموج جسمها كما يتموج غصن رطيب داعبه الهواء ، وأقبل عليها خادم القطار ، وتناول تذكرتها ، ثم سار أمامها ، وأشار إلى المقعد المقابل لمقعدى ، فانشرح صدري ، فستجلس أمامى أتملى من حسنها سبع ساعات .

وضعت حقيبتها ثم قعدت ، وتحرك القطار مغادراً أمستردام ، وما انساب خلفاً المدينة خلفه ، حتى نهضت بقامتها الفارعة المتناسقة ، وأخذت تحاول أن تفتح الشباك ، فقلت لها بالفرنسية :

— إنه ثابت .

فقلت في صوت رقيق :

— متشكرة .

وقعدت وأنا أنظر إلى وجهها في إعجاب ، كانت عيناها غريتين . وخیل
إلى أنهما في زرقة البحر ، ولكن سرعان ما تبدل لونهما فكانتا في لون
البنفسج ، ثم تبدل لونهما مرة أخرى ، فكانتا في لون الفيروزج ، أو كأنما
كانتا بلورتين يرى فيهما ألوان الطيف ، أو عيني هرة لا يثبت لهما لون .

وقطنت إلى أنني أرمقها في إعجاب ، ولعل وجهي فضح سري ، فقلت
بالإنجليزية في بساطة :

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟

فقلت وقد انفرجت شفתי عن ابتسامة هادئة :

— عيناك !

— ماذا بهما ؟

— سحر .

فتوجت شفתי ابتسامة رقيقة ، وقالت :

— من أين أنت ؟

— من مصر .

فشردت ببصرها وقالت :

— بلاد السحر والأسرار .

فقلت في انشراح :

— وأين سحرها من سحر عينيك .

فانبسطت أساريرها . وبرقت عيناها ، ولاح عليها الانشراح ، ورأيت

أن يظل حبل الحديث بيننا موصولا ، فقلت لها في تساؤل :

— باریسیة ؟

فقلت وقد زوت ما بين حاجبيها :

— ما الذى جعلك تحسبنى باريسية ؟ آه .. مشيتى من غير شك .
حسبنى كثير من الناس باريسية بسبب مشيتى .. لأننى لا أحب أن أكون
باريسية .. لأننى هولندية .

— من أمستردام ؟

— من هارلم .

— مدينة الأزهار ! إنك أروع زهرة فيها بلا جدال .

فتهلل وجهها فى براءة ، وقالت وهى تنوёл بعينها الساحرتين :

— ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

أحسست سحابة الكدر تعود لتنتشر فى صدرى ، وقلت فى صوت فيه

ونة أسمى :

— جئت لزيارة صديقة .

فقلت وهى تنظر إلى ، وعلى شفيتها ابتسامة :

— لعلك وجدت فى زيارتها سعادة لقلبك .

فقلت فى سخرية :

— وجدت إحدى الراحتين .

— ماذا وجدت ؟

— اليأس المرير .

— لماذا ؟

— خطيت ، فانقطع بذلك كل ما كان بيننا .

وسكت ، فساد الصمت بيننا ، ونظرت من نخلل النافذة المجاورة ،

قرأيت المزارع النضرة مترامية على مدى البصر ، وطواحين الهواء متناثرة هنا

وهناك ، لا يشوه ذلك الجمال إلا آثار الدمار الذى خلفه الألمان ، ولم أتبته لنفسى
إلا على صوتها ، وهى تقول :

— فيم تفكر ؟

— فيك !

فقلت فى صوت نـم عن غيرـة :

— بل فيها .

— انتهى كل شىء بيننا ، وما كنت ممن يجرون وراء الأوهام .

— هذا كلام عقلك ، فما رأى قلبك ؟

— فقد هولندية ، فعوضه الله خيرا منها .

— مجاملة ولا مرء .

— بل الحق الصراح .

ورفت على شفيتها ابتسامة ، والتمعت عيناها العجيبتان يريق خاطف ،

وقلت لها فى اهتمام .

— إلى أين أنت ذاهبة ؟

— إلى بروكسل .

— وماذا تفعلين هناك ؟

— دعانى عمى تمضية بضعة أيام .

— وأين تنزلين ؟

— فندق سيرو ، عمى ينتظرنى هناك .

— يا لحسن حظى ، السماء راضية عنى اليوم .

— لماذا ؟

— ستترلين نفس الفندق الذى أنزل فيه .

ورحنا أنا ومرجريتاً نتجاذب أطراف الحديث ، وراح كل منا يقص نتفا من حياته حتى بلغنا بروكسل ، فحملت عنها حقيبتها . ثم ركبنا سيارة انطلقت بنا إلى فندق سيرو . كانت الغيطة تملأ جوانحي ، فقد كانت مرجريتاً تختلف عمن قابلت في طرقات لندن وباريس ، إنها فتاة مثقفة ، حصلت على أكثر من شهادة ، في أكثر من فرع من فروع التخصص .

وبلغنا الفندق ، فهبطنا من السيارة ، ثم دلفنا إلى الردهة الواسعة ، ووقفت مرجريتاً تقلب عينيها في أرجاء المكان ، وغمغمت :
— لم يأت بعد .

فقلت لها :

— تعالى معي .

وانطلقنا حتى إذا بلغنا حجرتي ، فتحت الباب ودخلت ، ثم قلت لها :
— تفضلي .

تضرجت وجنتهاها بلون الدم ، وقالت في انفعال :

— ماذا تظنني ؟ أتخسني باريسية ؟

فقلت ببرود :

— أعرف أنك هولندية .

فقلت وهي ثائرة :

— ما كان هولندية تحترم نفسها أن تدخل غرفة رجل غريب .

فقلت في عدم اكتراث :

— دعوتك بجاملة ، لا بأس من أن تنتظري عندك حتى أصلح ما أفسده

السفر .

وتركتها عند الباب ، وأخذت أمشط شعري ، وأصلح هندامى ، ثم

خرجت إليها ، وهبطنا إلى الردهة ، وقعدنا نرصد قدوم عمها .
ومرت لحظات وهي تقلب عينيها في الوافدين ، ثم انبسطت أساريرها ،
ونفضت خفيفة وهي تغغم :
— عمى .. جاء عمى .

وتقدم الرجل منها ، وصافحها وهو يلاطفها ، ونظر إلى . فقدمتني إليه ،
ورأيت أن انسحب ، فاستأذنت .

ودخلت غرفتي ، وأغلقت بابي خلفي ، وتمددت في فراشي ، فاحتلت
مرجريتاً ذهني ، وراح خيالي يحضرها بقامتها الطويلة المتناسقة ، وهي تتننى
في مشيتها ، فتدب النشوة في بدني . ولججت في تصوراتي ، وأنا لا أحس
مرور الزمن ، حتى سمعت رنين التليفون ، فانتبهت من أحلام يقظني ،
ورفعت السماعة ، ووضعتها على أذني ، فحقق قلبي ، كان صوت مرجريتا
العذب ينسكب في أذني ، فيوقظ مشاعري ، ويرهف حواسي .

راحت تسألني عن حالي ، كأنما لم نفرق من لحظات ، وأحسست رغبة
في لقائها ، فقلت لها :

— تعالى تغدى معا .

— دعاني عمى للغداء .

فقلت في إصرار :

— وأنا أدعوك للعشاء .

وأقبلت في المساء ، بقامتها الفارعة الرائعة ، فانطلقنا معاً نتجاذب أحاديث
شهية ، ودلفنا إلى مطعم من المطاعم ، وجيء بالطعام ، فأخذنا في تناوله
والعيون تتحدث ، والقلوب تحقق لحديث العيون ، وغادرنا المكان لنجوس
خلال المدينة ، فرحنا نضرب على غير هدى ، وما رأينا من المدينة إلا أنوارا
(صدى السنين)

تتلاها ، وأنا سأمرون بنا مرور الأطياف ، فقد كنا غارقين في حديثنا ، وكان ألد ما في الوجود .

وتصرم الوقت ، ورأينا أن نعود إلى الفندق ، بعد أن اتفقنا على أن نتقابل في الصباح ، للذهاب لزيارة معالم بروكسل وآثارها . وانطلقنا حتى بلغنا الفندق ، فدخلنا وأنا مغمم بالنشوة ، وما إن بلغنا حجرتي حتى فتحت بابها ، وقلت لها وأنا أبتسم :
— لا تفضل .

فأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وذهبت إلى حجرتها .
واندسست في فراشي ، وقد احتل طيف مارجريتا أقطار رأسي ، وطاف النوم لي ، فرحت في سبات ، حتى إذا أصبح الصباح ، رن جرس التليفون ، فتناولته ، فألقيت مرجريتا تدعوني للخروج ، فقممت منشرحاً أرتدى ثيابي ، وما انقضت دقائق حتى سمعت طرقة خفيفاً على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدتها في ثوب يديع من ثياب الصباح ، فحييتها وتركتها عند الباب ، دون أن أدعوها للدخول ، وذهبت أكمل ارتداء ملابسي .

وخرجنا معا ، وفيما نحن سائران وقعت عيناى على محل يبيع الثياب ، فيمنا شطره ، وأخذت أشتري بعض حاجات لي . ثم قدمت إليها جوربا من « النيلون » ، فأربد وجهها ، وضافت عيناها الساحرتان ، وقالت في غضب :

— إذا لم تقلع عن هذا الأسلوب ، غادرتك في الحال .

— هدية متواضعة .

فقالت في حدة :

— لا .

فهزئت كنفى ، وتركت الجورب ، وخرجنا نستأنف ما كنا فيه من حديث .

ومرت الأيام ونحن لا نفرق ، نتقابل فى الصباح ، وتتقابل فى المساء ، ونعود إلى الفندق فى هجمة الليل والناس نيام . واستيقظت فى جوفى مشاعر الحب الجبار ، فكرت أكثر من مرة فى أن أطوقها بذراعى ، وأضمها إلى صدرى ، لأطفئ لهيب النار الذى يحرق كبدى ، ولكنى كنت أحجم ، وأكبت مشاعرى . وكنا نمر على حجرى فى كل ليلة ، فأحييها تحية المساء ، وألج باب حجرى ، دون أن أدعوها للدخول .

وفى ليلة من الليالى قلت لها ونحن نلج باب الفندق :
— سأغادر بروكسل بعد أربعة أيام .

ونظرت إليها ، فخیل إلى أن وجهها قد اكفهر ، وهمست فى نبرات خافتة حزينة ، عبثت بأوتار قلبى :
— هكذا سريعا !

— سأذهب إلى باريس ، ومنها إلى القاهرة .

وساد صمت بغيض ، ثم قالت :

— ألا تؤجل سفرك ؟

— لا أستطيع .

وعاد الصمت ثانية ، وانطلقنا مطرقين دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، حتى إذا بلغنا باب حجرى ، رفعت رأسى لتحيتها ، فهالنى ذلك العبوس الذى ران على الوجه الجميل ، وحز فى نفسى ، فأحسست بأن إيرا تخز روحى ، وهممت بأن أضمها إلى ، ولكنى كبحت جراح نفسى ، وألقيت عليها تحية المساء ، ودخلت غرفتى ، وفى قلبى شجن .

ارتقيت في فراشي ، وقد تأمرت على حواسي ، كان فكري يفكر فيها ،
وقلبي يخفق لطيفها ، وكبدى تهفو إليها ، وكل جارحة من جوارحي تحن إليها
وتشتبها ، وبقيت فريسة لأفكارى تعذبني وتضني ، وفي ذلك الهدوء الذي
هيج مشاعري ، رن التليفون ، فهرعت إليه ، فإذا بها تقول في صوت متهدج
هز كياني :

— حسين ، نمت ؟

— لا يا مرجى ، لم يطف النوم بعيني .

— وأنا لا أستطيع النوم ، اقتابتنى وساوس وأفكار .

وكدت أضعف وأبشها وجدى ، وأشكو إليها كرى ، ولكنى كبحت
جراح نفسي ، وقلت لها وأنا أكافح ما لي ، وأغالب قلبي :

— نامي يا مرجى ، وأتمنى لك أسعد الأوقات .

وأغمضت عيني ، ولكن النوم نأى عني ، واستيقظت مشاعري ،
وراحت الخواطر التي تدور حول الاعتراف لها بحبي تتولد في رأسي ، وتنمو
وتشتد ، وقلبي يغليها بالإحساسات التي تتدفق منه حارة فوارة ، حتى
أحسست خورا يدب في عزمي ، ودموعا تبلل مقلتي . وبينما أنا فريسة لأفكارى
سمعت طرقا على الباب ، فنهضت مبسرا وفتحته ، فوجدت مرجريت واقفة
وفي وجهها عبوس ، وفي عينيها دموع ، فطلعت إليها مشدوها ، وهي تدخل
لأول مرة إلى حجرتي ، ودموعها تجري على خديها ، وارتمت على مقعد قريب
من فراشي ، قدنوت منها . وقلت لها في صوت أشبه بالصوت المنبعث من
خشب يتكسر :

— ماذا يا مرجى ؟

— لا تتركني ، خذني معك ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .



وانهمرت دموعها ، فضممتها إلى صدرى ، ورحلت أغمغم فى وله :
— مارجى .. مارجى .

فقلت فى توسل والعبرات تختفها :

— لا تتركنى . لا تتركنى ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .
— هذا فوق مقدورنا .

— ولن أدعك تسافر وحدك .

— مارجى !

— لن أكون عبئا عليك ، إنى أستطيع أن أعمل .

فقلت لها لا هدى من انفعالها :

— غدا يا مارجى نتحدث فى هذا الأمر .

— كل ما أريده أن أكون بقربك .

وظلت مارجى تسح الدموع ، وأنا أهدئ من روعها ، والنار تشوى
جوفى والغصبة تحتل حلقى ، وتقضت ساعات ونحن نقاسى ثورة مشاعرنا
الطاغية ، ثم انسلت إلى حجرتها وفى وجهها أسى ودموع .

وأسفر الصبح ، ودق التليفون ، فتناولته فإذا بمارجى تسألنى أن أتأهب
للخروج ، ثم مرت على وخرجنا واجمين ، كان كل منا مشغولا بأفكاره ،
وانطلقنا حتى إذا بلغنا حديقة قرية من الفندق دلفنا إليها ، وقعدنا على مقعد ،
ونحن صامتان .

والتفتت إلى بعينها العجيبتين اللتين بدا فيهما آثار البكاء ، وقالت فى
صوت حزين :

— لا أدرى كيف أدعك تسافر وتتركنى !

— لو كان الأمر بيدى ما تركتك .

— وماذا يحول بينى وبين أن أسافر معك ؟
— لابد من اتخاذ إجراءات طويلة قبل دخولك مصر .
— إنى أستطيع أن أمارس التمريض ، وقد حصلت على شهادة عالية في
التدليك ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، إننى مطلوبة في لندن وإندونيسيا .
— سأذلل عقب عودتى إلى مصر العقبات التى تعترض ذهابك إليها ، ثم
أستدعيك .

فقلت فى صوت متهدج :
— لن أكون عبثا عليك ، كل ما أرجوه أن أعيش حيث تعيش . وخفق
قلبى ، ولو طاولته ثقلت لها : لن أدعك لحظة واحدة ، ولكن ما معنى من مال
كان قد تبخر ، وهو كل ما أملك ، وما كنت أحب أن أصبحها معى إلى
مصر ، وأنا خالى الوفاض ، ولو كنت أملك مالا لحملتها معى إلى مصر ،
لأريح القواد العاشق الولهان .

وجاء الليل ، وخرجنا معا ، ولكن مارجى لم تكن فى هدوء الصباح ،
عادت تتوسل إلى أن آخذها معى ، والدموع تترقرق فى عينيها ، وخشيت أن
تنفجر بالبكاء فى الطريق ، فأشرت عليها أن نعود إلى الفندق ، فوافقت ،
وعدنا من حيث جئنا ، ودخلنا غرفتى والأسى يلوح فى وجهينا .

واستسلمت مارجى للبكاء ، فألمتنى دموعها ، وحزت فى روحي ، ولم
أطق أن أراها فى نشيجها ، فذهبت إليها ، وضممتها إلى صدرى . وأخذت
أغمغم فى توسل :

— كفى .. كفى أرجوك .

فهمست وقد خنقتها عبراتها :

— ليتنا لم نتقابل ، ليت عيني لم تقعا عليك .

فقلت لها في عتاب :

— أحاقدة على يا مارجي ١٩

فقلت وهي ترنو إلى في وجد :

— أبدا .

وصمت قليلا ، ثم أردفت في وجد :

— إننى لست كالفتيات اللاتي قابلتهن في طرقات لندن وأمستردام

وباريس ، إننى مخطوبة ، وخطيبى من خيرة شباب هارلم ، وها أنا ذى
أعرض عليك أن تأخذنى معك ، فتفر منى لقد انتهت .. انتهى كل ما كان
بينى وبين خطيبى ، ولن أعود إليه .

فقلت لها في حرارة :

— أقسم لك يا مارجي أنى سأبعث إليك ، حينما أذلل الصعاب التى

تعترض قدومك إلى مصر ، لنعيش سعيدين .

فقلت وقد شردت ببصرها :

— لكأنما ذلك حلم من الأحلام .

ووافى الليلة الفاصلة ، آخر ليلة أقضيها فى فندق سبرو قبل ذهابى إلى

باريس ، فى طريقى إلى مصر ، لم تغادر الفندق ، بل تلاقينا فى حجرتى
للوداع ، كانت مارجيتا شاحبة اللون ، عابسة الوجه ، ظللنا نبادل
النظرات ، ونحن صامتان ، وإن كانت مشاعرنا تمور فى صدرينا نائرة دافقة ،
وفتحت حقيبتها ، وأخرجت منها قداحة ، وقدمتها إلى وهى تقول :

— ليس معى غيرها ، خذها لتذكرنى بها .

تناولت القداحة خافق القلب ، ثم نهضت واتجهت إليها ، وألبستها عقدا

وقرطا كنت قد اشتريتهما لها ، وكنت أرقب الفرصة المناسبة لأقدمهما لها

دون أن أغضبها ، فأخذت تتحسس العقد بيدها ، ثم قامت إلى المرأة ، ونظرت إلى صورتها ، وملأت الدموع مقلتيها .

وأصبح الصباح ، فهبطنا إلى قاعة الفندق ، وأنا منقبض النفس ، تكاد دموعى تفر من عيني ، وانطلقنا إلى المحطة ، وحن أوان الوداع لما دق الجرس مؤذنا بتحريك القطار ، فامتزجنا في عناقنا كأنما نتزود للدهر لا ندرى مداه ، وتحرك القطار وهى متشبثة . بعنقى ، تتحرك معه ، ثم ارتخت ذراعها شيئا فشيئا ، ووقفت ترنو إلى من خلال دموعها التى ملأت عينيها الحبيبتين .

وراح القطار ينهب الفضاء ، وبقيت فى مقعدى مطرقا ، كنت نهيا لأفكارى السود ؛ ساءنى أننى خلقت حبي ، ومزقت قلبي ، كانت مارجريتا بهجة نفسى ، تملأ دنياى حياة ، فإذا بها تصبح طيفا يزورنى ، وذكرى تحرك الأشجان .

وهبطت باريس ، وفى القلب لوعة ، وفى الرأس أفكار ، فشغلت بنفسى عما حولى ، وانطلقت إلى فندق من فنادقها الغاصة بالحسان ، ولكنسى انزويت فى حجرى ، تراقبنى عينا مارجريتا الساحرتان الأسرتان . وأحسست حيننا عجيبا إليها ، فبعثت أَدْعُوها لتقبل إلى باريس ، وألحقت فى الرجاء ، ولكنها كتبت إلى تقول إنها عائدة إلى هارلم .

وعدت إلى مصر بجروح الفؤاد ، وما إن دخلت دارى حتى بعثت إليها برسالة حارة أبشها فيها لواعج نفسى ، واشتياق القلب الولهان ، ثم أنبأتها أننى سأبذل كل ما فى طوقى لتذليل ما يعترض قدومها من عقبات ، ومررت أيام وأسابيع ولم أفعل فى مسألة قدومها شيئا ، ولم أكن صادقا عندما أخبرتها أنى سأعمل على تذليل الصعاب ، كنت خالى الوفاض ، لا أملك مالا ، وما كنت أقبل أن تقدم مارجى لتعمل وتكدح ، إننى أريدها على طريقتنا الشرقية ، أن

أكون السيد الذى يذل كل شيء ، لا الصديق الذى ينعم بالحب ، ثم يلقى بالعبء كله على حبيبة الفؤاد !

وجاءتنى منها رسالة ، تخبرنى فيها أنها فسخت خطبتها دون أن يدري أحد فى هارلم سبب ذلك ، وراحت تقص على فى أسلوب نابض ما تقاسى من وجد ، وتقول لى إنها ترقب فى لهفة رسالتى التى تحمل إليها بشرى تذليل ما يعترض سبيل قدومها إلى مصر ، لتعيش بقرى ، وتنعم بحبى .

سنت رسالتها أوتار قلبى ، وكدت أضعف وأبعث إليها أن تقدم لتطفئ النار المتأججة بين الضلوع ، ولكنى ملكت نفسى ، وكبت إليها بأن الظروف لم تسمح باستدعائها بعد . واتمست منها أن تترث وتعتصم بالصبر . ومرت أيام وأنا أروض نفسى على احتمال ما أقاسى من وجد ، وفى صباح يوم أقبل ساعى البريد ، وسلمنى رسالة منها ، ففضضتها خافق القلب ، وجعلت أقرؤها فى لهفة ، فألقيتها صاخبة ، ثم ما لبثت ثورتها أن هدأت وهدأت ، حتى انقلبت إلى استعطاف ، قالت فى غضب إنها كانت تستظر منى تلك المراوغة قبل أن تصل إليها رسالتى ، وإنها تعلم أننى أحاول الفرار منها ، وإن هذا لا يهمها فإنها لم تحينى يوما ، ثم لانت حلتها ، وقالت إنها لن تمكث فى هولندا ، لقد بيتت العزم على مغادرتها ، فلندن تطلبها وأندونيسيا فى حاجة إليها ، إنها سترحل ما فى ذلك شك ، ولكنها تفضل أن ترحل إلى مصر ، إلى البلد الذى أعيش فيه ، لتكون بقرى وهذا كل ماترجوه فى الحياة .

جلست لأكتب إليها ، ولكن ساعى أن أعتذر مرة أخرى ، فمزقت الرسالة فى غضب ، ثم قرأى ألا أكتب إليها إلا إذا ادخرت مبلغا من المال ، هذا هو رأى ، ولن أجرى بعد اليوم فى أثر سراب .

وأخذت أعمل ، وأواصل الليل بالنهار ، وطيف مارجريتا يؤنسنى ، ويشد من أزرى وهممت أكثر من مرة بأن أكتب إليها أستدعيها ، فقد لاح

لعيني تبشير النجاح .

وجمعت مالا ، وطابت نفسي ، ولكن لم تكتمل سعادتي ، فقد راح قلبي
يخرجني على استدعاء مارجي ، وأرسلت إليها رسالة ، وأخذت أنتظر ردها
في تشوق واهتمام .

وبقيت أرصد رسالتها قلقا ، وكنت أعجب لذلك القلق الذي يلغني ،
ومرت أسابيع ، ولم يرد منها شيء ، فزاد قلقي ، واستولت على رهبة ، ولكن
لم أقطع حبل الأمل ، وبت أعيش على بصيص خافت من الرجاء كان يمدده
بالنور قلبي العاشق المتلهف على اللقاء .

ومر شهر وشهر ، فانطفأ ذلك البصيص ، ولغني حزن ، وأصبحت
حليف الانقباض ، وفي ذلك الظلام الثقيل ، برق في ذهني خاطر استراحت
له نفسي ، إنها رحلت قبل أن تبلغها رسالتي ، إنها لا تزال تحبني ، فإن كانت
قرأت ما سطرته بذوب نفسي ، لجاءت على جناح الحب تطير ، واطمأنت
إلى ذلك الخاطر ، ولكن عز على أن أحيا على خاطر لطيف ، فقد راحت
نفسي توسوس لي أنها تلقت رسالتي بعد أن مسحت يد النسيان من قلبها
حبي ، واستبد شيطاني بي ، حتى صدقت وسوسته ؛ فعدت إلى سجن
نفسي ، حزينا يائسا مهموما ، لأعيش ما بقي من عمري في ظلام دامس
بغيض .

رجل وامرأة

هبط من القطار ساهما ، وسار يقامته الطويلة يحمل حقيبة كبيرة وقد دثرته رهبة خفيفة ، كان يحس إحساسات الغريب الذي يهبط بلدا لأول مرة ، وخرج من المحطة ، ووقف على الطوار يتلفت في حيرة لا يدري إلى أين يذهب ، ورفع رأسه إلى السماء ، فآلقها ملبدة بالغيوم قاتمة ، وتلفت حوله فوجد المكان موحشا كأنما استعار وحشته من نفسه ، فوضع الحقيبة على الأرض ، وجعل يفكر في أمره .

إنه موظف نقل إلى هذه المدينة الساحلية من مدن القطر ، ومارآها من قبل يومه ، وما كانت هذه المدينة الوحيدة التي لم يرها من قبل ، فما كان يعرف غير القاهرة ، إنه لم يغادر أهله ، عاش عمره في دار أبويه ، لا يعرف ارتحالا ، حتى عطلاته الصيفية ، كان يمضيها بين ملاعب الكرة ودور السينما ، فإذا جن الليل عاد إلى البيت ، وأوى إلى فراشه منعمًا سعيدا .

أكمل دراسته الفنية ، وأصبح مدرسا في مدارس الحكومة ، وسعى أبوه سعيا حثيثا ليلحقه بمدرسة من مدارس القاهرة ، ونجح في سعيه ، ولكن ما كان ذلك ليدوم ، كان عليه أن يرتحل كما يرتحل زملاؤه ، وأن يطوف بمدارس القطر ، حتى يقضى المدة المقررة لكل مدرس بعيدا عن العاصمة .

وجاء يوم رحيله ، فأحس غصة لفراق أمه ، وأطرق يفكر مهموما ، فترأى له سفره بغيضا محفوقا بالصعاب ، أخذ يقلقه أمر ليله ، فما كان

يعرف كيف يمضيه بعيدا عن أمه ، أين بيت ؟ ومن ذا الذى يجهز له طعامه ، ويعنى بفراشه ، ويرعى شئونه ، وهو الذى ما كان يفكر فى شيء من أمره . ومرت به عربة ، فأفاق من تفكيره ، وخطر له أن يندس فيها ويلتمس من الحوذى أن يطوف به المدينة ، ولكنه عاد ووجد من الأوفى أن يجوس خلالها سعيا على قدميه ، حتى يهتدى إلى مكان يؤديه ، وانساب فى شوارع المدينة ، وراحت عيناه تنتقلان فى سرعة بين اللافتات المثبتة فى واجهات الدور ، كان يتقرب عن نزل يهبط فيه ، وصفرت الريح ، وزججرت السماء ، ثم هطلت الأمطار ، فدار بعينه فى المكان ، فألقى مطعما صغيرا على قيد خطوات ، فرأى أن يتجه إليه ، وأن يحتمى به ، وأن يتناول طعاما آخر .

ذهب إلى المطعم ، وجلس إلى خوان قريب من الطريق . وطفى يرصد الماء المنهمر فى غزارة ، فخیل إليه أنه يغسل صدره ، ويزيل تلك الكآبة التى رانت عليه طوال سفره . وأحس تلك اللحظة كأنها فصل من ماضيه ، وخلق خلقا جديدا .

وأقبل الخادم ، ووقف أمامه فى احترام ، ينتظر أوامره ، فشخص ببصره يفكر ، وتذكر أنه فى بلد اشتهر بالسملك . فطلب سمكا ، ثم عاد يرقب الطريق الذى أصبح كمرآة متكسرة . تنعكس على جنباتها صور الدور والمركبات والمارة متراقصة مترنحة .

ووضع الطعام أمامه . فأخذ يتناوله فى شهوة ، كان لذيذا . وما كان يحسب أنه يستطيع أن يهنا بطعام لم تصنعه أمه ، فقد ألقت فى روعه أن طهوها لا يعدله طهو ، وأن من يسعده حظه بأن يطعم من صنع يديها لن يسيغ طعاما آخر .

ونادى الخادم ، وأعطاه ثمن طعامه ، ثم نقحه بضعة قروش .. كان قد عزم

على أن يستعين به ، ليهديه إلى مكان ينزل فيه ، وما استقرت القروش في يد الرجل حتى انبسطت أساريره ، فالتفت إلى الشاب وقال :

— أتريد فندقا كبيرا ؟

— لا .. أريد مسكنا هادئا .

— إذن انزل عند ماري .

فحدجته الشاب بنظرة المستفهم ، فقال الرجل وهو يشير بأصبعه إلى بيت من طيقتين أمام المطعم :

— هذا بيت ماري .

والتفت الشاب إلى البيت ، فألفاه قد بنى على الطراز الإنجليزي ، تحيط به حديقة صغيرة يطل على البحر الذي تلاطمت أمواجه في ثورة وغضب ، وأعجبه البيت ، وبقي يتطلع إليه والرجل يقول :

— إنه يموج بالناس في الصيف ، أما في الشتاء فهو هادئ ساكن ، لا يسمع فيه صوت ..

وصمت الخادم قليلا ، ثم قال :

— لا يقطن عندها الآن إلا شيخ كبير .

فغمغم الشاب في ارتياح :

— هذا جميل ، سأمضي الشتاء هنا ، وأعود في الصيف إلى أهلي .

وقام وحمل حقيبته ، وانطلق إلى بيت ماري والمطر ينهمر . وما إن دنا منه حتى أرهفت مشاعره ، وشاعت في صدره تلك الرهبة التي تنتشر في الصدور عند الإقدام على مجهول ، ووقف أمام الباب لحظة يستجمع قواه ، ثم مديده وضغط زر الجرس ، فرن رنينا عاليا ، كان له تجاوب في قلبه ، وفتح الباب ، وظهرت خادمة عجوز ، وراحت تنظر إليه في هدوء ، فلما رأت في يده

حقيقية ، فسحت له الطريق ، ولكنه لم يدخل ، بل قال في صوت خافت مرتعش :

— أريد حجرة ..

— تفضل .

وسارت وهو خلفها ، وصعد بضع درجات ، ثم ألغى نفسه في حجرة فسيحة ، رصت فيها مقاعد وثيرة ، وأشارت إلى مقعد قريب كبير ، وقالت له :

— تفضل حتى أدعوك ماريا .

وضع حقيقته وجلس ، واستيقظت حواسه ، فراح يتلفت في قلق ، ويعبث بأصابعه في مسند المقعد الكبير ، ثم يرفع يده ويتحسس رباط رقبته ، وسرعان ما يدس يده في جيبه ويخرج منديله ، ليحفف قطرات العرق المنبثقة من جبينه ، في ذلك اليوم الذى اشتدت ريحه وهطلت أمطاره !

وتصرمت دقائق خالها ساعات ، ثم أقبلت امرأة في الثلاثين ، ناصعة البياض ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، يشع منهما بريق جذاب ، وما أن لمحها قادمة نحوه ، حتى نهض بقامته الطويلة في ارتباك ، ولفه اضطراب ، ووقع بصره على صدرها التاهد وقوامها المشوق ، فغض من بصره حياء ، وظل في إطراقه القلقة ، حتى مس أذنيه صوتها الرقيق وهى تلقى عليه تحية المساء ، فرد عليها تحيتها في صوت متهدج ، وساد السكون برهة ، ثم قال :

— أريد حجرة .

فقالت مستفسرة في رطانة لطيفة :

— لأيام ؟

— لشهور طويلة .

ونظر إليها ، فلمح في عينيها الزرقارين الواسعتين تساؤلا ، فقال :
— سأمضى هنا شهور السنة جميعا إلا الصيف .
فابتسمت وقالت :

— إلا الصيف ، ستكون ضيفا عزيزا .
ورنت إليه فاحصة ، فأحست راحة . كان شابا طويلا ، أسمر اللون ،
متناسب القسمات ، أسود العينين ، قاحم الشعر ، عريض المنكبين ، من
ذلك الطراز الفخم ، الذى تهفو إليه قلوب النساء . واتفقا على الأجر سريعا ،
فما كانت ماريّا تطمع فى أن يفد إليها ضيف فى غير أيام الصيف ، ونادت
الخادم العجوز ، وأمرتها أن تحمل الحقيبة ! وسارت ماريّا تهديه السبيل .
خرجتا من غرفة استقبال إلى ردهة طويلة ، وسارا حتى بلغا درجا من
الخشب ، فراحت تصعد فيه فى رشاقة ، كانت موفورة النشاط ، نابضة
بالحياة ، وصعد فى أثرها ، فوق نظره على مفاتن جسمها ، ورأى ساقبها
المصقولتين اللتين بدتا كأنهما خرطتا من مرمر ، فاضطرب وغض من بصره
خجلا وحياء ، وبلغا بهوا قسيحا به بعض النضد والمقاعد وأبواب غرف
النوم ، وباب من زجاج يوصل إل شرفة تطل على البحر ، واتجهت ماريّا إلى
غرفة من الغرف ، وفتحت بابها ، والتفتت إليه ، وقالت :
— تقضل .

ودخل وقلب ناظريه فى الغرفة ، فوجد سريرا وصوان ملابس ومشعجا
ونضدا ومقعدا ، كانت غرفة لطيفة نظيفة ، وسمع ماريّا تقول :
— أعجبتك ؟

فقال فى صوت خافت :

— بديعة .

وقالت ماريًا وهي تغلق الباب وقد رفت على شفتيها ابتسامة عذبة :
— إذا احتجت إلى شيء فأنا في خدمتك !
فقال في ارتباك وقد تدفق الدم إلى وجهه :
— متشكر .

وخلع ثيابه ، وشعر بأنه في حاجة إلى حمام ساخن ، ولكنه خجل من أن
يلتمس من ماريًا أن تعد له الحمام ، فذهب إلى دورة المياه ، وغسل رأسه
ووجهه وقدميه ، ثم عاد إلى غرفته . وتمدد في فراشه ، وأسبل جفنيه ، وراح
يفكر وهو بين النائم واليقظان .

سرى إلى سمعه خرير الأمواج ، وزفرقة الرياح ، فخيّل إليه أنه يصفى إلى
لحن سماوى أخاذ ، فصفت نفسه ، وانتشت روحه ، وأقلعت عن صدره
تلك الرهبة التى أقلقته ، وجسمت لخياله ما ينتظره من صعب ، وفكر في
أمره ، فحمد الظروف التى ساقته إلى بيت ماريًا ، وتمنى أن تكون مدرسته
قريبة من الحى الذى نزل به ، حتى لا يقاسى قسوة المواصلات .

وطاف به ملاك النوم ، وأسبل عليه جناحه ، فنام ملء جفنيه ، وانقضى
الليل ، وتسلسل أول خيط من خيوط النهار إلى غرفته ، فنهض من فراشه وغادر
حجرته ، وما أن خطا في البهو خطوات ، حتى رأى ماريًا في قميص وردى ،
يفضح جمال تكوينها ، كانت ذراعاها البضتان عاريتين ، وصدرها شائخا في
رعونة ، وشعرها الذهبى متهدلا خلفها في روعة ، وعيناها تنفثان سحرا ،
ولما وقع بصره عليها ارتبك ، وحيّاها بإيماءة خفيفة ، وذهب يتعثر في
خجله .

وارتدى ثيابه ، وخرج يبحث عن مدرسته ، وكم كان سروره عظيما لما
ألفاها في نفس المنطقة التى يقع فيها بيت ماريًا ، فأحس رضا ، ووجد في ذلك
(صدى السنين)

فألا حسنا ، فذلك التوفيق الذى صادفه فى مستهل حياته الجديدة ، يشير بأنه سيمضى فى هذه المدينة أياما سعيدة هنية .

وراح يطوف بأرجاء المدينة ، حتى إذا انتصف النهار ، ووافى ميعاد الغداء ، قفل عائدا إلى الدار ، فقابلته ماريا فى بشاشة ، وقالت له :
— آن أوان الطعام .

فأتجه إلى غرفة السفرة ، وجلس صامتا ، وأخذت ماريا تغدو وتروح ، تعد له غداءه بنفسها ، وانتهت من تجهيز كل شيء ، ووقفت أمامه برهة ترنو إليه .. كانت ترجو أن يدعوها لتناول الغداء معه ، وكانت قد وطنت النفس على أن تلبى دعوته . ولكنه أخذ يلتمهم ما أمامه ، ولم ينبس بكلمة ، فانسلت إلى غرفة أخرى وقد سرى فى نفسها تبرم وضيق .

وانتهى من غداءه ، وكان لذيذا دسما ، فنهض ليذهب إليها يمتدح طعامها ، ويشكرها على عنايتها به ، ولكن ما إن دنا منها حتى عقد لسانه ، وغلب على أمره ، فانسل من جوارها صامتا ، واتجه إلى السلم الخشبي ، وراح يرقاه ليدخل غرفته ، ويغلق عليه بابها .

وتصرم النهار ، ووفد الليل بهدوئه وشاعريته ، وفتح باب غرفة ماريا ، وخرجت فى ثوب أزرق فاتن ، يكشف عن صدرها البلورى ، وعنقها العاجي ، وجيدها الأتلع ، كانت قد صفت شعرها الذهبى فى عناية ، فزاد فتنتها ، وذهبت إلى مقعد فى مواجهة غرفته ، وقعدت ووضعت ساقا على ساق ، فأنحسر ثوبها عن الساقين معا ، فبدت فى هيئة تفتن العابد فى محرابه . وراحت ترصد الباب بعينين متلهفتين ، ومر الوقت وهى فى جلستها . فأرهفت حواسها ، وتململت فى مقعدها ، وطغت ثورة مشاعرها ، فقامت وسارت إلى الشرفة ، ومدت بصرها إلى البحر الساجي ، الذى بدت

صفحته كمرآة فضية مصقولة . كان القمر في ليلة تمامه يبعث ضياءه اللطيف إلى الكون الهاجع ، فيمده بالشاعرية والجمال .

ومارت إحساساتها الزاخرة في صدرها ، وهفت إلى الحب فلم تطق أن يحول ذلك الباب بينها وبين إرواء نفسها . فلو أنه انفتح ووقع عليها نظر الشاب ، لما استطاع أن يقاوم فتنتها ، ولذاب من حرارتها كما تلذوب الشمعة إذا أحست مس النار .

وخطر لها أن تذهب إليه ، وتطرق بابه ، وتلمس منه أن يناولها شيئا ، ولكنها لم ترتح إلى ذلك الخطر ، ففكرت في وسيلة أخرى ، وبان في وجهها الرضا . فرفعت صوتها بالغناء ، فسرى أمرا جذابا شحن رقة وأنوثة ، وانساب عذبا نديا يهز القلوب ، ويعبث بالأفئدة ، ومس أذن الشاب مسا رقيقا ، فأعارها السمع ، كانت تغنى أغنية رومية لم يفهم منها حرفا ، ولكن نبرات صوتها أطربته ، فراح ينعم بالأنغام وهو ممدد في فراشه ، وهام في تيه الخيال ، ولكن لم يخطر على قلبه أن ينطلق إلى ماري ..

وانتهت من أغنياتها ، وغادرت الشرفة ، ودلفت إلى الردهة وهي تمنى النفس بأن تجده هناك ، يصغى إليها هيمان ، ولكنها ألقت باب غرفته موصدا ، فذهبت إلى غرفتها تحس إحساس العائد من معركة منهزما ، ولو طاولت نفسها لخطمت عليه بابه .

وانقضى الليل ، وطلع النهار ، فقامت ماري ، وفتحت باب حجرتها ، ثم عادت إلى فراشها ، وارتمت فيه ، في وضع مثير ، حسرت الغطاء عن ساقها فكانت فتنة ، وبلغ سمعها صرير باب ، فاشترأت بعنقها ، لترى ما يفعل الشاب إذا وقع بصره على ما هيأت له من إغراء ، ومربياها ، فلما وجده مفتوحا تطلع إلى الغرفة برغمه ، فلما رأى ماري في فراشها ارتبك ، وغض من

بصره ، وأسرع في خطاه ليغيب في دورة المياه .

وغادر البيت إلى مدرسته ، وانقضى النهار ، وعاد مع الغروب ، ودخل إلى حجرته وأغلقها على نفسه ، ومر بعض الوقت ، فأحس مللاً ، فخرج إلى الشرفة يمتع الطرف بمراقبة قرص الشمس المتوهج وهو يخصوص في البحر الذي اصطبغت صفحته بلون الأرجوان .

وقف صامتاً ينظر وقد ملأ منظر غروب الشمس أقطار نفسه بهجة ، وظل شاخصاً ببصره ، مفعماً بالنشوة ، حتى سمع حركة في الردهة ، فالتفت فرأى ماريا تومى إليه أن تعال فحقيق قلبه ، واستيقظ قلقه وذهب إليها وقد دثرته رهبة . كانت في ثوب أحمر زاد في روعتها ، فبدت كتمثال للجمال . واستدارت على عقبيها وأولته ظهرها ، وقالت له في رقة :

— ساعدنى في تزيير أضرار الثوب من فضلك .

كان ثوبها مشقوقاً حتى خاصرتها ، به أضرار كثيرة ، فوقف في مكانه مأخوذاً ، زائغ البصر ، ثم دنا منها وهو في اضطرابه ، ووقعت عيناه على ظهرها الناصع ، الذى كان كأنما خلق من شمع مصفى ، فسرت في صدره رهبة ، ومد يدا مضطربة وجعل يزرر أضرار الثوب في حرص حتى لا تلمس أنامله لحمها . واستدارت بوجهها ، ورئت إليه بعينيها الزرقاوين ، ونفست أنفاسها الحارة وجهه ، ولو أنها لفحت لوحاً من الثلج لأذابته ، ولكنه كان مشغولاً بتلك الأضرار التى كان يعالجها في حرص وحذر !

وأرادت أن تخرجه عن صمته فقالت وهى تميل إلى الوراء قليلاً ليلمس ظهرها صدره :

— إلى ذاهبة إلى السينما .

كانت تأمل أن يعرض عليها الخروج معها ، وكانت تتأهب لتشكر له

لطفه ، ولكنه لج في صمته ، فاستأنفت حديثها ، لتخرجه من ذلك الجمود الذى يجرح كبرياءها .

— بها رواية رائعة .

فقال فى صوت مضطرب خافت كأنما ينبعث من أغوار نفسه :

— أية رواية ؟

وأرضاهما أنه نطق أخيرا .

فقال فى خفة :

— جيلدا .

— رواية رائعة : رأيتها فى القاهرة .

وصمت ، فأحست كأنما صفعها على وجهها ، فشارت ثورتها ، ولم تعد تحتل أن تبقى أكثر من ذلك ، فانطلقت فى الدرج الخشبي ، وجعلت تهبط فيه حانقة متبرمة . وارتمى على أول مقعد صادفه ، وجعل يلتقط أنفاسه فى جهد ، فقد أدار عرفها الطيب رأسه ، وأيقظ دنوها منه مشاعره ، حتى كاد يضعف ويضمها إلى صدره ولكنه أحجم ، خشية أن يغضب السيدة التى رعته وأكرمت وفادته !

ومرت أيام وماريا تتودد إليه ، وهو منطو على نفسه ، ينظر إليها بعين التقدير والتبجيل ، فلم يخطر له على بال أنها تشتيه ، وأن كل جارحة من جوارحها تهفو إلى شبابها الغض الرطيب .

وضاقت ماريما بجموده ، وعزمت على أن تخرجه من قوقعة نفسه ، ففى عصر يوم من الأيام ، بينما كان جالسا فى الردهة يقرأ ، خرجت من غرفتها وخيته متطلقة الوجه ، ثم راحت تهبط فى الدرج قفزا فراح ثدياها يترجرجان فى رعونة ، وقبل أن تبلغ نهاية الدرج تظاهرت بأن رجلها قد زلت ، فندت

منها صرخة ، واستلقت على الأرض ، وأسبلت عينيها .
صكت صرختها أذنيه ، فأسكنت الرهبة قواده ، وهرع إليها مضطربا ، رآها
مغشيا عليها ، فراح يتلفت في حيرة ، ولم يعد يدرى ما يفعل ، وفيما هو
يتلفت في ارتباك ، خطر له أن يدعو الخادم المعجوز ، فأنطلق في الحجرات
يبحث عنها ، فلما لم يجدها عاد إلى ماري ، وراح يتطلع إليها بعينين شاردتين ،
ثم صعد في الدرج وثبا ، ولم يغب لحظات حتى رجع وفي يده زجاجة
« كولونيا » أدناها من أنفها ، ولكنها ظلت في إغمائها ، ولم يجد مقرا من
حملها ، فمد يديه وحملها بين ذراعيه ، فالتصق جسمها اللدن بصدرة ،
وراح يصعد بها في حرص وأناة ، وقد اطمأنت ماري ، فقد سقط في
شباكها .

بلغ الردهة العليا ، وذهب إلى غرفتها ، ودفع يايها بقدمه ، ثم سار إلى
السري ، ووضع فيه ماري ، وأخذ يفرك يديها بين يديه ، ثم بلل كفه
بالكولونيا ، وراح يمررها على جبينها وعنقها وجيدها .

وأحست أنفاسه الحارة تلمح وجهها ، ففكرت في أن تطوقه بذراعيها ،
وأن تضمه إلى صدرها الذي يعلو وينخفض في ثورة ، ولكن لماذا الإسراع إن
هي إلا لحظة حتى يهوى بشفتيه على شفتيها .

وفتحت عينيها في وهن ، ورننت إليه رنوة لو أنها صوبتها إلى رجل آخر
لزلزلت كيانه ، ولكنه ابتعد عنها وهو يغمغم :

— حمدا لله على السلامة .

وتأوهت ، فقال لها في إشفاق :

— إنك في حاجة إلى الراحة .

وانسحب من الغرفة ، وأغلق الباب وقد خلفها وهي تكاد تنفجر حنقا

وغضبا .

وانقضى الليل وماريا ثائرة ، تحس كبرياءها تدمى ، فيما طالما صرعت رجالا من أول نظرة ، وعز عليها أن يظللها ومن أذل كبرياءها سقف واحد ، فما أن شقشق الفجر حتى ذهبت إليه ، وطرقت بابه ، ففتحه ، ووقع بصره عليها ، فأوماً إليها برأسه محييا ، ولكنها لم ترد تحيته ، بل قالت فى غضب : — أرجو أن تغادر اليوم بيتى ، إني فى حاجة إلى هذه الغرفة .

رمقها فى دهش ، وقبل أن يفتح فاه كانت قد أولته ظهرها ، وولت عابسة مقطبة ، دخلت حجرتها ، وشفقت الباب خلفها فى حنق شديد .

وقف مشدوها يفكر ، ما الذى فعله لشور عليه كل هذه الثورقباته كان يحترمها وييسجلها ، وما أغضبها يوما ، كان يعاملها كما يعامل أمه ، وتحرك وهو مذهول ، وتناول حقييته الكبيرة ، وراح يجمع متاعه ، وتراجمت حوادث الأمس فى رأسه ، وأخيرا هز رأسه فى اقتناع ، فقد خيل إليه أنه اهتدى إلى سبب ثورتها ، أغضبها أنه حملها بين ذراعيه ، وأن جسدها الطاهر التصق بصدر رجل غريب !

فنان

١

نظر في المرأة لآخر مرة ، وأصلح من هندامه ، ثم استدار ليخرج ، وقطع الغرفة وهو يصفر لحنا خافتا في بهجة ، حتى إذا ما بلغ الباب مد يده وضغط الزر الكهربائي ، فساد الغرفة ظلام ، وأغلق الباب خلفه ، وهبط في الدرج منشرحاً ، فقد أتم كتابة الرواية الكبيرة التي شغلته عن العالم شهوراً ، إنه خارج الليلة ليستريح من أفكاره ، وليمضي سهرته في ملهى من الملاهي ، بنعم بمباهج الحياة كما ينعم بها سائر الناس .

وبلغ وصيد الباب ، فألقى السكون يسيطر على المكان ، والظلام يلف الكون ، فوقف يحيل عينيه فيما حوله ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فرأى النجوم تتألق في رقعة صافية زرقاء ، فأحس حركة تدب في نفسه ، وشعر بعقله يعمل ، يترجم عما ترى العين بالألفاظ ، إنه يذكر أن أحدهم وصف ما يراه الآن بترجمة تحلت بجمان ، وشاء أن يجد الألفاظ التي تصور ما يحسه ويراه ، فأغرق في التفكير لحظة ، ولكن سرعان ما أفاق إلى نفسه ، وفطن إلى ما يعمل في جوفه ، نزل وقد انفرجت شفاته في سخرية وغمغم : « ما لنا وهذه الليلة ! لقد انتهينا من الكتاب ، وما خرجنا إلا لنتمتع بالحياة كما يتمتع بها الناس » .

وسار ، وعاد إليه هذوؤه بعد قليل ، جعل يدندن في انشراح ، حتى إذا بلغ الطريق العام ، ورأى المصاييح القوية الممتدة على جانبيه ، أخذ يرمقها بعينه الفاحصة ، فبدت له كشموس رفعت على قضبان ، ونظر إلى صقال الطريق فخيّل إليه أنه يرنو إلى صفحة هادئة من ماء تعكس ما يسقط عليها من ضياء ، ولمح « تاكسى » قادمًا ، فأشار له ، ثم ركب ، ومد بصره إلى السائق ، فأحس رضا ، ففى سحنته خصائص بارزة ، إن أنفه الكبير المقوس تلك التقويسة التى تجعله أقرب إلى منقار بيغاء ، وهاتين العينين الضيقتين ، والشارب المتدلى على الفم ، وهذه الجبهة المتفضضة ، والشعر المفلفل المنقوش البارز من « البيريه » تجعل منه شخصية متميزة ، إنه يستطيع أن يستعير هذه الملامح ، لينحها شخصية من شخصياته التى يرسمها ، وأطرق يفكر فى شخصية تصلح لها هذه الملامح ، وأغرق فى التفكير ، ولكنه تذكر فجأة أنه ما خرج الليلة إلا لينعم بالحياة كما ينعم بها سائر الناس ، فتعلمل فى جلسته ، ثم نظر من نافذة السيارة ، يتسلى بما يمر أمام عينيه من مشاهد .

٢

ووقفت السيارة أمام الملهى ، فهبط ومد يده بالنقود إلى السائق ، وأدام النظر إلى وجهه فى إمعان ، كأنما يلتقط له صورة ، لتحفظ فى مخيلته مع الصور العديدة التى يلتقطها فى كل آن . ودلف من باب المقهى ، فألقى نظرة شاملة على المكان ، ولمح فى مكان مترو نضدا خاليا ، فاتجه إليه ، وبقي لحظات وهو ساكن فى جلسته ، ولكن ما لبثت عيناه أن دارتا كما تدور الكاميرا ، فجعل يتطلع إلى الأضواء الخافتة الحمراء ، التى أضفت على المكان

جوا شاعريا ، ثم راح يتقل بصره بين الجالسين إلى الموائد ، يرمقهم بنظراته الفاحصة ، كأنما يحاول أن يتغلغل في أعماق نفوسهم ، ليستشف سرائرهم ، ويكشف عن الأسرار المدفونة في صدورهم . وأقبل النادل يلبي الطلبات ، فأخذ يتبعه نظره ، ويرقب حركاته ، ويحاول أن يفسر كل حركة وانحناءة . وعزفت الموسيقى ، فأرهف السمع وأحسن نشوة تغمره ، ولكن ما لبثت أن انقضت النشوة ، فقد طأطأ بصره ، يفكر في ترجمة الإحساس الذي يحسه إلى ألفاظ ، وأخذ يدخره في نفسه حتى إذا ما احتاج إليه يوما وجده مذخورا ، ورنأ إلى الفرقة الموسيقية ، فانشغل بأفراد الفرقة عن الأنغام ، وجذب بصره عازف الكمان ، القمىء الجسم ، ذو الوجه الجاف ، والشعر المسترسل كشعر فتاة ، فأخذ يرقبه مدة ، ثم راح يتخيله في أوضاع وأشكال .

وسكتت الموسيقى عن العزف ، فصفق الناس استحسانا ، فعاد إلى نفسه وقد أحس تبرما ، فقد شغل عن الموسيقى ، وحرمت متعتها ، وشعر بضيق يستولى عليه ، فما باله لا يمد بصره إلى شيء أو يسمع شيئا أو يحس إحساسا حتى يحيله عقله إلى مادة لفنه ، إنه يود أن يتمتع بالدنيا كما يتمتع بها الناس . وفكر في أن يفر من فكره ، فرأى أن يدعو فتاة يعرفها من فتيات الملهى لتشاركه في جلسته ، إنها فتاة لطيفة خرجت معه مرات ، وقاسمته بعض لياليه . وأخرج ورقة خط فيها سطرا ، ودفع بها إلى النادل ليبلغها الفتاة ، وأقبلت بعد لحظات ، فصافحها في رقة ، ثم جذب لها مقعدا ، فجلست إلى جواره ، فابتدأ يحادثها صافي النفس ، ثم راح يرقبها .

كانت رائعة الحسن ، فلم يهزه حسنها ، ولم يمس وترا في قلبه ، ولكنه حرك فكره ، فجعل يتطلع إليها كما يتطلع إلى تمثال من الجمال يوحى بفكرة ، فيالشعرها السبط الفاحم السواد الذي صفف تاجا ، ويا للعينين الواسعتين



اللعين تطلقان سهاماً ، ويا للقم الفاتن ، والشفتين الممتلئتين ، وراح خياله يخلق ، ولكن رن في أذنه صوته ، فعجب لحاله ، فقد شغل عن الفتاة الجالسة إليه ، وأحالتها إلى مشاهد وأفكار .

وأقبل عليها بنفسه ، وأصغى إليها ، فتحدثت وتحدث ، ولكن سرعان ما جذب حديثها فكره ، فجعل يصغى إليها بعقله ، ويختزن حديثها في واعيته ، فسيحتاج إليه يوماً ، ونهضت لتأهب للخروج معه ، وما أولته ظهرها حتى راح يفحصها بنظرة الفنان ، الذى يخشى أن تشرد منه شاردة .

وما اختفت عن عينه حتى تلملم ، فما بال فنه يفسد عليه سهرته ، إنه يود أن يمضى ليلة كما يمضيها أى رجل !

٣

وجاءت بعد أن تقننت في إبراز فتنها ، فاصطحبها وخرج ، وانطلقا إلى الجزيرة . كانت الليلة من ليالى الربيع المنعشة ، فما هب النسيم رقيقاً حتى انتعشت روحه ، فمد يده وقبض على يدها ، فسرت نشوة في صدره ، وما أحس تلك النشوة حتى جعل يفكر فيها ، كأنما أحس إحساساً ، فأسرع يعتقله قبل أن يفر منه ، وضايقه ذلك التفكير الذى يحد من نشوته ، فشاء أن يتخلص منه بأن يتدمج في إحساس فوار ، فضعها إلى صدره ، وراح يقبلها قبلة حارة ، نسي فيها نفسه ، ولكن ما رفع فنه عن قمها حتى هرع فكره ، ليسجل ذلك الإحساس .

وعاد إلى البيت حاتفا متبرماً ، فإنه لا يستطيع أن يرى الأشياء كما يراها الناس ، ولا أن يسمع الأحاديث كما يسمعها الناس ، ولا أن يحس

الإحساسات كما يحسها الناس ، ودخل فراشه وهو يحسب أنه غضبان ، وحاول أن ينام ، ولكن كانت تتلاحق في مخيلته صور وأفكار ويعتزل في صدره شعور وإحساسات ، واكتملت الصور ، ونضجت الأحاسيس فتهاض يدون ما تولد في ذهنه ، وما اعتزل في صدره ، في لذة لا يحسها إلا الفنان .

شرف

هب نسيم خفيف ، فراح يداعب قطع الغسيل المنشورة في شرفات بيوت
الحى العتيق ، ويحرك الرايات الخضراء الممزقة التى كالج لوتها ، والتى مرفوعة
أمام مقهى المعلم أبو سريع من أيام العيد التى انقضت منذ شهور ، وحمل صبي
المقهى الإناء النحاسى الأصفر المعد لغسل الفلجانات ، وراح يرش الطريق
الضيقة المتعرجة ، ليطفى حرارة الأرض ويلطف الجو للرواد الذين ابتدعوا
يقدون مع الليل ، وشربت الأرض وارتوت واستمر الصبي يدور بإنائه
النحاسى الأصفر ينثر الماء نثرا ، ولم يكف حتى امتلأت حفر الطريق المبعثرة
هنا وهناك ، فغدت كبحيرات صغيرة متقاربة قد تعكس ماؤها وهدا
سطحها ، وراح المارة من الرجال يرفعون جلايهم ، حتى لا تلتوث
أطرافها ، وما كان أحد من الجالسين ليحس مرورهم ، أو يلتفت إلى
حركاتهم ، وكانت النساء اللثفات بملاءات سود يرفعن أطراف ملاءاتهن ،
ويسرن على أطراف أصابعهن ، حتى لا تلتوث كموب أقدامهن العارية
المدسوسة فى (شبشب) متبينة ، فكانت السيقان العارية تبدو مشدودة ،
فتصوب العيون الخائفة إليها ، وتنطلق هتافات الإعجاب : « يا دين النبى »
« اسم النبى حارسك » « على مهلك يا غزال » .

ونعيم الظلام قبل الأوان على المكان ، فقد كانت مبانى الحى متقاربة
متشابكة ، حتى ليخال إلى المرء أن فى مقدور الجارين المتقابلين أن يتصافحا

من النوافذ وابتدأت المحال الممتدة على جانبي الطريق تضيء مصابيح الغاز الخافتة ، فانبعث منها ضوء باهت مرتعش ، وأضاء المعلم أبو سريع مصابيح الكهرية ، فبهرت النظر ، وأعلنت عن المكان .

وخرج المعلم أبو سريع من باب منزله القريب من المقهى ، واتجه بجلبابه الأبيض النظيف ، ولائحه الحريرية المزركشة ، وسار بخطوات منتصب القامة ، مرفوع الجبين ، ثم ارتقى درجة ، فأشرف على المقهى ، ورفع يده إلى رأسه وقال في صوت أجش خشن « السلام عليكم » ، فرد الجميع في احترام ظاهر « السلام السلام » .

وتناول المعلم كرسيًا وانتحى جانبًا ، وجلس بالقرب من شيخين يتناولان « التعميرة » في هدوء ، وسقط النور على وجهه ، فبدأ أسمر اللون ، واسع الفم ، ضخم الأنف غزير الشارب ، في خده الأيسر أثر جرح عميق ، ورفع يده ، وراح يمرر أصابعه فوق فمه المطبق ، ثم تناول شاربته بين أصابعه ، وراح يقتله في خيلاء .

وساد الصمت قليلا بعد إقبال المعلم ، ثم عادت الضوضاء سيرتها الأولى ، فارتفع صوت صبي القهوة ينادى : « واحد تعميره ناديه » ، « اتنين يتسون » .

وابتدأ باعة النهار الجوالون يعودون إلى حجرهم وأكواخهم . فكانوا يدفعون أمامهم عرباتهم في استسلام وخمول ، وابتدأ باعة الليل ينسلون من دورهم ، ويخترقون الطريق الضيق ، ييغون الميدان القسيح ، ويتنظرون رواد الليل ، ولاحت في نهاية الطريق عربة صغيرة ، قد صنعت جميعها من الزجاج ، ليس بها من الخشب إلا الإطارات ، وقد جهزت بمصابيح قوية تضيئها ، وأخذت العربة تقترب حتى وقفت في الضوء الذي فرشته المصابيح

الكهرية المتألقة في مقهى المعلم أبو سريع ، وارتفع صوت من كان يدفعها في نبرات منغمة « عاشورا مبشورة » .

انتشر الدخان في المقهى وتكاثف فعبق الجو وسيطر على المكان كسل وخمول ، وخرجت من الدار المواجهة للمقهى فتاة في الثالثة عشرة ، ممتلئة الجسم ، ناهلة الصدر ، خمرية اللون ، ترتدى جلبابا ضيقا قصيرا كشف عن ساقها الممتلئين وأظهر تفاصيل جسمها في إغراء ، وصارت تتخلع وتتمايل تمايل أغصان يداعبها النسيم ، فجعل جسمها يهتز كأنها زئبق يترجرج ، وما إن أحس الجالسون خروجها حتى التهب منهم الحواس ، ودبت فيهم الحياة ، وتحولوا إلى عيون .

وانتهجت زنوبة إلى بائع العاشوراء وتناولت صحننا وراحت تلتهم ما فيه ، والتفت البائع إليها وابتسم ، والتقت نظرتها بنظراته ، فارتبك وقال مغازلا وهو لا يدرى : « على مهلك يا جدع » فضحكت زنوبة ضحكة طويلة ممدودة ، كهربت الجو ، فما بلغت آذان الشباب حتى سرت في أبدانهم رعشة للذة ، وحتى تدفقت الدماء الحارة في العروق ، وهب أكثر من شاب ، وانطلقوا إلى عربة العاشوراء ، ليلتهموا زنوبة بعيونهم ، قبل أن يلتهموا ما في الصحنون التي دفعها الرجل إليهم .

كان المعلم أبو سريع يرقب ما كان يجري عند عربة العاشوراء في انتباه ، فامتلا صدره غيظا ، وبان الضيق في وجهه ، وجعل يتلملم في كرسيه ، وينفخ في صوت مسموع ، ثم التفت إلى الشيخين الجالسين بالقرب منه وقال في تأفف : « أعوذ بالله ، بنت تستحق قصف رقيتها ، لو كانت بنتي لشربت من دمها » .

فرقع أحد الشيخين التعميرة عن قمه وقال :

— آخر زمن .

فقال المعلم أبو سريع :

— أين أهلها ؟ أين الغيرة ؟

فقال الشيخ الآخر في تحسر :

— لم يعد هناك غيرة يا معلم . الله يرحم أيامنا .

فقال أبو سريع وقد أمسك قميصه بين أصابعه ، وراح يحركه :

— والله إني لأغار من قميصي .

وانتهت زنوبة من التهام العاشوراء فناولت الرجل الصحن وسارت وكأما كان هناك من يبخزها بإبرة في خصرها الأيمن ، فينفر عجزها إلى الناحية اليسرى ، ثم يعود ويبخزها في خصرها الأيسر ، فينفر عجزها إلى الناحية اليمنى ، أو لكأما كانت ترقص على نقرات موزونة ، فنظر أحد الشيخين إليها من بين أهدايه المسبلة في إعجاب ، فقد كان في سالف العصر والأوان زير نساء ، وقد تاب — أو بمعنى أصح أرغم على التوبة إرغاما — ولو كان به حركة لاشتهاها .

ونظر المعلم أبو سريع إلى بجسم زنوبة الرجراج نظرة تمن ، فإنه كان يريد لها ، ولكنه ما كان يريد لها لنفسه ، بل كان يرغب في أن يضمها إلى النسوة اللاتي في داره ، فلو أنه ضمها إليهن لضمن إرضاء شباب الحى الذين ابتدعوا يزهدون فيما عنده ، بل لضمن وفود شباب الأحياء المجاورة ، ولعاد إلى البيت عزه الذى ولى يوم ولى شباب أخته .

وأطرق المعلم أبو سريع يفكر ، وراح يعبث بأصابعه في شاربه المنتصب في خيلاء ، وقد رفع حاجبه الأيمن ، وضيق من عينه اليسرى ، فقد كان يفكر ، وطأ طأ رأسه برهة ، ثم رفعها وقد أشرق وجهه ، فقد هداه فكره إلى (صدى السنين)

أن يبعث بأخته إلى زنوبة ، لتربط بينها وبينها الأسباب ، ولتدعوها لزيارتها ، واطمأن إلى فكره ، وأحس غبطة ، فعما قليل تكون زنوبة في داره ، وإنه من ذلك على يقين ، فإنه ليعرف أخته جيدا ، فهي شيطانة لا تعيها الحيل ، ولا يقف في سبيلها العراقيل .

ومرت أيام ، وأقبل أول الشهر ، ولاحظ المعلم أبو سريع أن الشقة الخالية في البيت المواجه لبيته قد نزها سكان جدد ، فوقف في الشباك ، وراح يرقب الواقدين على الحى العتيق . فرأى فتيات منهوكات ، قد لطنن وجوههن بالمساحيق ، ليخفين شحوب بشرتهن ، ولهن يرحن ويجمعن في سراخ ومحول ، كأنما قد استيقظن بعد نوم طويل ليستقبلن وفود الليل ، وما كانت حركاتهن غريبة عنه ، فقد شب في بيت من هذه البيوت ، ومد بصره الحديدى يتفحص داخل الشقة ، فلم يجد كثير أثاث ، وما حاجة أمثالهن إلى الأثاث ، لأنهن اليوم هنا ، لا يعلمن كم يمكن ، فقد يمكن يوما أو بعض يوم ، وقد يمكن شهرا أو بعض شهر ، إن بقاءهن رهن بانكشاف أمرهن ، وعلى مقدار ما في الحى من غيرة و .. شرف !

وأحس المعلم أبو سريع ضيقا ، فما كان يظن أن يجرؤ غريب على أن يقتحم عرينه ، ويتنافس في عقر داره ، وهبط إلى المقهى ، وتناول كرسيا ، وجلس بحيث استقبال باب البيت الذى نزله المنافسات الجديرات ، فقد عزم على أن يرقب الدار .

ومر أسبوع ، وخفت الرجل في دار المعلم ، وانحرف طلاب الشهوات إلى الناحية الأخرى ، فإن لكل جديد زهوة ، فلم يستطع المعلم أبو سريع صبرا ، فعزم على أن يستعين ببعض أعوانه ، ليتخلص من هذه المنافسة التى أضجرتها وأقلقتة ، وأن يعمل على أن يكسب تأييد الشيوخ واحترامهم ، فما

كان بمستطيع أن يفتح الشباب في هذا الأمر ، فإنه يفهمهم ويفهمونه .
وجلس المعلم أبو سريع في جلباب أسود عتيق ، وفي يده « الحاجة » ،
وهي هراوة غليظة ، إذا حملها كانت نذير شر ، فإنه لا يحملها إلا إذا عزم على
شجار ، ووقف خلفه اثنان من أعوانه ، في يد كل منهما عصا طويلة ، وكان
كلما وفد وافد ، ورأى المعلم في عدة القتال قال مستفهما :
— كفى الله الشر !

فكان يرد عليه بابتسامة ، يحاول أن توحى بالثقة والاطمئنان ، حتى إذا ما
اكتمل عقد معامليه اتجه إلى ركن كان يحتله رهط الشيوخ ، وتكلف الثورة
والغضب ، فسأله أحدهم :
— خيرا ؟

— لم يعد هناك خير .

— مالك ثائرا اليوم ؟

فقال المعلم في ثورة وغضب :

— لقد ترك لنا أهلنا هذا الحى طاهرا ، فوجب أن نحافظ على طهارته .
— إنه طاهر يا معلم .

— ياليت ، لقد دنسته نساء عاهرات ، وما كان في حينافسق ، وما ينبغي
أن يكون .

— وعلام عولت يا معلم .

— على ذلك هذا البيت الفاسد ، وإن كان نصيبى في السجون ، لقد عشت
شريفا ، ولا أحب إلا أن أعيش شريفا ، إلى رجل أغار من قميصى .
ولوح بعصاه ، وسار مرفوع الرأس ، متفخ الأوداج ، وخلفه عوناه .
فنظر الشيوخ إليه في إعجاب ، وغمغم أحدهم :

— رجل شريف .

فقال آخر :

— إنه أسد .

وهجم أبو سريع ومن معه على دار المنافسات ، وأعملوا عصيهم فيمن كانوا في الدار ، ففر الرجال ، ووعدت النساء بالرحيل ، وفي سكون الليل خرجت نسوة متسللات ، كما جئن متسللات ، وانصرف أبو سريع هادئ النفس ، مطمئن البال .

وفي صبيحة اليوم الثاني استيقظ المعلم أبو سريع بعد القيلولة ، فوجد أخته وزنوبة جالستين تتحدثان ، فانشرح صدره ، وهزه السرور ، فقد سقط الطير في القفص ، ونظر من النافذة إلى البيت المواجه ، وتطلع إلى شقة المنافسات ، فألفاها قاعا صفصفا ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة فوز ونصر ، فقد أصبح الحى له وحده ، لا ينافسه فيه منافس ، وفي داره تحفة جديدة ، يرجو أن تدر عليه الخير الكثير .

وخرج إلى المقهى متהלلاً الوجه ، راضى النفس ، وأقبل الشيوخ يصافحونه في حماسة ، والتفت إليه أحدهم وقال :

— عيني باردة عليك ، وجهك مضىء اليوم .

فقال المعلم أبو سريع وأصابه تعبث بشاربه في خيلاء :

— ما أحلى الشرف يا أبا تحليل ؟؟؟

رسالة حسارة

عزيزى خيرى :

هذه الرسالة ليست بنت اليوم ، روادتني فكرة الكتابة إليك أول مرة منذ شهور ، وأخذت تراودني كل ليلة منذ ذلك اليوم . كنت أدخل غرفتي ، وأغلق على بابي ، وأتبعاً للكتابة ، ولكنني كنت كلما جلست إلى القرطاس لأبثك لواعج نفسي أحسست خجلي حائلاً بيني وبين تسطير ما أحس ، فما كان لفتاة أن تبعث إلى شاب لا يعرف عنها شيئاً — وإن كانت تعرف عنه كل شيء — برسالة تشكو له فيها ما تقاسى من وجد .

ظل ذلك الخجل يقهرني حتى ليلتي هذه ، فقد دخلت إلى فراشي بعد أن اطمأنتت إلى عودتك من مقهاك ، وحاولت النوم ، ولكنني أرقنت ، ولم تغمض لي عين ، وتقلبتي في فراشي كأنما أتقلب على حجر ، فقد تأمر على خيالي ، فأحضر صورتك أمام عيني في شكول تؤجج النار في الفؤاد ، فطفت إحساسات الحب ، فملأت صدري ، حتى كادت تكتم أنفاسي ، فلم أجد لها منفساً إلا أن أقوم في هجعة الليل لأسكب شواظ القلب على رسالة أبعث بها إليك ، لعل نارى تبرد ، وقلبي الذي أضناني يهدأ ، والخيال الشارد السارح يثوب ، ويطوقني ملاك النوم بجناحيه ، فيدثر نفسي القلقة الحائرة هدوء ، وإن كان هدوءاً إلى حين .

رأيتك يا حبيبى أول مرة بعد ظهر يوم لن أنساه ، كنت ذاهبة إلى

طبيب الأسنان ، وكنت عائدا من عملك ، فما وقعت عيناي عليك حتى
تملكنى إحساس غريب ، شعرت بروحى تهفو إليك ، وانطلقت فى طريقى ،
وما ابتعدت خطوات حتى تلفت خلفى لأمتع العين برؤيتك .

وانتهت زيارتى للطبيب ، وعدت إلى البيت ، فجلست فى الشرفة
أستروح نسيم الأصيل ، وفجأة شعرت كأن جناح حمامة يخفق فى جوفى ،
كان قلبى يضطرب ، رأيتك عيناى وأنت مقبل من دارك ، منطلق إلى
الميدان ، فقفز قلبى فى سرور الولهان .

تبعتك بعينى مضطربة النفس ، حتى إذا اختفيت عن ناظرى ظل قلبى
يتبعك ، وانقضى النهار وأقبل المساء وأنا أفكر فىك ، وجاء أوان مغادرتى
الشرفة ، وتحركت لأدخل إلى غرفتى ، ولكن لم يطاوعنى قلبى ، لم يشأ أن
يفادر الشرفة قبل أن يطمئن إلى أوبتك . مرت من الليل ساعات وأنا جالسة
أرصد الطريق ، فإذا لمحت شبحا قادم حسبته أنت ، فتسرى فى بدنى رهبة
لذيذة ، وطال مكثى وما تسرب الملل إلى ، فقد كنت مقعمة بالنشوة ، لأنى
أرغب عودة رجل خفق له القلب .

علمنى حبك يا حبيبى أن الظلام مرتع خصب للخيال . راحت الأوهام
تنمو فى فكرى ، وتزدهر فى نفسى ، فتنتشى روحى ، ويرضى فؤادى .
وفجأة اشتد وجيب قلبى ، رآك فى حلقة الليل قبل أن تميزك عيناى ، وبقيت
أتبعك بنظرى حتى اختفيت ثانية فى الظلام ، فغادرت الشرفة وأنا أحس خفة
وانشراحا .

صارت الشرفة مأوى ، فى الصباح أهرع إليها لاستجلاء طلعتك ، وفى
الظهر أنتظر عودتك ، وعند الأصيل أرقب خروجك إلى مقهاك ، أما الليل
فكان مسرح الأحلام .

فكرت مرة في أن أتبعك ، لعل أستطيع أن ألفت نظرك إلى ، فارتديت
ثيابي قبل موعد خروجك عند الأصيل ، ووقفت في شرفتي قلقة ، تتجاذبنى
خواطر ترجح بين الإقدام والإحجام : ولحتك قادما ، فاندحر ترددي ،
ووجدت نفسي أهول ، وأنطلق كأنما كنت واقعة تحت تأثير منسوم
مغناطيسي ، وهبطت الدرج قفزا ، ووصلت إلى الطريق وقلبي في حيرته
واضطرابه ، وأحسست رهبة تسرى من قمة رأسي إلى أطراف أصابع
قدمي ، مشيت في بدني رعدة ، وتدفق الدم حارا إلى وجهي ، وتلفت بعيون
زائغة ، فألفيتك تسير أمامي ، فأغلذت سيري ، حتى إذا اقتربت منك
ضيققت من خطوي ، كأن قوة خفية أرغمتنى . وتبعتك على البعد ، كأنما
كنت منجذبة إليك ، حتى إذا لحتك تدخل مفهاك وقفت أديم النظر وأنا سعيدة ،
ثم عدت راضية من حيث جئت .

في يوم تقابلنا وجهها لوجه ، ولا أكذبك القول فأقول إنها مجرد مصادفة ،
فما أحب وأنا أعترف لك بحبي ، أن أكذب عليك ، كانت هذه المقابلة ثمرة
تدبير فكرت فيه ليالي وأياما ، يا طالما قابلتك في خيالي وابتسمت لك ، ثم
حدثتك وحدثني ، ونعمنا باللقاء ، ولكن ما إن قابلتك في الحياة ، وهممت
أن أبتسم لك كما فعلت في الخيال ، حتى جمد وجهي ، وعز على الابتسام . فكرت
في أن أدعوك ، أن أهتف باسمك ، وفتحت فمي وأطبقتة ، ولم ينبعث منه
صوت ، تحطمت الألفاظ على شفتي ، فعدت إلى البيت حائرة على نفسي ،
وثار قلبي ، فأخذ يخزني وخزا ما أفساه .

ومرت على ليلة ليلاء ، ليلة لن أنساها ما حييت ، جلست في الشرفة
أرقب عودتك ، وكان الظلام يرخي ستوره السود ، والسكون يسيطر على
المكان ، فراح خيالي يرتع حرا طليفا ، ينعم بأعذب الروى وألطف

التخيلات . و مر الوقت ، و وافي ميعاد أوبتك ، فأرهفت منى الحواس ،
وجعلت أتفرس أشباح الغادين ، لأطمئن إلى عودتك ، وانقضت ساعة ، ثم
ساعة ولم تقع عليك عيناى ، فتحرك قلقي ، وثارَت نفسي ، واستولى على
ضيق ، وزاد فى كربي أن هجس فى صدرى هاجس جرح روحى ، راح
يوسوس لى أنك تنعم اللحظة بحبيبة الفؤاد إذ كنت أنتظرك وقد اندلع فى جوفى
نار .

تحركت عقارب غيرتى ، وراحت تلسعنى لسعا ، وأحسست جمره نار
فى حلقي ، وعبرات تخنقنى ، وحنقا يلفنى ، وتمتيت بكل جوارحى أن
تعود ، لأنجو من ذلك العذاب ، ولكن الوقت راح يمر ولم تلمحك عيناى ،
فمخطر لى أن أنسل فى هدوء الليل إلى مقهاك ، أنقب عنك حتى أستريح من
حواسى التى تأمرت على ، ولكنى جيت عن تنفيذ ذلك الخاطر الذى طفق
يلح على ، يؤازره القلب الواله الحيران .

وبرد الجو ، وصفرت الرياح ، فمشيت فى جسدى قشعريرة لم ألتفت
إليها ، كنت شاردة فى تيه الخيال ، غارقة فى بحور الأفكار ، وأشرف الليل على
الانقضاء وأنا فى مكائى ، وأخيرا انسلت من الشرفة محطمة النفس مهيضة
الجناح .

وأشرقت الشمس ، وتسلفت إلى غرفتى ، وما إن فتحت عيني ورأيت
الضياء ، حتى شعرت بخوف يسرى فى صدرى ، خشيت أن يكون ميعاد
خروجك إلى عملك قد انقضى ، وكتب على ألا تكتمل عيناى ذلك اليوم
برؤيتك ، ولكنى شعرت بثقل فى جسمى عاقنى عن النهوض ، فتحسست
جبهتى يدي ، فألفيتها تكاد تنصهر ، لقد سقطت فريسة للحمى ، وما
فطنت إلى هذه الحقيقة حتى ارتجفت ، لم أرتجف لمرضى ، بل خشية أن

أهذى باسمك ، فيتبدى مكنون نفسى ، ويفضح سر قلبى الذى ائتمنت عليه
ضلوعى ، وطويت عليه صدرى .

ولازمت الفراش ، وراحت الدقائق واللحظات تمر وئيدة بغيبضة ،
وعادنى طيفك فى ساعات صحوى ، فأنعش روحى ، وأرضى قواذى ، وفى
يوم من أيام مرضى لججت فى التفكير فىك . وأخذت أناجيك ، حتى غلبنى
النوم فرحت فى سبات ، وفيما أنا غارقة فى نومى رأيت كأنما أنا وأنت فى
حديقة رائعة ، تفتحت أزهارها ، وغنت أطيافها ، نخطر خفافا على زرع
أخضر بهيج ، وقد انسدل شعرى على كتفى ، فأخذ النسيم يداعبه ، وأنت
ترنو إلى فى عطف .

ولحنا نهرا فهرولنا إليه مسرورين ، حتى إذا بلغناه ألفيناه من لجين ،
ووجدنا زورقا رائعا زين بالزمرد والياقوت ، انثر فيه الورد والياسمين ،
فركبنا فيه ، وأخذنا نجذف فى البحر العجيب ، وقد سرى صوت سماوى
أخذ يغنى بأعذب الألحان ، فعبث بقلبيننا ، فملأنا نشوة ، وفاضت
سعادتنا ، فالتصق رأسانا .

والتفت إلّى وفى عينيك حب ، ولففت ذراعيك حولى ، وضممتنى
إليك ، ولم أستطع أن أحتمل السعادة التى كنت فيها ، فاستيقظت خافقة
القلب ، مرهفة الإحساس ، وما إن هدأت مشاعرى حتى أخذت أفكر فى
حلمى اللطيف ، منشرحة الصدر ، راضية النفس ، قريبة العين .

وكأنما كان ذلك الحلم الحبيب البلم الشافى لمرضى ، فما أشرق شمس
النهار حتى أبللت مما كنت أقاسى ، ولكنى لم أبرأ من حبى ، فما ملكت قواى
حتى هرعت إلى الشرفة خافقة الفؤاد ، أرقبك فى الغدو والآصال ، وطغى
حبى وفاض فلم يعد يسعه جوفى ، ولم يعد يقنع بسيحات الخيال ، وطمع فى أن

يغمر الحبيب بالإحساسات الفوارة .

إئننى أكتب إليك وليس لى على نفسى سلطان ، قهرنى حبي ، وتمرد على
قلبي ، واستبدى وأرهقنى ، حتى أرغمنى على أن أكتب إليك ، فنزلت على
حكمة مقهورة ، وإن كان فى ذلك طعنة لكبريائى نجلاء .

القلم يرتجف بين أصابعى ، وقلبي يطفو ويغوص ، وعلى على كلمات ،
والعرق البارد ينبثق من جبينى ، ليتنى أستطيع أن أعصى ما يأمر به قلبي ،
ولكن هيات ، فها هى ذى يذى تسطر ما يمليه القواد .

سأنتظرك عند محطة الترام فى الميدان ، فى الساعة الخامسة من مساء يوم
الخميس ، ولن أذكر لك عنوانى ، حتى لا تجيب بأنك لا تستطيع أن توافينى
فى ذلك الميعاد ، فإنى أريد أن أحيى الأيام الباقية وأنا سعيدة ، يداعينى أمل
لقياك . وإلى ذلك اليوم المرتقب أتمنى لك ولنفسى أسعد الأحلام .

« فتحة »

وطوى خيرى الرسالة وهو نشوان ، يحس خدرا الذيدا ، فما دار بخلدّه أن
هناك من تحبه هذا الحب العارم الجبار . كانت حياته مجدبة قبل أن تصل إليه هذه
الرسالة الحارة . فما كان ممن يتفيعون ظلال واحة الخيال ، كان يضرب فى
صحراء الحياة محدود الآمال ، ولكن ما إن قرأ هذه الرسالة حتى شرد بصره ،
وفتحت فى رأسه أبواب التصورات .

راح يفكر فى فتحة ومن تكون ، وما شكلها ، وتفتق ذهنه فراح يجلب
له ممثلات السينما الحسان ، فيستعير لفتحة من هذه قوامها ، ومن تلك
نضارتها ، ومن ثلاثة عينيها النجلارين ، ومن رابعة صدرها القاتن الرائع ،
واسترسل فى تخيلاته حتى تجسعت فتحة فى ذهنه نموذجاً للحسن والجمال .
وخرج إلى الطريق ، وسار يتلفت يمينا ويسارا ، وفوق وتحت ، يتفرس فى

الشرفات ، فلمح أكثر من فتاة جذابة ، تصلح أن تكون صاحبة الرسالة النابضة بالحب والحياة ، طفق يوزع ابتساماته هنا وهناك ، لعل ابتسامة منها تكون من نصيب فتحة ، فتزل السكينة بالقلب الوهان .

وخطر له أن يحى من في الشرفات الممتدة على جانبي الطريق بكلمات يديه ، كما يفعل الزعماء ، والأبطال ، فابتسم لذلك الخاطر الساخر الذي اقتحم عليه خياله في هذه اللحظة الحاسمة من لحظات حياته ، لحظة التنقيب عن الجميلة التي فتحت له قلبها قبل أن يطرقه ، ووهبت له السعادة والحب .

انطلق وهو يحس كأنما بعث خلقا جديدا ، إنه محبوب ، وما أسعد أن يكون المرء محبوبا ، وقدفت في عروقه دماء حارة ما أحس حرارتها قبل يومه ، وسرى في صدره أمل حلو أنعشه ، وأحيا نفسه من الموت .

ولمح في شرفة من الشرفات ، فتاة جذابة ، ممشوقة القد ، دقيقة الخصر ، تهدل شعرها الكستنائي المتموج ، فأخفى في دلال جزءا من وجهها الحلوى الناصع البياض ، زادها حسنا ، وبدت ذراعاها البضتان كأنما خرطتا من الشمع ، خفق قلبه لجمالها الأسر ، الذي يلعب بالقلوب ، ويعبث بالرجال .

وقف يرنو إليها مذهولا ، وبقي مدة ، ثم انتبه إلى نفسه ، وراح يتلفت حوله ، فرأى رجلا مسنا أبيض الشعر ضئيل الجسم ، محدودب الظهر ، جذب حسنها عينيها ، فراح يتفرس في جمالها ، ويتلفت نحوها كلما خطا في الطريق خطوات ، فابتسم خيري مزهوا ، فجمال من أحبته سبى الرجل الفاني ، وجعله يتلفت وفي عينيها إعجاب ، كشاب فوار الحواس .

وأشرق وجهه بابتسامة عذبة ، ومرريده على شعره تحية ، فخيل إليه أنها ابتسمت له ، ومدت يدها تصلح شعرها المتهدل ، فانشرح صدره ، وصدق

ما حزره قلبه ، إنها هى بعينها ، فتحية التى بعثت إليه برسالتها الحارة ، ترد عليه تحيته بتحية مثلها .

وسار فى طريقه وهو نشوان ، سره أنه اهتدى إلى فتحية ، ووجدها نابضة بالحياة كرسالتها ، ووسع فى خطاه ، فقد دب فيه نشاط غريب ، وما إن بلغ الميدان حتى أحس رغبة فى أن يعود ويتطلع إلى فتحية ، فدار على عقبه ، وقفل عائداً من حيث جاء ، فلما لاح له الشرفة ظلت عيناه متعلقتين بها ، وانداح فى صدره خدر للذيد .

ودنا من الشرفة ، فخفف من خطوه ، ورفع رأسه ، وراح ينقل فيها عينيه ، وقد تحرك فى جوفه اضطراب شهى . كانت شفتاها ممتلئتين مغريتين ، ووجنتاهما فى لون الورد ، وعيناها آسرتين ساحرتين ، فانبعث من عينيه بريق أخاذ ، وسار الهوينى وهو يتلفت ، حتى انحفت الشرفة عنه . وعاد إلى داره ، فاسترنحى فى مقعد وثير ، وأخرج الرسالة ونشرها ، وراح يعيد تلاوتها ، فغمرته نشوة أعظم من النشوة التى غمرته أول مرة ، إنه يرى الآن بعين خياله فتحية : بشعرها الكستنائى المتموج ، ووجهها الخلو الصبيح ، توجه إليه خطابها فتتشله من دنياه المحدودة ، لترفعه إلى عوالم رحية من السعادة والهناء .

وضع الرسالة على ركبته ، وأطلق لخياله العنان ، قرأى نفسه وفتحية فى تلك الحديقة البديعة التى رأتها فى منامها ، وهما يهروان إلى النهر الرقراق ، ثم يتجهان إلى الزورق الرائع . ويركبان فيه ، وينطلقان ليسبحا فى عالم السعادة ، وقد أسند رأسه إلى رأسها ، واسترسل فى تخیلاته ، فألقى نفسه يضمها إلى صدره فى وله ، ويمطرها بقبلاته الحارة ، فأحس وهو فى مقعده نشوة عارمة .

وتبدل خيري ، دب فيه نشاط بعد خمول ، واستيقظت حواسه بعد
سبات ، وسبح خياله ، فهم في سماءات التصورات ، بعد أن كان مشدودا
إلى الأرض ، وصار يعتنى بهندامه ، يقف أمام المرأة سويعات ، وما كان
يرتدى جاكته إلا وهو مابط في الدرج لا يلوى على شيء .

وراح يحيا على الأمل ، يعد الدقائق والساعات ، يرصد يوم الخميس في
قلق ورجاء ، وما انبلج صبح ذلك اليوم الموعود ، حتى فتح صوان ملابسه ،
وأخذ يتفرس في حلله ، يقلب هذه ، ويفحص عن تلك ، حتى اطمأن إلى
حلة رمادية جذابة فتناولها ، ونادى الخادم الصغيرة ، وأمرها أن تذهب بها إلى
الكواء .

واتجه إلى حيث يضع أحذيته ، وانتقى منها حذاء وضعه في عناية بالقرب
من المشجب ، ثم ارتدى ملابسه وخرج إلى الطريق ، وسار نشيطا ، حتى إذا
بلغ الشرفة لم يجد بها أحدا ، فانقبض ، وتريث قليلا لعلها تقبل فيتسم لها ، مؤكدا
أنه سينتظرها في الموعد المضروب ، ولكن مرت لحظات دون أن تفد إلى
شرفتها ، فانطلق وهو يحس ضيقا ، لكن سرعان ما انقشع ضيقه ، فقد خطر
له أنها تتأهب للقاء الذي يهفو إليه قلبها .

وذهب إلى عمله وهو جدلان ، راح يداعب زملاءه طلق الوجه ، ولم
يستطع أن يطوى صدره على سره ، فأخذ يقص عليهم قصة الفتاة الفتاة التي
أحبته ، وبعثت إليه تلمس منه أن يوافيها اليوم ، لتطقي لهيب الغرام ، وأرضى
ذلك الحديث غروره ، فجعل يحدثهم عما سيفعله بعد اللقاء .

وانقضى ميعاد العمل في الديوان ، فأسرع بالعودة وهو فرحان ، وما بلغ
أول الطريق الذي يقطن فيه ، حتى سرى في جوفه قلق لذيذ ، ومد بصره إلى
شرفتها فلمحها ، فرقص قلبه سرورا ، وأغذ السير ، حتى إذا أصبح تحت

شرفتها رفع رأسه ، واقتر ثغره عن ابتسامة ، فخيّل إليه أنها تبادله الابتسام ، فسار إلى بيته وهو هيمان .

وجلس إلى طعامه ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان شارد اللب ، مشغولاً بما يجري في رأسه من رؤى وتخيّلات ، فنهض وغادر السفرة ، وذهب إلى مقعد طويل تمدد فيه ، وأرّخى لخياله العنان .

راح يفكر فيما سيفعله عند اللقاء ، فرأى أن يذهب إلى مصر الجديدة ، ثم يستقلا سيارة إلى كازينو مونترو الضارب في صحراء المأظّة ، لينعما بالهدوء وهواء تلك المنطقة الجاف ، واستراح إلى تلك الفكرة ، ولكن سرعان ما قفزت إلى رأسه فكرة أخرى ، إنها رأت في منامها أنهما بذرعان حديقة بديعة ثم انطلقا إلى زورق راح يتهادى بهما في نهر صاف رقيق ، فلماذا لا يحقق لها في الحقيقة ما رآته في المنام ؟

واطمأن إلى ذلك الخاطر الجديد ، فقرر رأيه على أن يذهب إلى قصر النيل ، بجوسان خلال حدائق الجزيرة كفرأشتين طليقتين ، ثم يركبان زورقا من الزوارق المنتشرة هناك ، ينظر بهما في النيل ، عند الأصيل ، فيمتعان الطرف بمشاهدة الغروب القاتن ، الذي يملأ النفوس بالجلال .

وأخذ الوقت يمر وهو غارق في بحور النشوة المستمدة من الخيال ، ودقت ساعة الحائط الرابعة ، فأحس رنينها في نفسه ، ارتفعت دقات قلبه ، وأرهفت مشاعره ، وزحفت إلى صدره رهبة خفيفة .

وقام يتأهب للانطلاق للقاء ، فذهب إلى المرأة ، وقرب وجهه ، وراح يتفرس في صقالها ، فألقى شعرة نابتة في خده ، فجذبها بالملقاط ، ثم أخذ يرجل شعره اللامع ، وارتدى قميصاً أبيض هههافاً ، وتناول رباط عنق جذاباً ، راح يعقده في حرص ، ومد يده إلى العقدة لتحسسها في رفق ، ليزيل



ثنية خفيفة في طرفها .

وتناول حلتها الرمادية في حرص بالغ ، ثم ارتداها ، وأخذ يصلح من هندامه ، ويمد يده إلى المنديل المتدلى من جيبه ، يرفعه قليلا ، ثم يخفضه قليلا ، ثم يعود ليرفعه ، حتى إذا استراح إلى وضعه تقهقر خطوة ، وجعل يفحص عن صورته في المرآة .

وأخذت اللحظات تمر في ببطء ، فطفق يذرع الغرفة صاعدا هابطا ، وقد سيطر عليه اضطراب مشوب بلذة ونشوة ، وخطر له أن يقرأ رسالتها ، فمد يده ، وأخرجها وراح يقرأها خافق القلب ، مرهف الحواس .

ونظر إلى الساعة ، فألفاها الرابعة والثلاث ، فتعلم في ضيق ، واتجه إلى الشرفة ، ووقف يستنشق الهواء ، ولكنه لم يطق أن يبقى فيها طويلا ، فدخل يقطع الحجرات جيئة وذهابا في حيرة واضطراب . واستقر رأيه أخيرا على مغادرة الدار ، فراح يهبط في الدرج متمهلا ، حتى يحافظ على رونق حلتها . وسار يتهادى ، حتى إذا بلغ شرفها زاد وجيب قواده ، ورفع عينيه فلم يجدها ، فسرت الطمأنينة في صدره ، إنها الآن أمام المرآة تتأهب للقياء ، آه لو تدرى لأسرعت بالهبوط ، لينعما بأسعد الأوقات ! وبلغ الميدان ، فوقف عند محطة الترام ، يمد بصره إلى الطريق الذي ستقبل منه فتحية بقامتها المشوقة ، ووجهها الحلو الصبيح ، الذي يزينه عينا صافيتان رائعتان ، وفم في لون العقيق ، يغرى باللثم والعناق .

ونظر في ساعته ، فارتفع نبضه ، وزاد خفقان قلبه ، وسرى الدم حارا في عروقه . إن هي إلا عشر دقائق ثم تقبل فتحية بذاتها اللطيفة . يا طالما حادثها في الخيال أرق حديث ، وإن هي إلا لحظات حتى يناجيها في الواقع الملموس ، الذي يفوق سحره سحر الخيال أعذب مناجاة ، وراح يغدو ويروح على

الطوار ، وعيناه ترقبان منفذ الطريق ، الذى ستقبل منه الفتنة والإغراء .
وروقت عيابه وهو يتلفت على فتاة مقبلة نحوه ، إنها تبسم له وإن ابتسامتها
تتسع وتتسع ، فرمقها فى دهش ، فما كان يحسب أن تبلغ الجرأة بفتاة أن
تغازل شابا مثل هذه المغازلة المفضوحة ، ودنت منه وهمست :
— لقاء سعيد يا خيرى بك .

ومدت يدها تصافحه ، فأحس رأسه يدور ، وقلبه يغوص فى قدميه ،
وضيقا ينتشر فى صدره ، إنها فتاة سمراء ، مفلفة الشعر ، واسعة القم ،
جاحظة العينين ، أنفها أقرب لأنوف الزوج ، وقد انتشر فى وجهها بقع
سوداء زادت فى دمايتها .

وهمس فى صوت مفزوع :

— فتحية هائم ١٩

فانفرج فمها الواسع عن أسنانها الصفراء ، فوقف مذهولا لا يدري ما
يفعل ، بعد أن انجلت لعينيه الحقيقة البشعة ، ثارت إحساساته وامتزجت ،
حتى كاد يتعطل تفكيره ، وأقبل الترام ، فصعدت فتحية مسرعة ، وصعد
خلفها دون أن يدري .

وأخيرا أفاق من المفاجأة البغيضة ، والترام يجد فى سيره وقفزت إلى رأسه
فكرة ، فتبهر مسرعا ، وقفز من الترام ، وراح يعدو برهة وهو من الخوف
يتلفت ١

غشيرة القصير

وقف أمام المرأة يصلح من هندامه وهو شارد اللب ، فقد كان يحاول أن يمسك بأطراف أفكاره التي انتشرت في ذهنه كأبخرة لم تبلور ، لينسج منها قصة ، وخطر له أن يستعير ملامحه لبطل روايته ، فتفرس في صورته المنعكسة على صفحة المرأة ، وأدام النظر إلى وجهه الأبيض المستدير وعينييه الواسعتين ، وحاجبيه اللذين كانا يبدوان كأنما قد رسما بقلم من الفحم ، وشفتيه الرقيقتين ، كانت صورته مقبولة ، وعضلاته مفتولة وعلى الرغم من ذلك لم يرض عن صورته يوما ، فقصر قامته حال بينه وبين الرضا ، فكان يشعر في قرارة نفسه بشيء من الهوان ، وإن حاول جاهدا ألا يبدى إحساسه بهذا النقص الذي يضيقه .

وأقبلت زوجته ، فلمحها في المرأة في ثوب بديع أبرز جمال تكوينها ، فرفع رأسه قليلا ليرنو إلى وجهها الخلو الدقيق ، فقد كانت أطول منه قامة ، فرأى خصلة من شعرها قد تهدلت على وجهها ، فزادت من فتنتها ، ولحها وهي تمد يدها لتعيد الخصلة إلى مكانها ، وتحرك رأسها الصغير حركه لطيفة ، فراح يرقبها وقد ارتسمت على شفتيه طلائع ابتسامة . كانت مصدر إلهامه ، ومنبع وحيه ، ولطالما أوحى إليه بأفكار .. فجعلها الرائع كان ينبت في صدره وسوسات ، فكان يغذى وساوسه بخياله ، حتى ترعرع في ذهنه ، وتستوى قصة .

وارتديا ثيابهما ، وخرجا معا إلى الطريق ، فراحت تخطر كحلهم رائح

هادئ ، وسار إلى جوارها وقد نفخ صدره ، وزها كالطاووس ، لا تيتها
بالتحفة النادرة التي تشاركه في حياته بل تحديا للغادين والرائحين ، فقد كان
يتلفت يمنة ويسرة يرقب عيون الناس ، فإذا رأى رجلا يصوب إلى امرأته
نظره السفهيه ، رماه بنظرة نائرة غاضبة عابسة فيرغمه على أن يغمض من
بصره ، ويوسع من خطوه ، كان رنو الأبصار إلى زوجه يحنقه ويضايقه وقد
يسر هذا الحنق وهذه المضايقة قصر قامته وتخياله الخصب .

انطلقا وهو منتفش كالديك ، واقتريا من فاكهي جوال قارع الطول ،
يملاً وجهه شارب ضخم قل ورفع ، حتى كاد طرفاه المديان يمسان الأنف
المفلطح الكبير ، فرقع بصره إليه ، فألفاه يتطلع إلى زوجه في فضول بغيض .
يعينين براقنتين ، فشعر بحنق شديد ، ورماه بنظرة شرر غاضبة ، فلم يحفل
به الرجل ، ولم تحتلج عيناه خلجة واحدة ، بل ظلتا مصوبتين إلى الجمال
اللطيف الأسر للقلوب والأبصار ، فشعر الزوج بعضلات وجهه تتقلص
وبمرجل غضبه يفور ، ولكنه كظم غيظه وانطلق ، وما ابتعد عن الرجل
خطوات حتى صك أذنيه صوته المنغم ينادى :
— أنا في حبك ظلموني يا حلو .

فتدفق الدم حاراً إلى رأس الزوج ، وشعر بشواظ من نار تسرى في
عروقه ، وأحس عقدة من الحنق تعقد في جوفه ، فتضيق من صدره ،
وانتفض من الغيظ ووقف وهو يلتقط أنفاسه في ثورة وجهه ، وهم بأن يدور
على عقبيه ، ليعود لذلك المتغزل الوقح ، فيحطم له وجهه ، ولكن زوجته
فطنت إلى ما يدور في رأسه ، فمدت يدها وجذبتة بخفة من ذراعه ، فرقع
وجهه إليها فرآها ترنو إليه عاتبة ، فكبح جماح نفسه ، وكبت عواطفه الثائرة
وانطلق ناقحاً صدره ، يتلفت يمنة ويسرة ، منفوشاً كالديك .

كانا قد خرجا لزيارة أخت زوجته ، فلما اقتربا من دارها التفت إلى زوجته وقال :

— لن أستطيع أن أمكث معك طويلا ، عندي موعد هام .

كانت زوجته تعلم شدة غيرة ، ولطالما أضنتها هذه الغيرة ، فقالت لتسكن في صدره الطمأنينة :

— انتظري لتعود معا .

— لا . يمكنك أن تعودي وحدك .

ودخلا على الأخت ، فألفياها وحيدة ، فأنشراح صدر القصير ، وطفق يمد بصره ، ويدور بعينه في المكان ، فلم يلمح أحدا فشعر بطمأنينة ، وانتشت روحه ، ولكن لم تدم طمأنينته طويلا ، فسرعان ما غاضت وانتشر في صدره قلق لما أقبل عديله وصافحه ، ثم اتجه إلى زوجته بصافحها ، وبيالغ في الترحيب بها .

كان عديله أسمر اللون ، عادي الملامح ، ولكنه كان محدثا لبقا ، وكان طويلا ، فكان هذا من أسباب نكد القصير ، وكان يضايقه لباقة في الحديث ، فلو أنه كان عيبا لما أنصتت زوجته إليه ، ولما انشרכת لما يرويه من أحاديث . جلس صاحب الدار وهو يرحب بها ، ثم أخذ يروي قصة وقعت له في أسلوبه الفكه ، فضحكت الأختان ، فشعر القصير بيد قوية تهصر قلبه ، وبطعم الصاب من فيه ، فتملل في كرسيه ، فقالت زوجته :

— لن نستطيع أن نمكث طويلا .

فقالت أختها :

— ولماذا ؟

— حامد عنده موعد هام .

— يذهب إلى مواعده وابقى معنا .

وقال صاحب الدار مجاملا :

— وسأوصلك عند عودتك إلى دارك .

فتحركات عقارب الغيرة في صدر حامد ، وجعلت تلسعه . ولم يطاوعه قلبه الغيور أن يترك زوجته لرجل غريب وإن كان عديله ، فقال وهو يتسم ابتسامة كادت تفضح ما يكنه صدره .

— أوه تذكرت .

فقالت زوجته باهتمام :

— ماذا ؟

— الموعد غدا لا اليوم .

واستأنفوا أحاديثهم ، وشرد ذهن حامد ، فقد كان يفكر فيما كان المتوقع حدوثه لو انصرف وترك زوجته لعديله . رآهما في الخيال سائرين جنبا إلى جنب ، هي بقوامها المشوق ، وهو بقامته المديدة ، وما كان يستطيع أن يتصوره صامتا ، فرآه يتحدث إليها متفكها ، ويتودد إليها في ظرف ، وهي تنصت إليه جذلانة ، كما تنصت إليه الآن . واستسلم لخياله ، وتها لينسج ما يوحى به خياله المريض ، ولكن ضحكات رنت في أذنيه ، قطعت عليه حبل تفكيره ، فانتبه واغتصب ابتسامة ، ليوهم الآخرين أنه يشاركهم حديثهم ومرحهم .

ولم تدم انتباهته طويلا ، فسرعان ما شرد ذهنه ثانية ، وجعل يجتر حوادث قصة كتبها ، كانت تشبه ما يجول في ذهنه الساعة ، ولم يفتن من قبل إلى أنها تترجم عن إحساسات اللحظة ، لعل نفس الإحساسات التي يحسها الآن ، بلزت في صدره دون أن يدري من أول يوم رأى فيه عديله ، ثم ترعرعت هذه الإحساسات فحسب أنها من وحى خياله ، فكتبها دون أن يفتن ، إلى أنه

كان يترجم عن مخاوفه ووساوسه .

كانت القصة تدور حول شاب وزوجته ، وأختها التي تعيش معهما ، وفي يوم كشف الزوج أنه يحب أخت زوجته . فحاول أن يكتم إحساسه ، وأن يمد حبه ، ولكن حبه كان طاغيا جارفا ، فاجتاح الحوائث ، وهجر الزوج زوجته ، وفر مع من أحبها .

هنا ما حدث في القصة ، وهو ما يتصور الآن أنه سيحدث في يوم من الأيام ، لو أنه ترك كل شيء يجري في مجراء ، ولكنه لن يدع ذلك يحدث ، سافر بزوجته من طريق عديله ، ولن يسر لهما المقابلة بعد اليوم ، وما وصل تفكيره إلى ذلك حتى هب متصبيا ، وأشار برأسه لزوجته ، فنهضت وانصرفا ، وقد وطن العزم على أن يخاصم عديله ، ليحول بينه وبين زوجته ، وليدرك ما يهدده به خياله المريض من أحداث .

وراح يبدى نفورا مستترا من عديله . كلما قابلته ، ويسخر منه سخريات مغلقة بغلاف رقيق من النوق ، ويستفزه ويخز كبرياءه وخزا ، فتحلم الرجل ، واعتصم بالضبر الجميل ، ولكن ذلك الصبر أحرق حامدا ، فراح يفسره بأن الرجل يحتمل أذاه إرضاء لزوجته التي يهواها ، فكشف عن نفوره ، وهتك الغلاف الرقيق الذي كان يغلف به سخرياته ، وجعل يجرح كبرياء الرجل ، فحلت الجفوة بينهما ، وامتنعا عن التزاور ، فتنفس القصير في اطمئنان ، وهذا صدره المكروب ..

ولم يدم هذا الهدوء طويلا ، ولن يدوم ما دام حامد يشعر في أعماقه بالهوان لقصره ، ويدع نفسه مطية ذلولا لخياله المريض ، ففي يوم مرضت الزوجة ، وعادها أكثر من طبيب ، فقررُوا علاجا يحتاج إلى بعض العناية ، وفضلوا انتقالها إلى مستشفى تمرض فيه ، كانت الزوجة تفضل أن تعالج في بيتها ،

ولكن القصير راح يقنعها بأفضلية العلاج في المستشفى ، فاقنعت .
ودخلت الزوجة المستشفى ، وأقبل حامد في عصر ذلك اليوم ، الذي
دخلت فيه ليزورها ، وسار متبسط الوجه ، هادئ النفس ، حتى إذا ما دخل
غرفتها ، ورأى طبيبا شابا بجوارها وهى تبسم ، أو خيل إليه ذلك ، اكفهر
وجهه ، وتلبد بغيوم الغيظ ، وثارت نفسه ، وهب خياله يغذيه بشكوكه
قيضيه .

كان الطبيب معتدل القامة ، فيه وداعة محبة ، يرنو إلى زوجته بعينين
جذابتين ، وهو قابض على معصمها بحس نبضها ، فأحس غيرته تكساد
تعصف به ، وشعر بوخز في صدره ، ويحجاف في حلقه ، وتذكر أنه كتب
قصة حول طبيب كان يعالج فتاة ، فتوطدت الألفة بينهما على مر الأيام ، ثم
تطورت إلى حب عميق ، إن هذا الطبيب الشاب الوسيم ، سيقابل زوجته
الجميلة في الليل والنهار ، فما يدريه أن هذه المقابلات لن تتطور إلى ألفة ، ثم
إلى حب عميق ؟

وأطرق وقد نزل بصدره ضيق ، وخرج الطبيب ، وبقي وحده فلم
يحادث زوجته ليرفه عنها ، بل ظل فريسة طيعة لأفكاره ، التى أخذت تعذبه
وتضنيه ، وفيما هو فى إطراره ، أحس حركة عند الباب ، فرفع رأسه ، فرأى
عديله وزوجته ، فزاد امتعاضه واستياؤه وزاد كربه ، أما يكفيه الطبيب حتى
يأتيه العديل !

وانتزع ابتسامة كانت تقطر مقنا ، ومد يده يصافح الأيدي المملودة ،
ولم يبد ترحيبا ، وانطلق العديل إلى فراش المريضة ، وجلس على حافته ، فما
وجد مقعدا فى الحجرة ، وراح يحادثها متلفظا محاولا التخفيف عنها ، فكانت
تبسم فشعر حامد بسكين تمزق قلبه ، وبأظافر حادة تنهش صدره . ومر

الوقت ثقيلا بعلينا ، وأخيرا انصرف عديله وزوجته ، ولكن حامد لم يحس ارتياحا ، فالخطر جاثم هنا في هذا المستشفى ، يهدده في كل لحظة ، وفي كل ساعة .

وشرد ذهنه ، قرأى الطبيب بعين خياله بجوار زوجته ، يقامته المعتدلة ووجهه المشرق الصبيح ، فانقبض ، ورأى عديله يأتى في الصباح ، وفي المساء ، فباب المستشفى مفتوح ، فزاد انقباضه ، وأقبل الليل ، فتراكمت في مخيلته أفكاره السود ، فعزم على ألا يترك المستشفى ، قبل أن يأخذ زوجته معه ، فلن يدعها لعديله ، ولذلك الطبيب .

اقترب من زوجته وقال :

— سنعود إلى البيت الآن معا .

فبان الدهش في وجه الزوجة ، وقالت في عجب :

— ولماذا ؟

— لا أحتمل دخول البيت ، وأنت بعيدة عنه .

وحزرت زوجته ما يكابده من وساوس ، فهضت ترتدى ثيابها لتصرف معه ، فقد كانت تعلم أنه عنيد ، وانفلتا من المستشفى متسترين بالظلام ، وأسرع في سيره ، ليقر بزوجه من المصير الذى صور له خياله المريض !

قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ

رفع بصره عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه ، ونظر إلى ساعته ، فألفى أن
ميعاد ذهابه إلى الزمالك لزيارة خطيبته قد اقترب ، فوضع الكتاب المطبوع في
ورق أصفر على حافة مكتبه الأنيق ، ثم نهض ليتأهب للخروج .

إنه شاب متوسط القامة ، متناسب التقاطيع ، حلو القسمات له عينان
سوداوان ، وأنف دقيق ، وفم صغير يحرسه شارب خفيف ، تلوح عليه
البراعة والصفاء ، تلقى علومه في الجامعة ، والتحق عقب تخرجه بوزارة
الخارجية ، وعشق القراءة ، فما كان يغادر داره بعد عمله إلا لماما ، ولكنه ما
كان يقرأ الكتب الحديثة أو الكتب العربية القديمة ، بل كان يهوى الكتب
انصفراء التي تبحث في الجنة والنار ، والبعث والحساب ، وقصص الأنبياء
والأولياء ، وحكايات الصالحين والمتصرفين ، فيقبل عليها في شغف ولذة .
وكان إذا تعب من قراءته يجلس إلى أمه وأقاربه ، يصغى في اهتمام إلى
القصص العجيبة التي يرددونها عن الأقطاب ، الذين كشف عنهم الحجاب ،
أو يقص عليهم بعض النوادر التي قرأها في كتبه الحبيبة عن الأولياء ، الذين أتوا
في كل خطوة معجزات يعجز عنها الرسل !

كان متدينا ، وما كان يعرف دينه الصحيح ، فقد شب وهو يصغى إلى
البدع ، ويتلقى تعاليم دينه من أفواه العوام وأمه العجوز .
دخل غرفته ليرتدى ملابسه ، وفتح الصوان ، وأخرج حلة فاخرة ،

وقميصاً أبيض هفهافا ، وهم يتبدل ثيابه ، ولكنه تذكر أنه سيمضي الوقت بين المغرب والعشاء في بيت خطيبته ، فذهب يتوضأ حتى لا تفوته الصلاة . وليس ثيابه ، وخرج يتلفت ، فلما لمح سيارة قادمة أشار إليها ، ثم ركبها ، وانطلقت به وهو غارق في غمرة من النشوة . فقد احتلت فكره صورة خطيبته الشابة الجذابة . وأمام قصر فاخر من قصور الزمالك وقفت السيارة ، فهبط منها في عظمة ، وتقدم في ثبات ، وأقرأ اليواب النوى السلام ، وسار في الحديقة المتسقة تنسيقاً بديعاً بضع خطوات ، ثم راح يصعد في الدرج الرخامي الفاخر ، في تودة ووقار ، وقلبه يخفق في جوفه طرباً .

ودخل غرفة الاستقبال ، وغاص في مقعد وثير ، وراح يتلفت في إعجاب ، كان كل ما في المكان ينطق بالبذخ والروعة ، فالصور الزيتية التي تزين الحيطان تسلب الألباب ، والرياش الفاخر والطناقس الفخمة ، والأثاث الرائع ينتزع الإعجاب ، وسمع حركة ، فنظر صوب الباب ، فرأى خطيبته قادمة بقامتها المشوقة في ثوب وردي ، فبدت كملاك ، فخفق قلبه في صدره ، وانتصب واقفاً ، وأقبلت تخطر في خفة الغزال ، فلما دنت افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، أضاءت نفسه ، فابتسم في انشراح ، ولكنه لم يقدم يده ليصافحها ، كان يخشى أن تنقض وضوءه .

وقعدت وقعد ، وجعل يرفو إلى وجهها المليح وهو جذلان ، ويتحدث إليها وهو نشوان .

وأقبلت حماته ، فنهض وحيها في أدب ، ولم يصافحها ، وجلسوا يتحدثون ، ومر بعض الوقت ، وفر النهار ، ووفدت طلائع الليل ، ورأت الحماة أن تنهض ، منتظاهرة بقضاء حاجة ، لتخلي الجو للمخطيين ، فقامت مستأذنة ، وغادرت المكان .

ورنت الفتاة إليه بعينها الرائعتين ، وقد انبعث منهما بريق خاطف عبث
بأوتار قواده ، وألقت رأسها إلى الخلف فتهدل شعرها السبط الخالك السواد
كليلة ظلماء ، وزمت شفيتها المتلعتين ، فكانت فتنة ، إنها تهبأت للقبل ،
وباتت تنتظر أن يهوى بشفتيه على شفيتها ، وصدورها في علو وانخفاض ،
وغض من بصره ، وقال في صوت خافض :
— سجادة الصلاة من فضلك .

فنهضت وهي نحس خيبة ، وانطلقت متبرمة لتحضر ما طلب ، وما غابت
عن عينيه حتى أخذ يلتقط أنفاسه المكروبة ، ويجفف العرق المنبثق من جبينه ،
وعادت وفي يدها سجادة جديدة لم تستعمل من قبل ، زخرفت برسوم
وتماويل تشغل العابد عن صلاته ، فتناولها منها شاكرا وفرشها ، وخلع
حذاءه ، ووقف يصلي في خشوع .

وغاصت في مقعد وثير ، ووضعت ساقا على ساق ، فأنحسر ثوبها عن
الفتنة والإغراء ، وأخذت تنظر إليه وقد انتشرت في صدرها سحائب من
الضيق ، وجاءت الأم ، فلما ألفتة قائما يصلي لوت شفيتها السفلى ، وقعدت
بعد أن فطنت إلى أنه ليس هناك ما يدعوها إلى انتحال الأعذار لمغادرة المكان .
والتفت إلى اليمين وهو يسلم ، فوقعت عيناه على الساقين الجميلتين ،
فأسبل جفنيه ، ثم التفت في سرعة ناحية الشمال ، ونهض وهو يتسمم
بالاستغفار ، وقالت له الأم وهي تبسم :

— حرما ..

فقال في حرارة :

— جمعا إن شاء الله .

وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتذاكرون ما فعلوه استعدادا لليلة

الزفاف .

وعاد إلى داره وهو يحس خفة ، وفرحاً يلفه ، فقد جلت تلك الزيارة صدره ، ودخل فراشه ، وأطلق لخياله العنان . فأخذ يجتر ما حدث له في يومه ، رأى خطيبته وهي ترنو إليه بعينها الساحرتين في وله وهيام ، وقد ألقت رأسها إلى الخلف ، واستدارت للقبل فاضطرب ، واستيقظت مشاعره الكوامن ، وانبعث من جوفه صوت راح يؤنبه على أنه لم يضمها إليه ويقبلها قبلة حارة ، تترجم عما يكنه لها من حب ووجد ، إنها خطيبته وعما قليل تصبح زوجته ، فلماذا لا يداعبها مداعبة لطيفة ، ويناجيها مناجاة رقيقة ، ويهمس في أذنها بحديث عذب يدغدغ حواسها ، ويتعش فؤادها ؟

وظل ذلك الصوت يحرضه على أن يبدى لها حبه حتى استجاب له ، فعزم على أن يعتصرها إذا ذهب لزيارتها ، وأن يغمرها بقبلاته ، وأن يسمعها وجيب قلبه الوهان . وما كاد يستريح إلى ذلك العزم حتى هب خاطر جديد قوض ذلك العزم ، وجعله ككثيب من الرمال .

تذكر أن صديقاً من أصدقائه خطب فتاة ، فكانا يخرجان معا ، يقضيان شطرا من الليل في الملامى ودور اللهو ، يعبان كهوس الحب مترعات ، وفي لحظة من لحظات النشوة انطلقا في حبهما حتى النهاية ، فلم يفزعا ، فما كان يفصل بينهما وبين ليلة الزفاف إلا أيام ، وقبل الليلة الفاصلة وقعت حادثة ذهب ضحيتها الشاب ، خلفاً خطيبته للذل والعار .

واحتلت هذه الذكرى أقطار نفسه ، فمشت في يديه رعدة ، ولفه خوف ، ونكص عن عزمه ، وصمم في نفسه على ألا يرتكب ما قد يقوده إلى مثل تلك النهاية البغيضة ، فما يدرى ما تخبئه الأقدار ؟

وفي عصر يوم من الأيام ، دخل مكتبه ، وأخذ يقرأ « حكايات

الصالحين ، ، ومر الوقت وهو في مطالعته ، حتى بلغ حكاية استحوذت عليه ، فراح يقرؤها مرهف الحس مشغوفا ، وما أتمها حتى أغلق الكتاب وهو مغمم بالنشوة ، وغادر مكتبه ، وذهب ينقب عن أمه في غرف الدار .
ألهاها جالسة بالقرب من النافذة تستنشق الهواء ، وتقطع الوقت بالتطلع إلى الغادين والرائحين ، فدنا منها وقال في صوت خافت :

— هنيئا له .

فالتفتت أمه إليه ، وقالت في استفسار .

— من ؟

— شاب رأى ما أعد له في اللجنة قبل أن يموت .

فنظرت إليه أمه وفي عينيها اهتمام ، وقالت :

— كيف ؟

فقعد بالقرب منها ، وتبها للحديث ، ثم قال :

— خرج جيش من جيوش المسلمين يغزو أرض الروم . وكان في ذلك الجيش شاب يصوم النهار ويقوم الليل ، وجعل ذلك الجيش يتقدم في زحفه ، حتى حاصر حصنا من الحصون ، وفي ليلة من الليالي خرج ذلك الشاب فيمن خرج ، ليحرس القوم ، فظل يتعبد دون نصب أو كلال ، فلما طلع الفجر دنا منه رجل ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، إن رحمتها كانت خيرا لك » فقال له الشاب : « يا أخي ، إنما هي أنفاس تعد ، وعمر يقنى ، وأيام تنقضى ، وأنا رجل أرتقب الموت » . فجعل الرجل يقسم له أن يدخل الخيام ليسترخ ، فدخل ونام ، وفيما هو في نومه أتاه رجلان لم ير أحسن منهما ، فسلما عليه ، فرد عليهما السلام ، فقالا له : « أبشر فقد غفر ذنبك ، وشكر سعيك ، وقبل عملك ، واستجيب دعاؤك ، وعجلت لك البشري ،

فانطلق معنا حتى تريك ما أعد الله لك من نعيم .
فانطلق معهما ، وإذا بخيل لا تسبقها خيل ، كأنها البرق الخاطف ، أو
هبوب الريح ، فامتطوها .

وانطلقوا حتى انتهوا إلى مجالس ذات أسرة من ذهب وهاج ، مكللة
بالجواهر ، محفوفة بكراسى من اليواقيت ، وعلى كل سرير جارية أحسن من
القمر ، وفي وسطهن جارية أحلى من الحسن ، وأنضر من الورد ، كأنها
الشمس تحف بها الأقمار ، فقال الرجلان للشاب : « هذا منزلك ، وهؤلاء
أهلك ، وهنا مقيلك » ثم انصرفا عنه ، فوثبت الجوارى إليه بالترحيب ، ثم
حملته حتى أجلسه على السرير الأوسط ، إلى جانب الجارية اللميحة ، ثم قلن
له : « لقد طال انتظارها لك » .

وأخذ الشاب والجارية يتجاذبان أطراف الحديث ، قال الشاب : « أين
أنا ؟ » فقالت الجارية : « فى جنة المأوى ! » فقال : « ومن أنت ؟ »
فقالت : « زوجتك الخالدة » ، ومديده ليضمها إليه ، فردتها ردا رفيقا ، ثم
قالت : « أما اليوم فلا ، فإنك راجع إلى الدنيا ، فتقيم ثلاثة » . فقال لها : لا
أحب أن أرجع . فقالت : لا بد من ذلك .

واستيقظ من نومه لا صبر له عنها ، ثم قام فتطهر وتطيب ، وأخذ
سلاحه ، وتوجه إلى موضع القتال وهو صائم ، فقاتل إلى الليل ، ثم
انصرف ، فتحدث الناس بقتاله ، ثم مكث قائما يصلى حتى آخر الليل ، ثم
أصبح صائما يقاتل أبلغ مما فعل بالأمس ، فلم يزل يلقي نفسه فى المهالك إلى
غاية النهار ، وهو لا يصل إليه شيء مما كانوا يرمونه عليه ، وظل يتقدم كليث
كأسر كثر عن أنيابه حتى بلغ باب الحصن ، وجعل يعالجه حتى فتحه ، وفى
هذه اللحظة جاءه سهم فى منخره فخر صريعا ، وصعدت روحه إلى جنة

المأوى ، لتنعم بالزوجة الخالدة .

وصمت قليلا ثم غمغم :

— هنيئا له .

وقالت أمه في ابتهاج وهي ترنو إلى السماء من الناظرة :

— اللهم عدنا !

وأطرق يفكر في الجنة وقصورها .

وأفاق من حلم يقظته ، فتهض يتأهب للذهاب إلى قصر الزمالك ، ليقدّم لخطيبته هدية .

ودنا من القصر ، فلمحه البواب النوى ، فهب واقفا يرحب بمقدمه بشا ، وقد لمعت عيناه وأسنانه البيضاء في رفعة وجهه السوداء ، وراح يصعد في الدرج الرخامي متمهلا ، وهو ينمق مقالة رقيقة يقدم بها هديته .

وقادته الخادم إلى شرفة رحبة ، تطل على حديقة الدار ، فراح يقلب ناظريه في الورود والأزهار ، ويملأ رثنيه بالعبير الفواح وهو نشوان ، وجاءت في ثوب سماوي أبرز فنتها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى خفق قلبه ، ورففت على شفثيه ابتسامة ترحيب ، وحيته في رقة ، وجلسا يتحادثان .

كان يتلفت نحو الباب بين لحظة وأخرى ، يرصد إقبال حماته . وكان يرجو من كل قلبه أن تقبل ، وأن لا تغادر الغرفة حتى لا يتفرد بخطيبته ، ولكنها لم تظهر ، فقال في رقة :

— أين ماما ؟

— خرجت .

فأحس رهبة تنتشر في صدره ، وتمايل في جلسته ثم دس يده في جيبه ، وأخرج عليه فأخرة من القطيفة ، وقدمها إليها وهو يقول :

— تفضلى .

وسكت ولم يتفوه بكلمة من المقالة التى غمقها ، فتناولت اللعبة وفتحتها ، فانبسطت أساريرها .. كانت هديته عقدا من اللؤلؤ ، فراحت تقلبه وهى تقول دون أن ترفع عينيها عنه :

— متشكرة .

ورفعت العقد بين يديها ، ثم وضعت على جيدها ، وحاولت أن تشبكه حول عنقها ، ولكنها وجدت عتتا ، فالتفتت إليه وعيناها تفيضان باليشر ، وقالت :

— تسمع !؟

واستدارت له ، فمد يده وجعل يشبك العقد فى أناة ، وإن كان الدم يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق فى شدة اضطراب ، وثارت مشاعره ، وتآمرت عليه ، فجعلت تهتف به أن يحتويها بين ذراعيه ، وأن يضمها إلى صدره الذى اشتعلت فيه النار ، وأن يهوى على عنقها بقبلة تطفئ ذلك اللهب .

وكاد يضعف ويستجيب لهوائف نفسه ، ولكن خيل إليه أنه فى قصر فى السماء ، وقد التف حوله الوصيفات ورحن يهتفن به : « مهلا حتى يتم الزواج » ، فكبت عواطفه التى كانت تمور فى صدره فوارة دافقة .

ونفضت بقامتها المشوقة ، واتجهت إلى مرآة قريبة لترى العقد فى جيدها : فأخذ يتبعها بعينين براقتين وفى جوفه ثورة ، ورأى أنه لو مكث أكثر من ذلك فقد تقهره رغبته ، فوطن النفس على القرار .

أقبلت تخطر فى روعة ، وجلست إلى جواره ، وقد التصقت كتفها بكتفه ، فأحس ديب التمل يسرى فى جسمه ، وملأت رائحتها الزكية أنفه ،



فدار رأسه ، وكاد يضعف ، ولكنه ملك نفسه ، ونهض وهو يقول :

— أرجو أن تسمحى لى بالانصراف .

ف نظرت إليه وقد اتسعت حدقتها ، وقالت :

— هكذا سريعا ؟

— إني ذاهب لقضاء بعض الحاجات .

ف قالت فى دلال :

— انتظر حتى تعود ماما .

ولو طاول نفسه لجلس ، ولكنه كان يخشى ذاك السكون الخيم عليهما ،

وتلك النزوات التى كانت تستبد به أحيانا كإرد جبار ، فقال :

— بلغى تحياتى لماما .

ومد يده وصافحها ، فألقى نفسه يضطد على يدها فى خفة ، ويجذبها إليه

قليلا ، فلمعت عيناها بريق أخاذ ، وتضرجت وجتها بمجرة ، فقد تدفق

الدم الفوار إلى وجهها ، وترددت أنفاسها سريعة ، فاضطرب وإن كانت

النشوة قد ملأت أقطار نفسه .

وغادرها وأخذ يقطع الردهة الطويلة فى خطا واسعة . وصدره مسرح

لإحساسات متضاربة ، انتشرت فيه مشاعر الحب نائرة مزججة ، كما انداحت

فيه راحة لطيفة لانتصاره على هوائفه ، وبلغ الدرج الرخامى ، فراح يهبط فيه

متمهلا ، ولفحه التسميم المتعش ، فهدأت ثورة مشاعره .

وفى ذات يوم خرج ليشتري بعض أشياء ، وفيما هو سائر لمح جنازة

متواضعة فى طريقها إلى مسجد الحسين ، فوقف يتشهد ، وخطر له خاطر ،

لقد سمع من أمه ومن خالطهم ، أن من يحمل ميتا ويسير به إلى قبره يبنى له

قصر فى الجنة ، فلماذا لا يتقدم ويشارك فى حمل النعش ، فيضمن لنفسه قصرا

يغص بالجوارى والولدان والخور العين ١٩

واستولى عليه ذلك الخطر ، واطمأن له ، فتقدم ثابت الخطو ، وحمل
النعش ، وقد انتشرت في جوفه إحساسات الرضا ، وسار ووجهه منبسطة :
وما فطن إلى أن الناس قد وقفوا يرمقونه في دهش ، كان الرجل الوحيد
الأنيق ، في جنازة من الحفاة ولابسي الجلابيب الزرقاء .

وانطلقت الجنازة ، ووقفت شابة وسيدة تنظران إلى ذلك الأنيق الذي
يحمل النعش ، وما وقعت عيونهما عليه حتى أنكرتا ما رأتا ، وأخذتا يتبادلان
النظر في دهش ، كانتا خطيئته وأمها ، خرجتا لاستكمال بعض الحاجات قبل
ليلة الزفاف .

وغمغمت الأم في أسى :

— يا للفضيحة !

واربد وجه الفتاة : ولاح فيه الحلق الشديد والغضب الثائر ، وأحست
خنجرًا يطعن كبرياءها ، ففكرت في الفرار ، ولكنها عادت وصممت على أن
تدنو منه ، لترى أنها قد رآته في موقفه الشائن ، فجذبت أمها من يدها وقالت
لها :

— تعالى .

واندفعت إليه ، وأخذتا تحملقان في وجهه وعيونهما تقذف حمما من
الغضب ، ووقع بصره عليهما فارتبك ، ولكن لما ابتعدتا عنه أقلع ارتباكهما ،
ولج في سيره ، حتى لا يقوض القصر الذي بدأ ينيه في السماء .

وبلغت الجنازة مسجد الحسين ، فوضع حملا ، وعاد مهرولا ، ينقب عن
خطيئته وأمها هنا وهناك ، وقد تفصد عرقه ، ولما يقس من أن يعثر عليهما ،
عزم على أن يذهب لزيارتهما بعد صلاة المغرب .

وقضيت الصلاة ، فانطلق في سيارة إلى الزمالك ، وهو يحس قلقا ، ولما وقفت السيارة أمام القصر ، زاد ارتباكها ، وهبط منها وهو يضطرب ، وتقدم في خطا ثقيلة وهو يتلفت ، وقع بصره على البواب النوى ، فألقاه متجهما ، فانقبض وأحس خوفا . ودنا من البواب ، وقال في صوت متهدج :

— السلام عليكم .

وهم بالدخول ، ولكن البواب لم يفتح الباب ، وقال في لهجة خشنة :

— إلى أين ؟

فقال في تخاذل :

— الهاتم فوق ؟

— الهاتم لا تريد أن تقابلك .

وقف مشدوها لا يدري ما يفعل ، وثارت كرامته وغضب وتركه البواب وغاب في غرفة صغيرة ، وعاد وفي يده لفافة ، دفعها إليه وهو يقول :

— وقد نصحتني أن أعيد لك هذه .

تناول اللفافة في تراخ ، وقفل عائدا متقبض النفس ، مطأطئ البصر ، لقد أعادت إليه هداياه ، وقطعت كل ما بينه وبينها من سبب ، وسار حزينا محطما ، وفي ذلك اليأس المرير قفزت إلى ذهنه فكرة ، بددت بنورها الظلام الذي يحيم على كهف صدره ، فغمغم :

— إن كنت خسرت قصر الزمالك ، فقد كسيت قصرا في الجنة !

قصة بحار

سمعت طرقا خفيفا على باب مكتبي ، كان متاهيا في الرقة ، ففطنت إلى أن صاحبه يحاول أن يوحى إليّ أنه رجل مهذب ، لا يحب إقلاق الناس ، وإن حذرت أنه صاحب حاجة ، جاء إلى الديوان يلتمس منفذا لحاجته ، فقلت :
— تفضل .

فدلف إلى الحجرة إنسان قمىء ، ترف على فمه ابتسامة ، وما إن وقعت عيناه عليّ حتى حنى رأسه في أدب وقال :

— حضرتك مصطفى بك ؟

— نعم . أية خدمة ؟

— لي موضوع هنا أحب أن أعرضه على سعادتك .

فأشرت إلى كرسي قريب مني ، وقلت :

— تفضل .

وقعد وسحب الكرسي واقترب مني وقال :

— تقدمت في مناقصة لتوريد زيوت للوزارة ، ورسا عليّ العطاء ، وحدد

يوم ١٠ لانتهاؤ التوريد ، ومضى ذلك التاريخ ، ولم أستطع تنفيذ العقد ، كان التأخير لأمر خارج عن إرادتي ، اشترت من تجار كثيرين ، ولم أتسلم الزيوت في الميعاد الذي اتفقنا على أن أتسلمها فيه ، ولقد قرروا هنا الشراء من السوق على حسابي وتحميلي فرق الأسعار ، ولو تم ذلك كان فيه خرابي .

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أن تمد أجل التوريد .

— هذا ليس من شأنى ، هذا من اختصاص وكيل الوزارة .

— قيل لى إنك تستطيع أن تقنع الوزارة بمد أجل التوريد . أرجو منك أن

تفعل شيئا ، اشتريت بكل أموالى زيتونا ، سأتسلمها قريبا ، فإذا لم أوفق فى

مد أجل التوريد ، فسأصاب بكارثة .

— سأهتم بهذا الموضوع .

— أرجو منك .. مستقبلى بين يديك .. لن أنسى هذه المكرمة ما

حييت .

وصافحنى الرجل وهو يشد على يدى ، وخرج وهو ينحنى فى أدب .

وجلست أكتب مذكرة للوزارة أطلب فيها امتداد أجل التوريد ، وذهبت إلى

الوزارة ، وقابلت هذا وذاك ، وتمكنت بعد لآى أن أحصل على الموافقة

المنشودة ، وأخطرت الرجل ، فجاء إلى يسعى ، يزجى إلى عبارات الشكر

والتقدير .

ومرت أيام ، ووفد إلى مكاتبى ذلك الرجل القمىء ، ينسم فى رقة ،

وينحنى فى احترام ، فلما وقعت عيناي عليه قلت :

— خيرا ؟

— أتممت التوريد ، ولم أصرف بعد ثمن ما وردت .

فاستفسرت عن سبب تأخير الصرف ، فعلمت أن هناك بعض

الإجراءات لم تستوف بعد ، فوعدت الرجل خيرا ، وانصرف من عندى

وهو يكرر الشكر ، ويدغدغ أذنى بعبارات الشاء .

وما انقضى على انصرافه يومان حتى تسلمت رسالة سرية من الوزارة ،

ففضضتها فإذا بها شكوى من ذلك الرجل القمى . يتهمنى فيها صراحة أننى أتعمد تأخير صرف قيمة الزيوت التى أتم توويردها ، فانتشر الضيق فى صدرى ، وأحسست دماء حارة تتدفق فى عروقى ، وشردت قليلا ، فتذكرت قصة الحذاء ، فخدمت ثورقى ، وارتسمت على شفتى ابتسامة زراية . كانت تلك القصة البلسم الشافى لنفسى ، كلما أساء إلى من أحسنت إليه :

كنت رئيسا لفريق كرة القدم بالمدرسة الابتدائية ، وفى يوم من أيام الخميس جاءنى ثلاثة أقارب لزملاء لى فى المدرسة ، وقالوا لى :
— ستبارى اليوم مع فريق من فرق الحى ، ونحب أن تلعب معنا ، إنها مباراة هامة ، إذا فزنا فيها انعقدت لنا بطولة الحى .
فاعتذرت بأنى أرسلت حذاء الكرة للإصلاح ، ولن يتم إصلاحه قبل يوم الجمعة ، فقال أحدهم :
— عندنا أكثر من حذاء .
وقال آخر :
— عندنا حذاء جديد يليق بك .

وعرضوا على أن أذهب معهم ، فانطلقنا إلى دارهم يتملقوننى ، ويتحدثون عن براعتى فى اللعب ، وأنا مطرق حياء ، حتى إذا بلغنا البيت ، دلفنا إلى غرفة بها أرائك عتيقة ، وبعض أحذية الكرة ، وملابس مبعثرة ، أجلسونى فى الصدر وغاب أحدهم ، وعاد يقدم لى كوب شراب الليمون ، فشربته وقد شاعت فى نفسى إحساسات الرضا ، وقدموا لى حذاء جديدا ، فخلعت حذائى ، وهممت بلبس حذاء الكرة ، فامتدت أكثر من يد تعاوننى على لبسه ، وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وأنا أنظر إلى الحذاء ،

وأضرب به الأرض ، فقال أحدهم :

— رائع .

فذهبت إلى الأريكة ، وجلست ورفعت رجلى لأخلع الحذاء ، فإذا بأصوات تقول في استنكار :

— ماذا تفعل ؟

— أخلعه .

— لا .. لن تخلعه .

— لماذا ؟

— سيبقى في قدميك حتى تذهب به إلى الملعب .

فقلت في إنكار :

— أسير في الطريق وفي قدمي حذاء الكرة !

— كلنا تفعل ذلك .

ولفوا حذائي في ورقة ، ووضعوه تحت إبطي .

واستأذنت في الانصراف ، فعرضوا على أن أتغدى معهم ، وألحفوا في العرض ، فاعتذرت بأننى لم أخبر أهلى ، وهبطت إلى الطريق ، والثلاثة من حولى ، حتى إذا بلغت رأس الشارع ودعوني في حرارة ، فانطلقت وأنا نشوان ، هزتنى تلك المعاملة الطيبة ، ومست ، شغاف قلبى .

وذهبت إلى الملعب ، وما إن لمخوني قادمًا حتى خفوا إلىى مرحبين

وأحاطونى بعطفهم ، حتى غرقت في السعادة .

وبدأت المباراة ، فعقدت العزم على أن أبذل غاية ما فى وسعى من مجهود ،

فهذا أقل ما أقابل به ذلك الكرم .

ووفقنى الله ، فسجلت لهم إصابة ، ثم أردفتها بأخرى ، وانتهت المباراة

وقد فازوا بهاتين الإصابتين ، وتفرقت الجموع ، وأقبل الثلاثة إلى يهرولون ،
فحسبتهم قد خفوا إلى يزجون آى الشكر وعبارات الإطراء ، فرقص قلبى فى
جوفى ، وإن تدفقت إلى وجهى دماء الخجل .

قال أحدهم وهو ملهوف :

— الخذاء ؟

فقلت فى بلاهة :

— ماذا ؟

— نريد الخذاء .. اخلع الخذاء .

فقلت فى إنكار :

— الآن ؟

— نعم الآن .

— ليس معى خذاء آخر ، ولا أستطيع أن أسير حافيا .

— هذا ليس من شأننا ، نريد الخذاء .

— تعالوا معى إلى بيتنا .

— لا .. إتنا نريد الخذاء .

وجلست على الأرض مقهورا ، وقيل أن تمتد يدى إلى رباط الخذاء ،
امتدت أكثر من يد ، وما هى إلا لحظات حتى كنت فى الأرض الفضاء
وحدى ، عارى القدمين إلا من الجورب .

هذه هى قصة الخذاء التى أتذكرها كلما وقعت على إساءة ممن أحسنت
إليه ، فتجلب على شفتى بسملة ازدراء ، وتنزل بصدري تلك الراحة التى
يحسها من فقد إيمانه بالناس .

فارسس وامرأة

١

أتم منصور الرواية التي كان يقرأها ، فطواها وهو يزفر زفرة ارتياح ،
ولاح في وجهه انشراح ، ووضعها على ركبتيه ، ثم ألقى برأسه إلى الخلف ،
وأسيل عينيه ، وأخذ يجتر في لذة وشغف فعال البطولة والشهامة التي قام بها
البطل ، ثم ما لبث كما هي عادته ، أن أقحم نفسه في غمار الحوادث ، فانتزع
من البطل بطولته ، وتسربل بها ، ورأى نفسه بعين خياله فارسا مجلى يركب
الصعاب ويقتحم الأهوال ، ويقاسى في سبيل حبه النبيل أشد المقاساة ، حتى
ينعم في الختام بالحبيبة ربة الطهر والعفاف .

رزق منصور بسطة في الجسم ، وقوة في الذراعين ، وسذاجة لا تنفك
ومظهره الجبار ، وكان في قرارته راضيا عن نفسه كل الرضا ، مع أنه لم ينل
إلا قسطا ضئيلا من التعليم ، ثم اضطرت له قسوة الحياة أن يحترف حرفة لتدر عليه
رزقا ، إلا أن ذلك لم يفت في عضده ، بل راح يعمل على أن يثقف نفسه
بنفسه ، فعكف على قراءة الروايات ، فشغف بها حبا ، فما كان يسير في
الطريق ، إلا وفي يده رواية ، وما كان يرى في البيت إلا قارئاً أو ساجداً في بحور
الخيال .

وباتت أمنيته في الحياة أن تهبط عليه من السماء ، فتاة كتلك الفتيات

الرائعات ، اللاتي يهبطن على أبطال الروايات ، يرعاها بعطفه ، ويغمرها بحبه ، ويشها مكنون نفسه ، ويكافح في سبيلها ، وينافح عنها حتى تخلص له وحده ، ويعيشا في سعادة وهناء . وكان يرى فتاته بعين الخيال ، في لحظات التأمل التي تعقب قراءة الروايات ، لذلك ما كانت تستقر على حال ، بل كانت تتغير وتبدل بتغير البطولات ، فمرة سوداء الشعر بيضاء البشرة ، سوداء العينين ، ومرة ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، ومرة سمراء خفيفة لطيفة . وما كان يغوص في نفس فتاته ، فما كانت الروايات التي يقرأها لتهم إلا بالمظهر الخارجي الجذاب للفتيات ، إن كل ما يطلبه أن تكون مثال العفة والوفاء .

وظلت أميته تداعبه في خلوته ، فعاش يترقب اللحظات السعيدة التي ستبسط عليه فيها حبيبة القواد ، لتحيل حياته الفارغة إلى قصة جذابة ، ينعم في عالمها الواقعي بما ينعم به في دنيا الخيال ، وكان يؤمن في نفسه ، أن القدر يخفي له مفاجأة كذلك المفاجآت السعيدة التي يدخرها مؤلف الروايات ، لينحورها أبطالهم مكافأة لهم على ما قاسوه من مشقة وحرمان ، وكان يعتقد أن ذلك لن يتأخر طويلا ، ولكته ما كان يدري على أية صورة من الصور البهيجة ، ستقع هذه الحادثة المرتقبة ، فما كان يرفع بصره عن الروايات ليرى الفتيات اللاتي يملأن الدنيا حوله حياة ..

وفي صباح يوم من أيام الصفاء ، خرج منصور من داره ، ولم يكن في يده كتاب ، فقد أتى قبل طلوع النهار على الرواية التي كانت معه ، انطلق ساهما يقطع الطريق التي اعتاد أن يذرعها كل يوم في ذهابه إلى العمل ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يحادثها وتحادثه ، وملأ خياشيمه فجأة غير حلو نفاذ ، فإذا فتاة على قيد خطوات منه ، راعه منها دقة خصرها ، وتناسب جسمها ،

وحسن تكوينها ، فوسع في خطاه ، حتى إذا ما حاذها أحس رعدة خفيفة تسرى فيه ، والتفت إليها يتفرس في وجهها ، فيهره جمالها ، وكان قد وطن نفسه على أن يهمس لها همسات إعجاب ، ولكن بريق العينين الواسعتين ألجم اللسان ، فتأخر قليلا ، وراح يتبعها كلما أخذ الذي فقد الخواس .

وبلغت محطة الترام ، فوقفت تنتظر ، ووقف على بعد خطوات منها يعن النظر ، وهمس في جوفه هامس بأنها فتاة الأحلام التي هبطت عليه من السماء ، فرقا إليها رنوة حبيب ولهان ، وأقبل الترام فقفزت إليه في خفة الغزال ، فشعر بقلبه يخفق في صدره خفقات ، فلبث قليلا شاخصا يبصره إلى الترام ، ثم استأنف سيره وهو يفكر في الفتاة ، وآها في الخيال تسير بالقرب منه ، ورأى نفسه يللم أطراف شعاعته ، ويهرع إليها يحببها في جراحة ، فتد تحيته بابتسامة عذبة ، فيحادثها وتحادثه حديثا حلوا يشرح الصدر ، ويبهج الفؤاد ، وأحس نشوة تملأ نفسه ، ولكنه لم يركن إلى هذه النشوة طويلا ، فإن هذه الصورة البسيطة من صور التعارف لم ترض خياله الجموح ، فراح يجتر مشاهد الروايات ، فرآها أول ما رآها في عربات السفر ، التي تجرها الجياد تقطع القفار . ورأى نفسه على صهوة جواد في أعلى الجبل ، يرقب العربية المنطلقة في الفضاء ، وإذا بالجياد تجمع فجأة ، فتطلق كريح عاصفة لا تلوى على شيء ، فيلوى عنان جواده ، وينحدر كسيل جارف حتى يبلغ الجياد الجامعة ، فيقفز فوقها ، ويجذبها من أعنتها ، وقبل أن يتم هذا المشهد في ذهنه ، زال ليحل مكانه مشهد آخر لا يقل عنه روعة وفخامة ، رآها سجين في قلعة من قلاع العصور الوسطى وهو في عدة الفرسان شاهرا سيفه ، ينازل الرجال ، ويجدل الأبطال ، ليصل إلى أسيرة الفؤاد ، وظلت المشاهد تقفز إلى ذهنه متتاليات وهو غارق في نشوته ، محلق في عالم وردى من الأحلام .

وعاد مع الليل إلى بيت الأوهام ، فتمدد على أريكة عتيقة ، وأرغى
لفكره العنان فراح يتسج من خيوط خياله حول فتاة الصباح مواقف رائعة من
البطولة والغرام ، واستمر في تحليقه اللذيذ في سماءات الأحلام ساعات ، حتى
إذا ما فاضت بهجته وارتوى خياله ، هبط إلى الأرض لحظات ليفكر كما يفكر
الناس ، ففكر في نفسه المقيدة بقيود وأغلال ، رأى فقيرا لا يقوى على إقامة
عش هانئ لزوجين سعيدين ، فقد تعقدت الحياة ، فشاعت في صدره سحابة
خفيفة من الكدر ، لكن سرعان ما تبخرت تلك السحابة ، فقد عاد ثانية
ليسبح في بحور الخيال ، فأقنع نفسه أنه اليوم في البداية يتعثر ويقاسى الحرمان ،
أما في الغد فستبتسم له الدنيا ، سينساب فيها لينعم بخفض العيش وبهجة
الحياة .

وظل كطيف يتشكل في شكول لطيفة ، وينعم برؤى اليقظة ، حتى غلبه
النوم ، فنام واستمر في رقدته الهنيئة ، حتى داعب أذنيه صياح الديكة ،
مبشرة بدنو طلائع النهار ، فنهض يرجل شعره ، ويسوى هندامه ، فقد عزم
على أن يتوودد إلى الفتاة . وترك الدار قبل مياعده الذي اعتاد أن يخرج فيه ،
ووقف على وصيد الباب يرصد الطريق ، ويتلفت ذات اليمن وذات الشمال .
ومر الوقت بطيئا فلم يحس مللا ، فقد كان ممتلئا آملا ، وخفق قلبه فجأة ، ثم
اشتد وجيبه ، وصعد الدم حارا إلى وجهه ، فقد لمحا تخرج من دار قريبة من
داره بقوامها المشوق ، ومرت أمامه ، فملا خياشيمه عيرها الحلو النفاذ ،
فانتشت روحه ، وهم بأن يومئ لها برأسه محيا ولكنه لم يجرؤ ، فظل ثابتا لا
يريم ، ولولا البريق المتألق في عينيه لحسبته تمثالا .

وبعدت عنه خطوات فعاد إلى نفسه وتملك حواسه ، فجعل يقتفى أثرها ،
و لم يجد في نفسه الشجاعة ليدنو منها ليسمعها ما نطق طول الليل من كلمات ،

وما انفك يرقبها على البعد حتى ركبت الترام ، فانطلق إلى عمله وهو يحاول أن يجد لنفسه الأعذار ، فما هو من الرقعاء الذين يعترضون الفتيات في الطرقات ، إنه يتمتع بما يتمتع به الفرسان من حميد السجايا ونبل الأخلاق !

٢

وترادقت الأيام وهو ينتظرها في الصباح ، ويتبعها على البعد خافق الفؤاد ، وكانت تترفق في السير أحيانا ، وتلفت أحيانا ، وابتسمت مرات ، ولكن كل ذلك لم يشد أزره ، ويشجعه على هجر السجايا الحميدة ونبل الفرسان ! وكأنما شاء القدر أن يترضاه ، فجعل تعارفه على الصورة المشتتة ، ففي ليلة من الليالي بينما كان يسير عند أويته في الميدان القريب من داره ، إذ لمح ذلك الجسم المتناسب الذي انطبع في الفؤاد ، ينساب في لألاء الضياء المتبعث من مصابيح الميدان ، فيسرى فيه اضطراب لذيذ ، وانطلق إليها خفيفا ، حتى أصبح على مرمى حجر منها ، وعرجت إلى شارعهم الضيق ، فخطر له أن يذهب إليها ، ليلقى عليها في رقة تحية المساء ، فالشارع هادئ ساكن ، والظلام سائد ، لا تقوى على هتك غلالته تلك المصابيح الخافتة القليلة التي تكاد تلفظ الأنفاس ، ولكنه كبح ذلك الخاطر ، فقد كره أن يقوم في الظلام بما أحجم عن تنفيذه في وضوح النهار .

ورآها على بصيص النور الواهن تنفر من شيء . وسرى في أذنيه همس زجر ، فحملك وقد أرهفت منه الحواس ، وأغذ في السير حتى اقترب منها ، فلمح شابا يطاردها ، فثارت ثورته ، وتدفق الدم حارا في عروقه ، وصلك أذنيه صوتها وهي تنهر الشاب ، فلم يشعر إلا وهو ينقض عليه ، ثم يلكمه

لكمة قوية ترغ بعدها الشاب ، وهوى على الأرض ، وداعبه صوتها وهي
تغمغم : « متشكرة » ، فأحس خدرا الذبذبة ، وتحركت أحاسيس البهجة في
نفسه فغمرته بالسرور والهناء .

وحنى لها رأسه في أدب جم ، ثم انصرف ودخل داره هيمان ، وتمدد على
أريكته العتيقة ، وأسبل عينيه ، وجعل يستعيد ما حدث من لحظات في
نشوة ، رأى نفسه وهو يلکم الشاب تلك اللكمة الجبارة ، فشعر بزهو ،
وانصبت إلى صدى صوتها الرقيق ، فأحس دغدغة في الحواس ، ولاحت له
في ظلام الغرفة عيناها البراقتان الواسعتان ترنوان إليه ، فانتفض كأنما سرى فيه
تيار كهربي ، وانطلق خياله ليخلق حي أجوائه ، ولينسج ما تشتهي النفس ،
فغمرته سعادة شاملة .

٣

وصارا يتلاقيان كل صباح ، وتواعدا يوما من أيام الربيع ، فهب النسيم
عليلًا فأنعش روحيهما ، وسارا ملتصقين ، فهبت العواطف النائمة تتصارع
في جوفيهما . أحس حينئذ إليها ورغبة في أن يضمها إلى صدره الذي ضاق
بأحاسيسه الفوارة ورناء إليها في وله ، ونظر إلى عينيها الجذابتين فانتشى ،
وضيقت من عينيها ، وألقت برأسها على صدره ، ورفعت وجهها في دلال
وإغراء كأنما تتأهب للقبل ، وملأ عبيرها خياشيمه ، فكاد يهوى بشفتيه على
شفتيها المغريتين ، ولكنه كبج جماح نفسه ، وترفع عن أن ينتهز لحظة من
لحظات ضعفها ، فقد كان فارسا !

وبلغا مقعدا فجلسا يلتقطان الهواء في قوة ، فقد أجهلتهم أحاسيسهما ،

وبقيا صامتين برهة ، ثم تناول منصور يدها وضغطها في رفق ، وقال في صوت منهدج :
— أحبك .

وصمت كأنما عقد لسانه ، وأشرق وجهها ، فتملك روعه ، وعاد إليه بعض هدوئه ، فقال في أناة :

— أحبك . ولما كنت أمقت أن أرتكب ما يرتكبه الشاب العاثر فإني ..
ثم عاد فصمت ثانية ، كأنما ألجمه حياؤه ، ولكنه قهر خجله وقال :
— أتقبلين ؟

فهمست في صوت خفيض .

— ماذا ؟

— التزوج في .

فترقق ماء الحياء في وجنتيها ، وبرقت عيناها ببريق السعادة ، ولاح في عيها الرضا كل الرضا ، وهت بالكلام . ولكنه أسرع وقال :
— يكفيني ما أرى ، إلى سعيد ، أسعد مخلوق في الوجود .



دقت الدفوف ، وأطلقت الزغاريد ، وأغلق الباب خلف العروسين ، واختل منصور بفتاة الأحلام التي هبطت عليه من السماء فغمرته السعادة ، وراح قلبه يرقص في صدره طربا ، فقد نال في النهاية حبيبة الفؤاد ، وربة الصون والعفاف .

وقادها إلى مقعد طويل ، وجلسا ، فأطرقت ، فمد يده إلى ذقنها ، ورفع



(صدى السنين)

وجھها فرأى عينيها مملكتين بالدموع ، فانقبض وقال بصوت مبحوح :
— ماذا ؟

فقالت في انكسار :

— إني ناعسة . منكودة .

فزاد انقباضه ، وأحس رأسه يدور ، وقال في حشرجة :
— ماذا جرى ؟

فقالت وقد نكست رأسها :

— لا فائدة من الکتان ، سأبوح بكل شيء .

فحملق فيها مشدوها ، وراحت تعترف :

— خطبني فوثقت فيه ، وغررني فاستسلمت له ، وفي لحظة من لحظات
الضعف نال كل شيء .

وضممت ، وساد الغرفة سكون الرموس ، ولكن كان صدر منصور
مسرحا لصراع هائل جبار ، فقد بات بين أمرين : أن يطرد المدنسة من
البيت ، أو يستر عرضا ، وظل فريسة لأفكاره تتجاذبه وتتنازعه ، وأخيرا
نهض إليها كفارس كريم ، يحنو على ضعيف ، ويقيل عثرات المتعثرين ، وربت
على كتفها وقال :

— عفا الله عما سلف .

ووطن العزم على أن يتناسى ما عرفه تلك الليلة الهائلة ، وراح يبنى النفس بأن يحيا حياة سعيدة ، بعد أن ضحى واحتمل تلك الصدمة المروعة في ثبات ورباطة جأش ، إنها ستقدر نخوته ولا ريب ، وستمنحه الحب ، بل ستجود له بالنفس ، تقديرا لما أسدى إليها من معروف .

ومرت شهور ، فأبدت تفورها منه ، فراح يتألفها ويتودد إليها ، وكان كلما أظهر لها الحب ازدادت منه تفورا ، وجعلت تنغص عليه حياته ، وترهقه بما لا يطيق ، حاول أن يرضيها ، فما كانت ترضى ، وحاول أن يلبي رغباتها ، فكانت تزداد تعسفا ، فجعل يفكر بعقلية الفارس ، ولو فكر بعقلية المرأة لفطن إلى أنها كرهته من تلك الليلة ، ليلة العفو الكريم !

وتجرات عليه على مر الأيام ، فكانت تسحر منه وتهزأ به ، وفي يوم أخذ السباب يتدفق منها ، فقالت له في ثورتها :

— اخرج يا ..

وقالت كلمة تملأ القم ، فخرج منكس الرأس ، كفارس ثلم شرفه ، وكسر سيفه .

في العبد

عضها الجوع ، فجعلت تتلوى في فراشها ، و تفتح عينيها ، خشية أن يقر منها النوم ، ولكنها كانت سادرة في الوهم ، فقد نأى النوم عنها وأمعن في الحجر ، فما كان يجود بوصول المحرومين الجائعين .
وأحسست سكاكين تمزق جوفها ، ووهنا يدب في أوصالها ، فدفعت عنها غطاءها الذي كونه من قطع شتى من الأنسجة اختلفت ألوانها ، فبدأ الحصر الممزق في ضوء الذبالة الخافت ، كأعواد من القمح ، صفت على ظلال سود ، وتحاملت على نفسها ونهضت ، قصيرة هزيلة نحيلة ، عبث الزمن بصفحة وجهها ، فخلف غعضونا ، وترك الجوع آثاره ، فكانت ذبولا .
وانطلقت كالطيف صوب الذبالة وحملتها ، وسارت يسترها جلباب أدكن فقد شبابه ، فذهب سواده ، واستحال إلى لون الزيتون ، وهرعت إليها قطنها تلمسح بها ، فتزيد في اضطراب خطوها ، إنها قطعة نقاسمها ليلها ، وتغادرها نهارها ، فما كانت تستطيع أن تصير على الحياة المتقشفة القاسية .
وراحت تجوس خلال حجرتها التي كانت أشبه بكهف ، فما كان بها للهواء متقلد ، إلا ذلك الباب اللافت إلى بضع درجات متهدمات ، تؤدي إلى فناء الدار الرطب ، الذي ينبعث منه روائح ماء آسن ، وتنطلق فيه أسراب الجنادب والخنافس ، وما كان بها كوة ، تسمح لأشعة الشمس أن تنقلد منها ، لتبدد ذلك الليل السرمه . ثم اتجهت إلى قلة ذليلة طاح رأسها ، رفعتها

وتجرعت منها جرعة .

وعادت إلى حصيرها وتمددت ، وسحبت غطاءها ، ولكن ما كانت تلك الجرعة لتكتم أنفاس ذلك الغول الذي كان يعوى في أعماقها ، وينشب أظافره في أحشائها ، فسرعان ما أنت وتلوت .

ولم تنطق صبرا ، فهبت ثانية من رقدتها ، أحضرت قطعة خبز يابس ، كانت تدخرها ، ورشتها بالماء ، ثم جاءت بقليل من الملح ، وقعدت تأكلها ، لتسكت ذلك الصراخ المنبثق من أغوارها ، وخفت إليها قطتها ، تنظر بعينيها الخضراوين المتألفتين في الظلام كمصباحين ، فتفاقلت عنها ولكن القطعة راحت تتمسح بها ، فشعرت كأن اللقمة وقفت في حلقها ، ونحركت شفقتها . فأشركتها في كسرتها .

وارتفع ثغاء الخراف ، فمشى الصوت في أذنيها ، حقيقة موجعة ، فأطرقت وقد ارتسم الأسى في وجهها الجاف الذابل ، فغدا هو عيد الأضحى ، ولم تعد تملك ما تبيعه لتحفل بالعيد كما يحتفى به جيرانها ، باعت كل شيء ، ولم يبق في حجرها إلا الحصير والقلعة ، والموقد والقدر .

وخطر لها أن تبيع القدر ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الخاطر ، فلو أنها باعتها لتشتري بئسها لحما فقيم تطهوه ؟ وغزتها همومها ، فظلت في إطراقها ، وأخيرا رأت أن تخرج إلى الدنيا ، تبحث وتنقب ، لعلها تعود بقطعة من اللحم ، تجعلها تستقبل العيد مستبشرة ، كما يستقبله آلاف الناس .

وصك أذنيها أقدام الجيران القاطنين فوقها ، فكان ذلك إيذانا بأن الليل قد أدير ، وأن النهار قد أقبل ، فقامت تلف ملاءتها حول جسمها النحيل ، أطفأت الذبالة ، وذهبت تتلمس طريقها ، فتحسس الجدار ، وتهبط الدرج المتهدم ، وتنساب في الفناء الرطب ، وتستنشق رائحة الماء الآسن ، دون أن

تنقبض في وجهها المتغضن عضلة ، فقد أسنت حياتها ، وخسرت إلى الطريق ، فبهرها النهار ، ولفحها الهواء ، وسارت وئيدة تتلفت ، فألفت دكان الجزار ، وقد زين بالرايات ، وتدلّت الخراف والعجول ، وازدحم الناس عنده يشترّون ، فوقفت على البعد تنظر ، والحزن يرعى في جوفها ، والحرمان يخزها وخزات آليمه قاسية ، تزيد أساها ضراما .

وخيل إليها أن الناس فطنوا إلى وقفها الدليلة المتطقلة ، فانسابت في الطريق مطرقة ، ينفجر الحزن في جوفها ، وبلغت دار بعض من تعرف ، ممن رزقهم الله بسطة في الرزق ، فدخلت يداعبها طيف من أمل .

وجلست تتحدث مع ربة الدار ، وتصرم الوقت ، ووافى ميعاد الغداء ، فدعتها السيدة إلى الطعام ، فتمنعت تمنع الراغبات ، ثم لبثت ترفرف في جوفها فرحة ، وفي مثل لمح البصر طاف بذهنها أطياف أكالات شهية ، فتحلب ريقها ، وجلست إلى المائدة ، وإذا بالطعام قطعة من جبن وزيتون أسود ، فحنقت ، وزاد في حنقها اعتذار السيدة بأنها لم تطبخ اليوم لأن غدا العيد الكبير !

وانقضى النهار وهي تدور على البيوت ، وأقبل الليل ، وقد دب التعب في أوصالها ، فعادت إلى حجرتها ، عابسة الوجه ، تملؤها خيبة ، وتجر رجلها جرا ، وعادت كما خرجت خالية الوفاض ، وقد ذاب الأمل تحت وهج الواقع الأليم ، وراح اليأس يرتع بين جوانبها مخلفا المرارة والأسى .

وارتمت على حصيرها مكدودة ، يدثرها الحزن ، ويحتم على صدرها الضيق ، وأخذ الوقت يتصرم وئيدا ، وأخيرا طاف بها ملاك النوم فهجمت ، وتقضى الليل ، وأقبل نهار العيد ، فخرج الناس إلى المسجد مكبرين ، وارتفعت أصوات التهليل ، فقامت من رقدتها تتلفت ، ونقذت دقائق الهاون في البيوت المجاورة إلى مسامعها ، فكان لها على نفسها وقع ثقيل ، وتسرب

دخان الشواء إلى حجرتها ، ومشى إلى خياشيمها ، فأحست غصة ، وأدارت عينيها في المكان في ذلة ، وخيل اليها أن آذان الجيران أرهفت إلى ذلك الصمت السائد في حجرتها ، وأن عيونهم تنطلع إليها ، فجز على نفسها أن يفتنوا إلى أن الفقر قد أقعدها عن أن تحتفل بالعيد ، فقامت إلى الموقد وأشعلته ، ثم وضعت عليه القدر وقد ملأها بالماء القراح ، وجعلت تحركه بالمغرفة ، وتتعمد أن تدق جدار القدر ، ليسرى صوت رنينه إلى الآذان المنصتة إلى ما يجري في كهفها ، لتدخل في روع الجميع أنها مثلهم بالعيد مستبشرة ، ونظرت حولها تبحث عن قطتها فلم تجدها ، وظلت هي في حجرتها تقاسي الحرمان الشديد ، ولم تقو على احتمال ما هي فيه ، فتركت الماء يغلي على النار ، وارتمت على حصيرها تبكي وتتحب .

من أجلك أنت

راح المطر ينهر في الخارج ، وأخذت الريح تولول ، تكاثف الضباب على النوافذ ، وأسدل الظلام ستوره السود ، وسرت قشعريرة في جسم حمدي ، فهرع إلى المدفأة يتفرض من البرد ، وجعل يدس أعواد الحطب ليؤجج النار ، لعل حرارتها تنتقل إليه ، فتقضي تلك الرعدة التي تملكته . كانت ليلة من ليالى لندن الباردة ، التي لم يألّفها بعد ، فسرى الدفء في جسمه ، فأحس راحة ، وأطرق رأسه ، واستسلم لأفكاره ، فراحت الصور تتابع في مخيلته كشريط السينما ، فرأى الأهل والأحباب ، وراح يجتر الذكريات ، فكان يتمهل أحيانا ، ويسرع أحيانا ، حتى إذا ما فكر في سهام تريث في تفكيره ، وانعكس على وجهه أثر ما يعتمل في صدره فشابه كدر خفيف .

كانت سهام آخر فتاة عرفها في القاهرة ، قبل أن يسافر إلى إنجلترا ، قابلها في حفل أقامه صديق ، وعرفها هناك ، وجذب بصره إليها ابتسامتها ، كانت ابتسامة غامضة ، لم يعرف كنهها أول ما وقعت عليها عيناه ، ولكنها أسرته ، فتودد إلى صاحبها ، وواعدا اللقاء ، فقبلت ، وعلى فمها الابتسامة التي شغف بها ، ومست أوتار قلبه .

وقابلها مرات ، وفي ذات يوم راح يبتها حبه ، وقد زاد نبضه ، وتدفق الدم حارا في عروقه ، فحسب حرارته ستشعل نار الصباية في جوفها ، فتبادله الغرام ، ولكن راعه ما يدا في عينيها ، وما ارتسم على شفيتها ، وقد نظرت إليه

في ازدراء . وعلى شفيتها ابتسامتها الغامضة ، وقالت في سخرية :

— واهل لك ، لا زلت صيبا في الغرام .

فأحس كأن ماء باردا صب عليه ، وعقد لسانه ، وسار صامتا يحاول أن يلم شتات نفسه التي ذهبت شعاعا ، وقبل أن يفيق من سخريتها ، استأذنت في الانصراف ، وفي عينيها بريق خبيث كان يصرخ به هازئا ، فيذل كبريائه ، ويخز نفسه ونخزا قاسيا .

واستمر في مقابلاتهما وكان كلما غازها رمقته ينظرها الهازئة ، وارتسمت على ثغرها تلك الابتسامة التي بات يرتجف منها ويهاجها ، لم تعد ابتسامة غامضة ، وعزم على ألا يقابلها ، ولكنها راحت تعترض سبيله ، وتحاول أن تجعله ألعبه ترجحها في لذة ، فقد كانت تجد في تعذبه بهجة ، فأخذ يحادثها في تحرز ، ويعاملها في حرص ، متعاشيا أن يعرض نفسه لهزئها ، أو أن يكون هدفا لابتسامتها الساخرة المريرة .

وقابلته قبل أن يترك الديار ، فحاول أن يضمها إليه ، ليقبلها قبلة الوداع ، فقد حسب أن الظرف ليس ظرف سخرية وعناد ، ولكن ما أن مد ذراعيه ليلقهما حولها ، حتى جفلت منه ، وقالت وهي تبتعد وعلى شفيتها ابتسامتها الساخرة :

— أحسبت نفسك لبقا ، فحاولت أن تستغل ساعة الوداع ١٢ هيات ،

سافر يا حبيبي وفي مخيلتك ذكرى هذا الوداع .

وتحمل في مقعده أمام المدفأة ، وأحس مرارة ، وخطر له أن يكتب إليها رسالة ينتقم لنفسه فيها ، لما ناله من هوان ، وألح عليه ذلك الخاطر ، فراح يكتب :

عزيزتى سهام :

راودتنى فكرة الكتابة إليك ، وألحت على . فأخذت أسطر لك هذه الرسالة من بلاد الغربية ، كنت أحب أن أقول لك فى أولى رسائلنى أعيش هنا فى محرابى أصلى من أجلك ، وأن طيف الحبيب يؤنسنى فى وحدتى ، ولكن ابتسامتك التى تمزق قلبى ، تنهانى عن الخوض فى حديث صيائى للبغرام ، لطالما قلت لى إنك تمقتين فى الرجال اللف والدوران .

إننى ما فعلت شيئاً هنا إلا بوحى منك ، أقولها صادقاً لا هازئاً ولا ساخرًا ، وأرجو أن تؤجلى ابتسامتك ، حتى أفضى إليك بما يثبت ادعائى ، ويدعم قولى .

ذهبت بعد أن استقرى المقام فى لندن إلى مطعم من المطاعم ، وكان الليل قد انقضى منه ثلثه ، وقعدت أتناول طعامى ، وأنصت إلى الموسيقى الهادئة ، التى كانت تعزف ألحانا خفيفة ، ورفعت رأسى عن الطعام ، وألفيت فى النضد المواجه لى فتاة ذهبية الشعر ، كان شعرها يحاكى شعرك ، فخطر لى أن أحقق فيها إكراماً لك ، بل أقصد أن أقول إكراماً لشعرك ، وتلاقت عينانا . وابتسمنا ، وخرجنا من المطعم وقد تعارفنا ، وأمضينا ليلة شاعرية وأنا أمرر يدى على شعرها ، أستغفر الله بل شعرك ، فلو لا شعرك يا سهام ما جذبت تلك الفتاة بصرى .

وفى دار من دور السينا التقيت بفتاة زرقاء العينين ، فذكرتنى بعينيك ، ففكرت فى أن أتودد إليها إكراماً لعينيك ، فاقتربت منها ، وحادثتها فحادثتنى ، وخرجنا من الدار صديقين ، وأمضيت ليلتى أنظر إلى عينيها ، بل إلى عينيك ، لقد أسعدتنى تلك الفتاة ، وجعلتنى أعيش ليلة لن أنساها ، فشكرا لعينيك ، فلو لاها لما خطر لى أن أتودد إلى الفتاة .



وفي ذات يوم التقيت بفتاة في حديقة من الحدائق ، كان قوامها يشبه قوامك ، فهفت نفسي إليها ، ولا ضرورة أن أكرر أنني في الواقع قد هفوت إليك ، فمشيت إليها وحييتها ، فابتسمت لي ، فجلست بجوارها وتبادلنا أعذب الحديث ، وما غابت الشمس في الأفق البعيد ، حتى كنت أضرم إلى قوامها البديع الذي يشبه قوامك الذي عز على يوم الوداع .

إنني يا سهام أعيش في لندن أنقب عن الفتيات اللاتي يذكرنني بك ، قفي الواقع إنني أعيش هنا من أجلك أنت .
وتقبلي قبلات المخلص .

« حمدي »

وطوى الرسالة ، وقد أحس راحة ، فقد راح يتصورها وهي تقرأ رسالته في ضيق ، وبات ينتظر طلوع النهار ، ليعث إليها بوخزة ، ردا على وخزاتها القاسيات . ومزت أيام وأسابيع ، وجاءته منها رسالة ، فقضها وراح يقرأ :
حبيبي حمدي :

تسلمت رسالتك الأولى ، وأصدقك القول إنها أول حديث لك مس وترا حساسا في قلبي ، إنها رسالة رائعة ، ما كنت أتصور صدورها عنك ، أحسست غيرة لما قرأتها وسألت : كيف لم يخطر على قلبي أن أمارس ذلك النوع من الحب ، إلى أحبك يا حمدي بعد أن قرأت رسالتك ، وقد صممت على أن أبادلك حبا بحب .

ورحت أتفرس في وجوه الشباب ، فرأيت شابا يشبه فمه فمك ، فابتسمت له ، إكراما لفمك ، فابتسم لي واقترب مني وتودد إلى ، وحادثني وحادثته ، وانطلقنا إلى الجزيرة ، وقعدنا على مقعد هناك ، واقترب مني ، ثم لف ذراعه حولي ، وهوى بفمه ، بل فمك ، على فمي وطلال العناق . أمضي

ليلة يا حمدي لن أنساها ما حييت ، فشكرا لقمك ، فلولا ما هفت نفسي
إلى ذلك الشاب .

وقابلت شابا طويل القامة ، كانت قامته كقامتك ، فرحت أرنو إليه ،
ولفت نظره تطلعي إليه ، فدنا مني ، وهمس في أذني بكلمات ما كنت أقبلها
من شاب ، ولكنني استرحت إليها إكراما لك ، وسرت بجواره ، كان لبقا
ذكرني إياك ، فعشت معه ساعات من أبهج ساعات العمر ، إنني يا حمدي
مدينة بما أنعم به من سعادة الحبك ، فلولا تنقيي عمن يذكرونني بك ،
لأمضيت أيام حياتي هباء .

وفي حفل من الحفلات التقيت بشاب ذكرني إياك ، وكان أثره في نفسي
عميقا ، فقد تقابلنا أنا وأنت في حفل كذلك الحفل ، فمتفق قلبي لما رأيته ،
حسبته أنت ، ودنوت منه ، وقد أفعم صدرى بإحساسات لذيذة ، وأقبل
على يغازلني ، فالت له جانبي إكراما لك ، وعشنا معا في عوالم للذيذة أنا
وأنت .

إنني يا حمدي أكرر لك إعجابي بفلسفتك ، فعش يا حبيبي في لندن من
أجلى ، وأعاهدك أنني سأنتقل بين القاهرة والإسكندرية ، أبحث عن الرجال
الذين يذكرونني بك ولن أعيش بعد اليوم يا حبيبي إلا من أجلك ، من أجلك
أنت .

وتقبل قبلات

المخلصة جدا

(سهام)

يـ

زوجتي العزيزة :

ما كنت أظن أني سأكتب إليك مثل هذه الرسالة في يوم من الأيام ، وما دار بخلدی قط أني سأعود يوما إلى البيت فلا أجدك ، وأجد تلك الرسالة الجائرة القاسية : « قرأت رسائل عشيقتك ، فبانت خيانتك . الوداع » ما أقساك في أحكامك ، وما أشد غيرتك القاتلة ! وما ضرك لو انتظرت حتى أعود ، لأشرح لك كل شيء ، ولكنك تسرعت كما هي عادتك ، وأخطأت الحكم كما هي عادتك ، وأصررت كما هي عادتك على أنك كنت على صواب .

ما كنت أحب أن أقص عليك ما سأقصه ، لأنني أعلم أنه سيؤلمك بعض الإيلام ، وسيثير غيرتك — وما هي في حاجة إلى ما يثيرها — وما أحب إيلامك أو إثارة عراطفك ، ولكنه تصرفك النائر الغيور ، الذي يضطرنني الآن إلى رواية كل شيء ، وسرد ذكريات حسبت أنها كفنت في حافظتي ، فإذا بك اليوم تبعتها بما فيها من آلام وأحزان .

أما ما سأقصه عليك فسيحز في نفسي بقدر ما ستلسمك عقارب غيرتك — وإن كانت غيرة ليس هناك ما يبررها — ولكن لا بأس مادمت قد انقذت إلى أوهامك ، ورحمت تنقيين في مكثبي عما يدعم شكوكك ، ويثبت لك أن لي ماضيا ككل الناس .

كلنا له ماض ، وقد فكرت بعد زواجنا أن أفضى إليك بماضى ، وأن أقص عليك قصة هذه الرسائل . ولكنى أحسست أنك سعيدة ، وأن سعادتك تعود إلى اقتناعك بأن زوجك ليس له ماض ، إنه رجل خلق يوم زواجك ، رجل لم يمش إلى خطيئة ولم يدنس قط ، ولم يخفق قلبه لأحد قبلك قط . عرفت أنك ممن يعشن بخيالهن ، فلم أشأ أن أهبط بك إلى الأرض ، فتركك في عالمك ما دام في ذلك هناؤك وسعادتك .

كنت أجد الغبطة تشيع في وجهك ، والرضا يكتنفك ، فكنت أشفق أن تصدمك الحقيقة يوما ، فتحطم أحلامك ، وتقوض هناؤك ، فكنت أمدلك في حبل الأوهام ، فأوحى إليك أنك أول امرأة خفق لها القواد ، فكنت تتقبلين ذلك منى في سرور الأطفال ، ولكنك كنت أحيانا تتشككين فيما أقول ، فتستفسرين في هدوء متكلف ... ما كان ينطلي على — عمن عرفت قبلك ، وما كنت بقادر على أن أقص عليك شيئا ، فأبى بك عليم ، فإن غيرتك هوجاء جامحة ، فإذا ما ثارت لا تبقى ولا تذر ، فما أدراى أنك ما كنت تغضبين كما غضبت اليوم ، ولا تتركين البيت كما فعلت اليوم ، فكنت أؤكد لك أنك الوحيدة في حياتى ، لأعيد إليك بشرك ولأملأ نفسك غبطة وحياة .

أصبحت هذه الرسائل تذكارا ، وصارت صاحبها ذكرى . بينا أنت ملء القلب ، ملء النفس ، ومالى أقول ذلك لك وأنت تعرفينه وتحسينه ، فلأسطر في القرطاس ما حاولت أن أخفيه في صدرى ، وما فيه ما يشين ، ولكنها طبيعتك الواهمة ، هى التى أرغمتنى على أن أكتب ماضى ، وأغلق نفسى على ذكرياتى .

ففى شتاء عام ١٩٤٤ ، جاءنى صديقى الدكتور فتحى ، وقال لى : قم ،

فقلت له : إلى أين والدنيا يرد شديد ؟ ، فقال : إلى مريضة مصابة بفقر دم حاد ، فقلت له : لا بالله دعنى اليوم ، وخذ متطوعا آخر ، فإن دمي متجمد فى عروقي ، فنظر إلى وابتنسم وقال : قم ، إنك كالحصان ، وسحبني من يدي ، فقممت فى تراخ ، وقلت : إلى المستشفى ؟ فقال ونحن نخرج : لا إلى بيتها .

وهبطنا فى الدرج ، حتى بلغنا سيارته ، فركبنا وانطلقنا إلى حى من أحياء المدينة الراقية ، ووقفت السيارة أمام منزل فخم . فأسرع الدكتور ، وحمل حقيته ، وقفز وراح يجرد فى السير . فأسرعت خلفه لألحق به ، وقابلنا عند الباب خادما نوبى ، وراح يسير أمامنا ونحن خلفه نخرق الردة الخارجية ، ثم نسير فى ممر طويل ، ثم ندخل غرفة بها سرير ، قد تمددت فيه فتاة حلوة التقاسيم ، ولكنها كانت شاحبة اللون جدا ، حتى إن شفيتها كانتا باهتتين لا أثر للدم فيهما ، وعينها غائرتان ، وبجوار سريرها رجل وخط الشيب رأسه ، وامرأة قد انعكس القلق على وجهها ، كانا والديها ، وما إن لمحانا حتى أسرعنا يضافحانا فى لهفة واغتنباط ، وفتح الطبيب حقيته ، وأخرج إبرتى العملية الكبيرتين ، وأنابيب المطاط ، والتفت إلى والديها ففطنا إلى ما ينبغى ، فانسحبا فى هدوء ، فأغلق الدكتور فتحة الباب ، وابتدأت عملية نقل الدم .

راح يسحب الدم منى ، فانتابنى اضطراب ، وشعرت بخفقان فى قلبى ، وكأنا روحى كانت تسحب منى ، فقد كان الدم يمر بقلبي فى سرعة ، ويتطلق إلى الحقنة ، وازداد وجيب قلبى . وتفصد العرق البارد من جبينى ، وكأنا أحست ما أعانى من ألم فى سبيلها ، فمدت يدها ، وراحت تربت على يدي ، ثم تمررها فى رفق فوق ذراعى ، واقتربت عن ابتسامة حلوة كانت

عزائي في كرتي .

وتمت العملية ، وبقيت أحس تعباً ، وقلبي في صدري يدق دقا ، ورفعت رأسي ، فلمحتها تتطلع إلى في امتنان ، ثم قالت في رقة :
— عاجزة عن شكرك .

— العفو .

وأقبل والدها علي ، وغمراني برقتها وظرفهما ، فأخجلاني ، وانعقد لساني ، فصرت أتمم بتمتات لا معنى لها ردا على شكرهما واغتياطهما ، وهممتا بالانصراف ، وحاول والدها أن يدس في يدي ورقة مالية لا أدري قيمتها ، فاعتذرت في لطف ، فألح علي ، فأفهمه الدكتور أنني متطوع ، وأني لا أتناول أجرا ، وزاد على ذلك أنني من أسرة لها مكانتها ، فصافحني الرجل في حرارة ، وكرر شكره ، وقال لي : أرجو أن تعتبر هذه الدار دارك ، إني أحب أن أراك دائما .

ووقد الليل ، فدخلت إلى فراشي لأنام ، ولكنني وجدت نفسي أفكر في عملية اليوم على الرغم مني ، فما كانت أول عملية أشترك فيها ، فقد قمت بذلك مرارا ، وما كانت هي أول فتاة ينقل إليها دمي ، ولكنني ألفيت صورتها تلح على مخيلتي . وتحتل فكري . ولما كانت الأفكار تنمو في الظلام ، أخذت أفكارى تنمو وتتضخم ، فرحت أتصور نفسي معها أحداثها وتحادثني ، وجعلت أجتر أفكارى في نشوة وطرب .

وتنفس الصبح ، فخرجت إلى عملي ، واندججت فيه ، فما كان أمامي فسحة من الوقت لأخلو بنفسى ، ولكن ما انقضى وقت العمل ، وما عدت إلى البيت ، حتى ألفيت رغبة الانطلاق إلى دارها تراودني ، إني لم أزر مريضا بعد انتهاء العملية أبدا فما هناك ما يدعو إلى زيارته ، ولكنني أجد رجلى

تحملا نى إلى هنالك ، وكأنا قوة تخفية تدفعنى دفعا ، ووجدت نفسى أجتاز باب الدار ، فأجفلت وهممت بالفرار ، واعترانى خجل شديد ، فماذا يقولون عنى إذا ما وجدوني بينهم دون أن يكون هناك ما يبرر وجودى ، وتكصت على عقبى ، وقفلت عائدا مضطربا ، ولكن ما سرت فى الطريق خطوات ، حتى أحسست تلك القوة الخفية تدفعنى إلى هنالك ، فسرت كالسحور ، واجتزت الباب وقد أخذ قلبي يقفز فى صدرى ، وقطعت فى الردهة الخارجية خطوات ، فقابلنى الخادم النوى ، فانتبهت كمن يهب من نوم عميق ، وفطنت إلى سخافة ما أقدمت عليه ، فسألت عن الهائم فى اقتضاب ، وابتدأت فى الانسحاب ، ولكن فوجئت بصوت يسرح بمقدمى ، فرفعت رأسى فرأيت والدها على رأس السلم يهتف فى انشراح : أهلا .. أهلا .. فما كان أمامى إلا أن أصعد فى الدرج مهرولا ، لأصافح اليد الممدودة لى .

ودخلت غرفتها ، فمدت يدها إلى فأخذت يدها بين يدي ، وسألته عن صحتها ، فأجابت بحمد الله ، وتهلل وجهها وبرقت عيناها ببريق أحسست ضياءه فى قلبى ، وجىء لى بكرسى وضع بجوار سريرها ، فجعلت أحادث والديها ، وكنت أرنو إليها بين وقت وآخر ، وانقضى وقت أحسست بعده أن لا بد من قيامى ، فنهضت وإن كنت فى قرارة نفسى أتمنى أن تطول جلستى ، بل أتمنى ألا تنقضى أبدا .

وتركتهم وسرت فى الطريق أفكر فيما فعلت ، فأغضبني سلوكى ، فعقدت العزم على ألا أكرر الزيارة بعد اليوم أبدا . ولكن ما جاء اليوم الثانى ، وما خلوت بنفسى حتى انهار عزمى ، وانطلقت إلى هناك ، أنعم بالسويحات الحلوة التى أقضيها بجوارها .

كان في وسعي أن أترضاك ، وأن أكذب عليك ثانية بأن أقول لك ما كنت أحس به نحوها كان عطفًا .

إني جد آسف يا زوجتي العزيزة لإيلاملك ، ولكن ما ذنبي إذا كنت قد نكأت جرح قلبي ، ونisht ذكرىاتي ، وهيبت كوا من نفسي ، وبعثت إحساسات كاد يدرکہا الموت .

وفي يوم وصلتني دعوة منهم ، فذهبت فألفيت الموجودين لا يتجاوزون أصابع اليدين عدا ، ولحت الدكتور فتحي ، فاتجهت إليه وصافحته ، وجلسنا نتحدث ، وأقبلت في ثوب أنيق أبيض ، فبدت لعيني كملاك لطيف ، وجاءت وصافحتني وهي تبسم ، فأحسست رعدة خفيفة للذيلة تسري في يدي ، ثم وجدت نفسي أضغط على يديها في رفق ، فشاعت غبطة في صفحة وجهها النقية ، وتركتني وذهبت تحي ضيوفها ، فالتفت إلى الدكتور فتحي ، وقلت : صحتها في تقدم .

فلم يحرك الدكتور شفتيه ، ولم يعلق على ما قلت بشيء ، بل راح يخوض في حديث آخر ، وقمنا للعشاء ، فلما انتهى ذهب المدعوون إلى غرفة يتحدثون ، ولما كنت لا أدخن ولا أطيق رائحة الدخان ، انسحبت إلى غرفة أخرى ، وما انقضت برهة حتى جاءت تشاركني في وحدتي ، أصبحنا وحدنا ، فلم أشعر إلا وأنا أقرب منها ، وأهمس لها بصوت مرتجف متهدج . أبثها لواعج نفسي ، وأشرح لها حبي ، وأطرقت تستمع إلي ، وكأنما حديثي لم يكن مفاجأة لها ، فرفعت رأسها الجميل ، ورنّت إلي في وله وحنان ، ودنوت منها ، فاختلفت أنفاسي بأنفاسها ، فلم أستطع مقاومة نفسي ، فضممت جسمها الضاوي إلى صدري وقبلتها قبله هزت كياني ، وتفتحت لها نفسي .

وانتهى الحفل المتواضع ، وخرجت والدكتور فتحى ، وكنت شارد
اللب ، وجاشت فى صدرى رغبة الإفضاء إليه بحبى ، ولكن غالبت نفسى ،
وأخيرا غلبت على أمرى ، فخرجت الكلمات من فمى تكشف ما لى ، فقلت
له فى صوت حاولت جاهدا أن يكون هادئا لا أثر للتأثير فيه : سأخطبها يا
دكتور . فقال الدكتور دون أن يلتفت إلى : إنها لا تجوز لك . فسألته : ولم ؟
فقال فى نبرات ساخرة : امتزج دمك بدمها . فلم أهتم بسخريته ، وقلت فى
حماس : وما بهم وقد امتزجت روحى بروحها . فقال فى جد : بالله لا
تتعجل . فسألته فى لهفة : وما الضرر ؟ فقال فى نبرات حزينة : لم تكشف
بعد . فقلت له فى يقين : غدا تسترد قواها . وصمت الدكتور ، فالتزمت
السكوت حتى افترقنا .

وسافرت إلى الريف ، وبعثت إلى برسالتها الأولى تشرح حبا ، وتكشف
مكنون نفسها ، وتبادلنا الرسائل ، فتأجج الحب فى صدرى ، كان حبا
جارفا ، فلم أستطع عليه صبرا ، فذهبت إلى والديها لأخطبها . رحبا لى
وأكرما لى ، وتقبلا خطبتي قبولا حسنا ، واتفقا على إتمام الزواج بعد عودتها
من الريف سليمة قوية . فكتبت إليها أزف البشرى ، وأستحثها على الإسراع
بالعودة .

وانقضى شهر خلته دهرًا ، وعادت أخيرا إلى الدار ، فأسرعت لأقابل
حبى ، وكانت صورتها طوال الطريق تشغل رأسى ، كنت أراها فى مخيلتى
متوردة الوجنتين ، متسريلة رداء الصحة والعافية ، وما أن دلفت إلى الدار ،
وما أن سألت الخادم النوى عنها ، حتى علمت أنها مريضة فى فراشها ،
فانقبض قلبي ، وشعرت جففا فى حلقى ، وكأنا عقدت عقدة فى صدرى ،
فضيقته أنفاسى ، فرحت أصعد فى الدرج مسرعا ، واتجهت إلى حجرتها ،

فألفيتها ممددة في فراشها ، لقد كانت طيفا .

كانت مقابلة قاسية ، حطمت نفسى تحطيمًا ، وودت دموعى أن تطفر من عيني ، ولكن رحت أغالب دموعى ، وجاهدت لأبذل هادئًا مطمئنًا ، فجعلت أبتسم وقلبي يقطر دما . واستأذنت في الانصراف على أن أعود بعد قليل ، فأذنوا لى ، فانطلقت إلى الدكتور ، ودخلت عليه وقد بان الأسى في وجهى ، وقلت بصوت حزين : عادت يا دكتور ، ولكنها عادت حطامًا . فتطلع الدكتور لى ، ثم أسبل جفنيه ولم يتكلم .

فقلت : ما رأيك يا دكتور في أن نعيد عملية نقل الدم ، إلى مستعد أن أجود لها بكل دمي .

فقال في اقتضاب : لم يعد دمك ينفعها .

فقلت في فزع : وكيف ؟

فقال في أسف : تسمم دمه .

أطرقت حزينا ، وخرجت أخرج رجلى جرا ، ونزل لى هم ثقيل ، فما عاد لها في الأرض إلا أيام ، فرحت أذرف الدمع السخين ، وما انقضى أسبوع حتى انقضت كما ينقضى الحلم الجميل ، وصارت ذكرى بعد أن كانت بهجة نفسى ومنية قلبى .

وهذه يا زوجتى العزيزة قصة خيانتى التى أثارتك ، وجعلتك تفرين من البيت ، وما هى بالقصة البهجة ، وما فيها ما يستحق أن يثر نقمستك وغرتك ، إلا إذا كنت تعزمين على أن تغارى من طيف ، لقد انقضى الماضى ، فأصبح كأمس الدابر فعودى إلى زوجك المتلهف إليك ، ولنوصد على الماضى بابا ثقيلًا ، فالماضى بأحزانه وآلامه لى ، والحاضر والمستقبل المشرق لك .

روميوس

التفت الرجال الذين كانوا جالسين في بهو الفندق الفخم ناحية الباب ،
فانفرجت أسارير الشباب ، واتسعت عيونهم ، واتممت بيريق أخاذ ، وراح
الشيوخ ينظرون في إعجاب من بين أهدا بهم البيضاء ، ومن خلف نظاراتهم
الذهبية ، فقد كانت فتاة حلوة رشيقة فاتنة مقبلة في دلال ، يتبعها كلب أبيض
ضئيل أنيق ، وكانت الفتاة ممشوقة القد ، ناهدة الصدر ، فاحمة الشعر ،
واسعة العينين ، صافية البشرة ، تتدفق حيوية ، وكانت تسير الهوينى ،
مرفوعة الرأس ، لا تتلفت يمنة أو يسرة ، بل كانت تنطلق في ثقة ، وكانت
ترتدى ثوبا بسيطا أنيقا ، ينم عن ذوق وبسطة في العيش ، إنها غنية ولا
ريب ، سعيدة من غير شك ، جمال رائع قاهر ، يفتن العابد ، ومال وفير
يدنى الأمانى ، ويحقق الأحلام .

ووسعت خطوها ، وسارت في الردهة الطويلة الموصلة إلى جناحها ،
وكلبها خلفها يجد في السير في غبطة ، والتقت في الممر بشاب طويل القامة
عريض الكتفين ، فيه فتوة وشباب ، فالتقت العيون ، وابتسمت أسارير
الشاب ، وظلت الفتاة في طريقها دون أن تختلج عينها خلجة ، وبلغت
جناحها ، وفتحت الباب وانتظرت فلم يسرع الكلب في الدخول كما اعتاد أن
يفعل كلما فتحت بابا ، فأدارت رأسها الجميل ، ونظرت من فوق كتفها ،
فرأت الكلب بين يدي الشاب ، وهو يمسخ على شعره الطويل ، فهتفت في

صوت ساحر :

— روميو .. روميو .

فقفز الكلب من بين يدي الشاب ، وراح يعدو نحوها في فرح ، ووقف الشاب ينظر ويتسم في رقة ، ولكن الفتاة كانت قد اختفت خلف الباب الذي أغلق في رفق .

وخلعت ثيابها ، ولبست غلالة رقيقة أبرزت مفاتها ، وتقدمت من المرأة تديم النظر فيها ، وتتطلع إلى محاسنها ومفاتها في زهو وإعجاب ، فغمرها سرور ، واجتاحها نشوة ، ولكن ما لبث أن غاض السرور ، وفرت النشوة ، وغام وجهها بسحائب خفيفة من الحزن ، فطأطأت بصرها ، وجعلت الأفكار تتزاحم في رأسها وتلاطم ، فسارت نحو المقعد الطويل ، وتمددت فوقه ، ومدت بصرها إلى لا شيء ، وأطلقت خيالها العنان .

رأت نفسها بعين خيالها في ثياب عرسها ، فأحست غصة في حلقها ، وضيقا في صدرها ، فكأنما قد عقد فيه عقدة . ودمة تترقرق في مآقيها .. أحست في مقعدها نفس الإحساس الذي أحسته ليلة زفافها ، فما أحست ليلتها بهجة أو فرحة أو نشوة ، وما سرها الحرير الغالي الذي كانت ترقل فيه ، فيزيد في حسنها ، وما أحبت الحرير بعد ليلتها تلك ، فإنها لتحسبه أكفانها درجت فيها ، فإنها كانت تزف إلى شيخ فان مرتجف .

ورأت نفسها شابة حلوة متفتحة في دار أبيها ، تعيش في عالم وردى من الأحلام ، وهم في دنيا فسيحة من الأوهام . تنتظر في نشوة فارسها ورجل أحلامها ، الذي سينقلها من دنياها الضيقة إلى عالم السعادة الرحب اللانهاي ، عالم الحب والصبابة والغرام ، فكم مرة رأتها فارسا يمتطي جوادا ،

ثم يقبل ويخطفها ويعود بها صعدا ، ليعيشا في السحاب ، وكم من مرة رآته شابا ظريفا لطيفا من هؤلاء الأبطال ، الذين رأتهم على الشاشة في أدوار غرامية تلهب الحواس .

ورأت نفسها في دارها ، غرفة زوجها المسدلة الستائر . المقفلة النوافذ ، الهادئة هدوء الرموس ، الساكنة سكون القبور ، تغدو وتروح ، لتناول الشيخ المريض الدواء ، إنها تمضي الشهور ، وأية شهور ، الشهور الأولى لزواجها إلى جواره تمرضه وتعنى به وتؤاسيه ، وهي في أشد الحاجة إلى العطف والعناية والتسلية .

واعتمدت في المقعد الطويل في تبرم وضيق ، وحاولت أن تفر من أفكارها التي تتوافد عليها توافد الموج ، فما تنكسر فكرة حتى تفد أخرى ، إنها لتود أن تنعم بذلك النسيم اللطيف الذي يهب من البحر في رقة ، فراحت تملأ صدرها بالهواء ، وتتكلف الهدوء ، ولكن فكرها كان يعمل ، فراحت تمرر كفها على وجهها دون جدوى ، فإن أفكارها أخذت تغزوها في إصرار ، فاستسلمت لها برغمها ، وتمددت ثانية وقد انحسرت الغلالة الرقيقة عن صدرها ، فبدت كتمثال رائع ، لفتان مبدع .

ورأت نفسها يوم خرجت من غرفة زوجها خلف الطبيب ، لتستفسر منه عن حال زوجها ، لما استشفت من وجهه القلق بعد أن فحص عن حاله ، فأنبأها الطبيب أن لا بد من سفره إلى الخارج ، فإن جو القاهرة أضحى لا يلائمه ، ورأت نفسها وهي تحاول إقناع زوجها أن تصحبه في سفره ، وأن تقل من عزمه ، ولكنه أصر على الرفض ، وعلى استصحاب خادمه .

ورأت نفسها اليوم وهي تودع زوجها قبل أن تقلع الباخرة به ، وقبل أن تعود إلى الفندق ، فأحست راحة عزتها إلى نسيم البحر المنعش ، وإن كانت



في الحقيقة راحة تخلصها من ذلك العبء الثقيل ولو إلى حين .
وقامت إلى الشباك القريب منها ، وأطلت منه ، فداعبها نسيم الأصيل ،
وراح يعبث بشعرها السبط ، ويقبل وجنتيها في رقة ، فأنعشها ورد إليها
هدوءها وطمأنيتها ، فراحت تمد الطرف إلى البحر الساجس في نشوة
وطرب .

وجاء الليل يرخي ستائرہ السود ، فاتجهت إلى النور وأضاءته ، ثم جلست
إلى المرأة تتزين ، فقد عزمت على العشاء في الخارج ، وما أتمت زيتنها حتى
نهضت ونادت في رقة :

— روميو .. روميو .

فقام الكلب عن الوسادة الوثيرة التي كان نائماً فوقها ، وأقبل عليها بهز ذيله
فرحاً ، فمدت يدها ، وفتحت الباب ، فخرج روميو يعلو ، فخرجت
خلقه وراحت تقفل الباب في هدوء ، وأحست شخصاً بالقرب منها ،
فالتفت فإذا نفس الشاب الطويل العريض الكتفين ، الممتلئ فتوة وشباباً ،
والذي قابلها في الممر لما جاءت ، وداعب روميو ، يفتح الباب المجاور لبابها ،
فقد كان جارها ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة حلوة ، ولكنها لم تعبأ به ،
ولم تلتفت إليه ، بل انطلقت في طريقها وروميو في أثرها يصبص بذنبه في
سرور .

وتناولت عشاءها ، وفكرت في أن تذهب إلى السينما ، ولكنها أحست
جسمها يحن إلى الراحة ، فعادت إلى الفندق ، واتجهت إلى جناحها ، وبدلت
ثيابها ، ثم اندست في فراشها ، وجعلت الأفكار الحلوة تداعبها قبل أن يمس
ملاك النوم بأنامله الرقيقة جفניה ، وراحت في سبات عميق ، فرأت فيما
يرى النائم أنها قائمة بين الضباب ، محلولة الشعر ، في ثياب رقيقة شفافة ،

لا تكاد تستر جسمها ، وقد سرى في الجو نغم حلو أخذ ، آت من بعيد ،
كان نغما ملائكيا عذبا يستحوذ على المشاعر ، ويهز القلوب ، فامتلات
نفسها نشوة ، وأخذ الضباب ينقش شيئا فشيئا ، فإذا هي في مكان من
بلور ، وأخذت الأنغام تشتد وتقرب وتتضح ، فأحست نفسها خفيفة خفة
الطيف ، فأخذت تقفز في فرح ، وترقص في طرب ، وتميل وتتثنى كما يميل
الغصن إذا داعبه النسيم ، وفجأة لاح أمامها شاب جميل ، عارى الجسد ،
مفتول العضل ، قوى البدن ، مديده ، وتناول بها يدها ، وجعل يشاركها
في رقصها ، ويهيم معها في الفضاء العريض ، ونظرت نحوه فإذا هو زوجها قد
خلق من جديد ، فندت منها أنه فرح ، وانفجرت شفتاها عن لؤلؤ نضيد ،
وانبعثت الموسيقى من هنا وهناك ، وغشى المكان ضياء عجيب ، ونظرت
إلى زوجها فإذا هو قد تبدل ، وإذا بها تجد مكانه ذلك الشاب الطويل الذي
داعب روميو ، والذي ينزل في الغرفة المجاورة لغرفتها ، فأقبلت عليه في
انسراح ، فجذبها من يدها في رفق وسار بها فوق السحاب ، ثم ركبا زورقا
من ذهب ، وراحا يحدفان في الفضاء ، ويسبحان في غبطة حول النجوم ،
وتركا الزورق ، ودخلا حديقة ، فرشت أرضها بالأزهار ، وقد توسطها
سرير من الورد ، يحف به قنوات من زئبق رجراج ، وانطلقا إلى السرير ،
فتمددت فيه ، واستنشقت عبير الأزهار فانتعشت روحها ، فتطلعت إليه في
دلال ، وقد تكسر جفناها ، قمال عليها في رقة ، وضمها إلى صدره في
حنان ، وراح يلثمها هنا وهناك في لفة وسعار .

وفتحت عينيها ، فألفت نفسها وحيدة في فراشها ، فأحست طعم
الصاب في فمها ، وجفانا في حلقها ، ما كانت تلك السعادة إلا حلما من
الأحلام ، لاحت في الخيال لحظة ، ثم اختفت وقد حلفت وراعيها لفة وحسرة .

وحاولت أن تستأنف نومها ، ولكن النوم خاصم جفניה ، فإن دمها ليتدفق حارا في عروقها ، وإنها لتحس به يصعد إلى رأسها في فورة ، وأن وجتها تكاد أن تنصهرا ، وأن قلبها ليدق في ثورة وعنف ، ويقفز في جوفها ، حتى ليكاد أن يفر من فيها ، وإنها لتحس شيئا يضغط أنفاسها . إن مشاعرها المذخورة قد ثارت عليها وتمردت ، فقد ضاقت بذلك الكبت المتواصل ، وتود أن تنطلق .

وأحست أنها باتت فريسة عواطفها ، فقامت من فراشها ، وفتحت الشباك القريب من مخدعها ، لعل الهواء العليل يلفحها ، فيخفف من إحساساتها المتمردة ، ولكنها كانت ليلة قمراء . توحى بالشعر والحب ، فما فتحت الشباك حتى انسل ضوء القمر الفضي إلى غرفتها ، فأجج عواطفها ، وزاد ثورتها ، وأشعل رغبتها ، فانهارت في فراشها انهارا ، وبقيت مدة لا تبدى حراكا ، إلا أن عواطفها كانت في داخلها تنصارع وتتضارب .

وانتصبت واقفة ، وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهابا في قلق ، فكانت تذهب إلى النافذة تملأ رئبها بالهواء ، ثم تعود إلى حيث كان روميو نائما ، ولم تطق صبرا على الإحساسات التي كانت تعمل في صدرها ، فارتمت في فراشها حائقة قانطة .

وهبت من فراشها ثانية ، وقد اتسعت حدقتا عينيها ، وبان في وجهها عزم صادق ، وسارت إلى المرأة كالمسحورة ، وراحت تسوى من شعرها ، وتبرز فنتها ، ثم مشت إلى الباب في خفة ، وفتحته في احتراس ، خشية أن يستيقظ روميو ، وخرجت وسارت خطوات ، حتى بلغت الباب المجاور لبابها ، ودقته في رفق ولم تضطرب ، فقد كانت مأخوذة ، وكأئما كانت في حلم من الأحلام .

وفتح الباب ، وظهر الشاب الطويل القامة ، العريض الكتفين ، وقد بان الدهش في وجهه ، وعقدت المفاجأة لسانه ، فلم يدر ما يفعل ولا ما يقول ، ولاحظت ما اعتراه من ارتباك ، فقالت :

— هل رأيت روميو من فضلك ؟

فقال في بلاءة :

— روميو ! .. روميو ! ..

فقالت بصوت منغم :

— روميو ؟ . كلبي .

وكان قد تملك روعه قليلا ، وسيطر على أعصابه ، فابتسم . وقبل أن يجيب أطل روميو من باب حجرتها ، وأخذ يعوى ، وكأنه يتنادى سيده ويحذرهما ، والتفت الاثنان إليه وقد عاد الشاب إلى ارتياكه ، أما هي فقد صعقت في مكانها ، وارتفع الدم حارا إلى رأسها ، ثم تنبت كمن أفاق من حلم وجرت ، فحملت روميو بين ذراعيها ، ودخلت حجرتها ، وأغلقت بابها في قوة ، كأنها تصفع به الشيطان ، وقضت ليلتها تبيكي .. وحيدة !!

شجرة الشيطان

ريح عاصفة ، وبرق ورعد ، وزجاجة وزئير ، وظلام دامس حالك .. فقد ثار الكون ثورة هائلة ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيوننا ، فقار الماء وارتفع ، وبلغ الدنيا في جوفه ، وأخذت سفينة نوح تجرى في موج كالجبال ليالى وأياما لا تستقر على حال ، حتى بعث الله ريحا على الأرض ، فهدأ الماء ، واستوت السفينة على صخرة .

وبعث نوح الحمامة فانطلقت ، ولم تلبث أن عادت ، فما زال الماء يغطي الأرض .. وتقضت أيام سبعة ، فعاد وأرسل الحمامة ، وانقضى النهار وهو يرقب عودتها ، وجاء الليل فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطينة برجلها ، فأيقن أن المياه قد قلت عن الأرض .

وكشف الغطاء من الفلك ونظر ، فإذا وجه الأرض قد جف ، فأطلق الوحوش ، والطيور ، والهوام ، فانطلقت في الفضاء ، وهبط إلى الأرض ليفرس ما معه من أشجار . وأراد أن يفرس شجرة العنب ، فلم يجدها ، وظل يبحث عنها هنا وهناك ، حتى أعياه البحث ، فأطرق في حزن . وفيما هو في إطراره ، أوحى الله إليه أن إبليس قد سرقها ، فقال نوح لإبليس :
— أعد شجرة العنب .

— لا أعيدها حتى تشركني فيها .

— وما قيمة هذه المشاركة .

فأطرق نوح قليلا ، وراح يفكر ، فقد كان يخشى أن يستغلها إبليس في

فتنة الناس ، ولكنه لم يجد من إجابته بدا ، فقال في استسلام :

— قد جعلت لك فيها الثلث .

— لا .. يجب أن يفوق نصيبي نصيبك .

— هذا جشع !

— هذا شرطى ..

فقال نوح في نبرات المغلوب :

— قد جعلت لك الثلثين .

فانبسط أسارى إبليس لهذه المشاركة ، وذهب ثم عاد بشجرة العنب
فغرسها ، وما انتهى من غرسها ، حتى ذبح عليها طاووسا ، فشربت من
دمه . ونمت الشجرة ، وطلعت أوراقها ، فذبح عليها قردا ، فشربت من
دمه ، وراح يتعهدا ، حتى إذا ما أثمرت ذبح عليها أسدا ، فارتوت من دمه ،
وقبل أن ينضج العنب جاء بختزير ، وذبحه على الشجرة ، فشربت من دمه .
تدلت العناقيد منتفخة ، فكانت كأكياس ملئت دما ، ورأى إبليس نضج
العناقيد ، فراح يجمع الأعناب في فرج ، ثم راح يعصرها خمرا .. وأقبل
رجل ، فقدم إبليس إليه ما عصر ، فعب الرجل من الخمر حتى ارتوى ،
وأخذ إبليس يرقبه وقد ارتسمت على شفثيه البقيضتين ابتسامة شماتة وخبث !
ما دبت الخمر في أعضاء الرجل حتى زها كما يزهو الطاووس ، وما سار
خطوات حتى انتشى ، فذهب عنه الوقار ، وأخذ يصفق ويرقص كما يرقص
القرد ، وقويت عليه الخمر ، فسكر وعربد ، وزجر زجرة الأسد ، وجعل
يحطم ما تصل إليه يده .. ولكن سرعان ما خدره السكر ، فنعس ثم
استلقى ، وجعل يغط في النوم غطيظ الخنازير ..

وقهقه إبليس قهقهة عالية ، فقد صارت له شجرة يفتن بها الناس !

امراة وألحسان

ذهب وصاحبه لشراء أسطوانات موسيقية ، وما كان راضيا عن ذهابه ،
فما كان يعرف شيئا عن الموسيقى الغربية . ولولا إلحاح صديقه عليه
ليصاحبه ، لما غادر مقهاه ، ولفضل أن يبقى في جلسته على إفريز الطريق يتبع
بعينه الغاديات الرائحات ، كما يتبع المشاهد في اهتمام الكرة وهي حائرة ، في
مباراة حامية في التنس .

ودلفا إلى المل ، فطفق يقلب عينيه فيه في استغراب ، فما كان يحسب أن
في قلب القاهرة مثل ذلك المكان ؛ رأى قاعة فسيحة ، قامت في وسطها كعبة
قسمت إلى آلاف الأدراج ، وضع على رأس كل منها اسم غريب لا يعرفه ،
ورأى عشاق الموسيقى يطوفون حول الكعبة في صمت وخشوع ، ينقبون
عما يخون في اهتمام ، وألقى صديقه قد سلك في الطائفين ، وشردت منه
الأيصار ، فأحس نفسه غريبا ، وفطن إلى أن عليه أن يفعل شيئا حتى لا يبدو
نشازا في ذلك الجو المتآلف ، فراح يقرأ الأسماء اللاصقة بالأدراج ، وخطر له
أنه قد يتورط فيما يسفر عن جهله ، فدبت في نفسه رهبة خفيفة ، فهرع إلى
حيث كان صاحبه ، ودنا منه يختمى به .

ومس أذنيه صوت نسوى رقيق يقول في نبرات خافتة .

— أية خدمة ؟

فالتفت ، فرأى فتاة رائعة الجمال ، زادت من روعتها الأيدي الماهرة التي

صفت الشعر الأحمر الفتان ، ونشرت الظلال والأصباغ في مهارة ، في رقعة الوجه الحلو القسمات ، وتدل من أذنيه هلالان بديعان ، زانا الوجه الأسر ، ورفت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ليس لها سبيل إلا إلى القلب ، وتألفت عيناها الزرقاوان الواسعتان ببريق أخاذ ، ووقع بصره على الصدر الناهد الشاوخ في كبرياء ، كان جمالها من ذلك الطراز الطاغى ، الذى لا يقف في طريقه شيء ، فظل يديم إليها النظر ، لم تتحرك شفتاه ، أما صديقه فقال في بساطة :

— السيمفونية الثامنة شهر زاد ..

وانطلقت إلى الأدرج تحضر الأسطوانات ، وانطلق صديقه معها ، أما هو فوقف يرقبها ، ويفحص عنها بنظره ..

ساقان متناسقتان ، وجسم غاية في الروعة والجمال ، إنها فتنة تسير على الأرض ، وتعيث بالقلوب ، وتسبى العقول .

وأحضرت الأسطوانات ، فسارت وصديقه إلى جوارها إلى غرفة صغيرة من الغرف الزجاجية الكثيرة التى ستر نصفها بستائر كثيفة ، ووضع بها فونوغراف وكريسيان ، فأسرع إليهما وجلس على كرسي أمام صديقه ، أما هي فأتجهت إلى الفونوغراف ، ووضعت أسطوانة من الأسطوانات وهو يرقبها في اهتمام ، ويرنو إلى ذراعها البضة ، وقد استيقظت عواطفه في صدره .

وانسابت الأنغام ، فأطرق صديقه في خشوع ، ووقفت هي عند باب الغرفة والابتسامة الحلوة ترف على شفتيها ، أما هو فلم يحفل بالأنغام ، وراح يرنو إليها ، يملأ عينيه من روائع الجمال ، وانسابت بعد قليل ، فجعل يرصدها من زجاج الباب . وأقبلت مرات تبدل إبرة الفونوغراف ، فكان يتطلع إليها خافق الفؤاد .

(صدى السنين)

وسكنت الموسيقى ، فساد الغرفة هدوء ، وأراد أن يقول شيئا ، فقال :
— عندى فونوغراف مهجور ، ما كنت أحسب أن له قيمة قبل أن أرى
هؤلاء الناس !

فابتسم صديقه ، ونهض يحمل الأسطوانات ، وقابلا الفتاة فى الردهة ،
فقال الصديق :

— سأخذ اليوم شهر زاد ..

وظل هو يرنو إلى الفتاة فى اشتواء ، ولو طاول نفسه لساها عن اسمها
ولطلب منها أن تقابله هذا المساء .

وعاد إلى داره ، وما خلا بنفسه حتى ألقى طيف الفتاة أمام عينيه لا يريم ،
وقد احتلت صورتها فكره ، وهفت إحساساته إليها . كانت ابتسامتها العذبة
تدغدغ حواسه ، ونظراتها المنبعثة من عينيها الزرقاوين الآسرتين ، تعبت
بأوتار قلبه . صار يراها يقوامها المشوق ، وصدرها الناهد الشاوخ غادية
رائحة فى خياله ، وأمضى ليلته وطيفها فى رفقة ، وما لاح الصباح حتى
كانت قد استولت على لبه ومشاعره .

وأصبح الصباح ، وصورتها تلح عليه ، ونفسه تهفو إليها ، وقلبه يهتف به
أن ينطلق ليراها ، فقام وخرج ، وساقته رغبته إلى هناك ، فوقف أمام المحل
لحظة ، وقد دبت الرهبة فى جسمه ديب التمل ، ولحها من خلل الزجاج
الخارجى ، فخفق قلبه ، وراح يستجمع جأشه ، ينمق ما يقوله ، حتى إذا
اطمأن إلى نفسه دلف إلى المحل ، واتجه إليها وهو يرصد جسمها الرائع وقد
استيقظت فى نفسه مشاعره الكوامن . وانتهت إلى وجوده ، فالتفت إليه
وعلى شفيتها ابتسامتها العذبة التى تعيث بالأفكدة ، وقالت فى صوتها الهامس
المشحون أنوثة :

— أية خدمة ؟

فقال في صوت متهدج :

— أريد أن أسعد بموسيقى تعجبك .

فانفرجت أساريرها ، وقالت وقد تكسرت أهدابها .

— المهم أن تعجبك أنت .

فقال وقد سكن روعه :

— ستعجبني ولا شك .

وفتحت درجا ، وأخرجت أسطوانة ، وقالت :

— حلاق أشبيلية لروسي .

ولم يلتفت إلى ما تقول ، فما كان يفرق بين موسيقى وموسيقى ، كان يتطلع إلى جسدها وقد أفعم بإحساسات فوارة ، ولو طاروع نفسه لضمها إليه واعتصرها ، ولجعل يلثمها في سعار ، ليطفئ النار التي تأججت بين حنايا ضلوعه .

وسار إلى غرفة من الغرف الزجاجية الكثيرة لتسمعه سريناد شوبر ، فجلس على كرسي ، وانحنى تضعف الأسطوانة ، وتبدل الإبرة ، فدنا جسدها من جسده ، وملأ عيبرها أنفه ، فاضطرب ، وراح يرنو إلى صدرها الناهد وفي عينيه بريق .

وانسابت الأنغام ، فانسلت الفتاة في خفة ، وأسندت ظهرها إلى باب الغرفة ، وأطرفت تنصت ، وعلت وجهها النشوة ، أما هو فراح يصعد عينيه في جسدها الرائع ، وفي صدره نار ، وظلت خاشعة ، وظل يتطلع إليها في اشتاء ، وقد أصم أذنيه عن الأنغام ، حتى إذا ما انتهت القطعة ، وتحركت الفتاة صوب الحاكى « الفونوغراف » انتبه إلى نفسه ، فغمغم في صوت

متهدج وهو يرميها بنظره الحار .

— رائعة .

وغادر المحل وهو يحمل لأول مرة أسطوانة موسيقية ، وانطلق إلى البيت ، وما خلا بنفسه حتى جعل يفكر في الفتاة واحتل تفكيره صورتها ، وقد أسندت ظهرها إلى باب الغرفة الزجاجية ، وتراءى له جسدها الفتان ، فتدفق دمه حاراً في عروقه ، وخطر له أن يدير الأسطوانة التي اشتراها ، ليهب نفس الجو الذي عاش معها فيه لحظات ، فأحضر حاكيه « فونوغرافه » المهجور ، ووضع فيه الأسطوانة ، واسترخى في جلسته ، وراح ينعم بالأحلام .

انساب النغم حلوا جذاباً ، يشرح الصدر ، ويفتح الخيال ، فراح يهيم في سمواته ، فأحس نشوة تملأ أقطار نفسه ، وراحة تدثره ، فرد ذلك الشعور الخافق إلى أن نفسه باتت تستريح إلى التفكير فيها ، والحياة معها ولو في الخيال . ووافى اليوم التالي ، فألقى نفسه يتطلق على الرغم منه إلى من شغلت الفؤاد ، ودخل المحل ، وأدار عينيه فيه ، فلم يجدها ، فأحس انقباضاً ، وفكر في العودة من حيث جاء ، وقبل أن يدور على عقبه لمحها خارجة من غرفة من الغرف الكثيرة الممتدة على جانبي الردهة ، فأحس الراحة ، وذهب إليها متطلق الوجه ، فلما رآته ابتسمت له ابتسامة هزت كيانه ، وأيقظت مشاعره الفوارة في صدره ، وقالت له في صوتها الخافض المشحون أنوثة :

— وجدت لك قطعة موسيقية رائعة .

فقال وهو يرنو إلى جسدها في اشتها :

— وما هي ؟

— منتصف الليل ليتهوفن .

وذهبت تحضر الأسطوانة ، وهو يتبعها بعينه ، ثم دخل ليسمع القطعة



التي يروى بها « يتهوفن » همسات العشاق في منتصف الليل ، وجعل يحدج الفتاة بنظره ، ولكن ما إن انبعثت الأنغام ، حتى ألقى نفسه برغمه يصيخ إليها السمع ، وعجب في نفسه كيف أن مثل هذه الأنغام شغلته لحظات عن التطلع إلى جسدها الخلو الجذاب ١٩

وعاد إلى داره ، وطقق يفكر في الفتاة وهو ينصت إلى « منتصف الليل » ، وسرعان ما استولت الأنغام على حواسه ، حتى شغلته عن التفكير في الجسد الخلو ، فراح يصغى إليها نشوان ، وقد تفجرت في نفسه ينابيع جديدة من المشاعر . وتفتحت في صدره إحساسات رقيقة هفافة ، وسمت روحه . فأخذت تهيم في عوالم نقية من الخيال .

ومرت الأيام وهو يتردد على محل الموسيقى ، ينتقى ما يشتهي من القطع الموسيقية ، وفي يوم عاد إلى داره ، وراح يصغى إلى القطعة التي اقتناها ، وقد امتلأ نشوة ، وأفعم بإحساسات لذيذة ، وظلت الأنغام حلوة عذبة رقيقة ، وهو في محرابه جذلان ، وانتهت الأسطوانة ولما انتهت القطعة الجذابة ، كان لها بقية في أسطوانة أخرى ، فأحس رغبة في أن ينعم الساعة ببقية القطعة التي ذهبت به في دنيا وردية حية ، وضابقتها لذته المتورة ، ففكر في أن ينطلق ، ليحضر بقية القطعة ، ولكن الليل كان قد أرخمى سدوله .

وما إن أصبح الصباح حتى هرع إلى محل الموسيقى . وقابل الفتاة ، وقد رفت على شفيتها ابتسامتها الساحرة الآسرة ، ولكنه لم يلتفت إليها ، وسأها عن الأسطوانة التي يبيعها ، ودخلا إلى الغرفة الزجاجية ، وانبعثت الأنغام ، ووقفت الفتاة عند باب الغرفة ، بجسمها المشوق الفتان ، وقد استرخت في وقعها ، فربت ففتها ، ولكنه لم يتطلع إلى الجسد الرائع الذي كان يهزه ويحرك

مشاعره الفؤارة الكامنة ، إنه أطرق ليصغى إلى القطعة التي سميت بروحه ،
وجعلته يسبح في بحور صافية من الخيال .
وما انتهت القطعة حتى حمل الأسطوانة وهو مأخوذ ، دون أن يلتفت إلى
الفتاة ، وهرع إلى البيت لينفرد بالأنغام .

رسول النسيم

يوم من أيام الربيع ، النسيم يهب عليلًا ينعش القلوب ، والوقت ساعة الأصيل ، والشمس تنحدر في الأفق الغربي ، وقد توهجت كقرص من نار قبل الخفوت ، وخرج الناس من دورهم ، وصعدت أم وابنتها إلى السطح تستروحان النسيم .

كانت الأم في الخامسة والأربعين ممثلة الجسم ، موفورة الصحة ، تتألق عيناها بريق أكثر ما يلمع في الربيع ، ترتدى ثوبا أسود من تلك الثياب التي ترتديها زوجات الصناع والعمال والباعة الجوالين ، وجلست إلى جوارها ابنتها شاذخة الصدر ، نحيلة الخصر ، حلوة جذابة نامية ، في السابعة عشرة ، أنضر من وردة الربيع .. كانت في السن التي تحلم فيها بالرجال الأشداء ، والزوج المنشود .

وجاء غراب ، ووقف على الحائط ونعق : غاق .. غاق .
فرمقته المرأة مستطلعة ، وقالت في لهفة : خير ؟ . خير ؟ .
وفطنت ابنتها إلى لهفتها ، فقالت في عجب :
— أي خير تنتظرين ؟
فقالت لها أمها في إنكار :
— ألا تعلمين ؟
فقالت الفتاة في دهش :

— أعلم ماذا ؟

— ما تعلمه جميع النساء .

— عن أى شيء تتحدثين ؟

— عن رسالة الغراب التى ذهب بها .

— إية رسالة ؟

— الرسالة التى أوقدته النسوة بها ، ولم يعد بعد يردّها .

— والله لا أدري ماذا تقصدين . غراب .. نسوة .. رسالة ، ما كل

هذا ؟

— كبرت ، وصار الأمر يهمك ، فما من امرأة إلا تعرف هذا الأمر ،

اسمعى .

وتعلقت عينا الفتاة بأمرها ، وقد أعارتها سمعها ، وأخذت الأم تقص

قصتها :

— من مئات السنين ، أباح الله للرجال أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ،

وحرم على المرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، فساء ذلك النساء ، واجتمعن فى

مؤتمر يتدارسن الأمر ، فقر رأيهن على أن يقين من الله أن يسوى بينهن وبين

الرجال ، أن يسمح لهن الزواج من أربعة رجال ، كما أباح للرجال الزواج من

أربع نسوة ، وكتبن الرسالة ، ولكن من ذا الذى يحملها ؟ كان الغراب

حاضرا ذلك المؤتمر فتطوع بحملها .. أخذها وطار . وغاب رسول النساء ،

ومرت أجيال وأجيال ، ونحن نتظر أوبته متلهفات ، كلما نطق غراب ،

حسبناه الرسول قد عاد ، كلما صاح : « غاق » هتفنا به مستبشرات :

خيرا ! ، لعله قد جاء بالفرج .

وصمت الأم ، والفتاة تنظر إليها ساهمة ، وجاء غراب ونطق : غاق .

فأفاقت الفتاة من أحلامها ، وقالت فى لهفة : خير .. خير إن شاء الله !

سيرة حمراء

وقف في النافذة يرقب ساعى البريد في قلق ، فقد وافى ميعاده ، وهو يخشى أن يتكرر ما حدث في الأيام الثلاثة المنصرمة ، من إقبال الرجل ثم انطلاقه في طريقه ، دون أن يخرج على داره ، ويترك الرسالة المرتقية .

إنه طالب فلسفة في السنة النهائية في جامعة قواد الأول ، نفذت نقوده التي بعث بها إليه أهله ، ليعيش عليها طوال شهره ، فكتب إليهم يلتمس منهم مددا يعينه على مواجهة الحياة الباهظة في العاصمة الشرهة ، التي فقدت فيها النقود قيمتها .

واشرب بعنقه ، ونظر إلى الطريق ، فلم يلمح ساعى البريد المنتظر ، فدار على عقبيه في ضيق ، وراح يقطع الغرفة ذهابا وجيئة وهو متبرم ، وفكر في الرسالة التي كتبها إلى أبيه ، فألفاها بفضل ما فيها من مغالطات فلسفية ، وأكاذيب قوية ، تستدر عطف الأب الساذج ، وترغمه على أن يبعث إلى ابنه الغريب في مدينة قاسية ... ما يطلب من مال .

وشعر بالجوع يهصر أحشاءه ، فزاد تبرمه ، وهب ضميره يكتسه ، ويصيح به أن ما يصل إليه من البلدة يكفيه لولا ذلك الضعف البغيض ، الذي يتتابه عقب وصول النقود إلى يديه ، فقطب نجيبته ، وجعل يطمن نفسه أنه لن يستكين إلى ضعفه إذا بلغه ما طلب من أبيه .

وسار إلى النافذة ، ورمى ببصره ، فرأى ساعى البريد مقبلا ينساب

كثعبان ، فما أن يتجه إلى اليمين ويترك رسالة حتى يعود إلى اليسار ، وسرعان ما يذهب إلى اليمين ليعود إلى اليسار ، وجعل يرصده خافق القلب ، يتجاذبه اليأس والرجاء ، حتى إذا ما بلغ داره ، ودخل من بابها ، هرع إلى السلم وقد أرهفت حواسه ، وداعب أذنيه صوت الرجل وهو يهتف باسمه ، فسرت في صدره نشوة ، وراح يقفز الدرج قفزاً ، وتناول الرسالة وفضها في لحفة ، وما إن أطلت منها الحوالة المالية حتى انبسطت أساريه ، وانشرح صدره وهدأت نفسه ، فقد خلق اللحظة خلقاً آخر .

وانطلق إلى مطعم فاخر ، وتناول طعاماً دسماً ، وما أن امتلأت معدته حتى نسي جوعه ، وما قاساه في الأيام الثلاثة الماضية من ضنى شديد ، ونسى وعده لنفسه بأنه لن يستسلم لضغفه ، وأسبل عينيه ، وراح يفكر في أن يقضى ليلة حمراء صاخبة ، يختزن فيها من المشاعر والإحساسات ما يهون عليه جذب الليالي ، ومرارة الأيام ، إذا ما قبع في داره ولم يبق له إلا الذكريات يجترها في لذة وسرور .

كان يؤمن في أعماقه بما قاله أحدهم : حسبت عمري ، فوجدته أربعة عشر يوماً فقط ، هي لحظات حياقي التي تقضت دون كدر أو هموم !! فكان يحاول اعتنام ساعات الصفو ، وأن يجعل حياته أطول من حياة ذلك السعيد . إن كل لحظة من لحظات لذته هي التي يحسبها في عمره ، أما ما عداها فهي عبث وهباء متثور .

وعادر المطعم وهو مسترسل في التفكير فيما يفعله في ليلته ، ففى يده نقود ، وما خطر له على قلب ما اعتزمه في ساعات جوعه من مقاومة ذلك الضعف الذي تلذّب بسببه النقود ، وما هب ضميره ليزجره ، فما يفيق الضمير من سباته العميق إلا بعد وقوع المخطور ، وذهب يضرب في

الطرقات ، ثم عرج على مكان يتناول فيه كأسا تتعش روحه ، وينظر حتى تذهب طلوع الليل ، فما كان لطالب لهر مثله أن يخرج ليبحث عن صيده إلا بعد أن يهجع الناس الطيرون .

ومضت ساعات ، وهدأت المدينة ، ودقت ساعة معلنة النصف بعد منتصف الليل ، فقام يفرك يديه ، وخرج إلى الطريق .

وسار تلفت ، حتى إذا ما بلغ تقاطع عماد الدين بشارع قواد الأول ، رأى على ناصية الطريق امرأة في ثوب أحمر بديع ، يبرز مفاتن جسمها ، ورنأ إلى صدرها ، فألفاه شامخا بديع التكوين ، ودنا منها ، فراع دقة تقاطيعها ، وتناسق ملامحها ، وحدجها بنظره ، فلم تجفل ، بل خيل إليه أنها تبتسم وفي عينيها دعوة صريحة ، وعلى الرغم من ذلك لم يتقدم ، فقد أرببه جمالها ، وأدار عينيه في المكان ، فألقى على قيد خطوات رجلا في ثياب نظيفة ، فطاف برأسه أن ذلك الرجل هو رجلها الذي يدفعها لتعرض نفسها على الغادين والرائحين ، وأعاد النظر إلى الرجل ، فوجد أن منظره لا يوحى بأنه من ذلك الطراز الذي ويتعيش من دفع امرأة إلى عرض الطريق ، ولكن فلسفته أفتتته أن المنظر خداع ، وأن حسن اليزة ، والتسريل بالوقار وإظهار الأنفه ، أصبحت من مستلزمات الصنعة ، لتعمل في نفس الزبون عملها . إن جميع القرائن تدل على أنه معها ، فالطريق خال ، وليس هناك غيرها ، ومع ذلك بقيا مدة كل في مكانه يرقبان صيدهما ، وأقنع نفسه بأن الرجل قوادها ، فاتجه إليه في جسارة ، وقد صورت له فلسفته أن من الأصوب أن يحادثه مباشرة في أمرها ، بدلا من أن يضيع وقته في مغازلتها دون جدوى .

واقترب من الرجل وحياء وهو يبتسم ، ثم التفت إلى المرأة ، وغمز له بعينه ، فنظر إليه الرجل في إنكار ، ولكنه لم يأبه لاستنكاره ، إن هو إلا من



لوازم دوره ، وقال له في بساطة :

— لم يعد هناك ضرورة لاستمرار عرضها وقد جاء الشارى .

فاتسعت حدقتا الرجل ، وامتقع لونه ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يجد لسانه ، وقال الشاب :

— أظن أننا نستطيع أن نهي هذه الصفقة لو دعوتها لتقف معنا .

فقال الرجل في ثورة :

— اذهب من فضلك .

ومرت سيارة فاخرة ، فرمقها الرجل بنظره ، فقال صاحب الفلسفة في ثقة :

— لن تجد لها الليلة صيدا أفضل منى ، عصفور على الأرض خير من عشرة في كريزلر .

— انصرف خير لك .

— هكذا أنتم ، إذا أقبلنا عليكم تدلتم ، وإذا أعرضنا عنكم تهاقتم علينا تهاقت الذباب .

— اذهب قبل أن أحطم لك وجهك .

— لست مفلسا حتى تحطم لى وجهى ، إلى أعرف كيف أهدى من ثورتك .

ومد يده في جيبه ، وأخرج بعض أوراق مالية ، وقال وهو ينسم :

— ما رأيك في هذه الأوراق ؟

فقال الرجل في حنق شديد :

— أنت أوقح من رأيت عيناى .

فقال الشاب وهو ينحنى :

— متشكر ، وأنت أبرع من امتن هذه المهنة ، مظهرك قد يخدع كثيرا من الأغرار ، ولكنه لن يخدعنى أبدا .

وأخذ الرجل يتلفت في غيظ ، فقال له الشاب في سخرية :
— لا تتعلق بالأوهام . لن يأتى .. وأعدك وأحلف ، ولكن لا بأس . لن نخسر شيئا .. أنا هنا .

أرحمها من تلك الوقفة ، فقد تعبت ساقاها .

— اغرب من وجهى قبل أن ..

— سأنصرف حتما إذا وضعت يدي في يدها .

ولم يعد الرجل يحتمل أكثر من ذلك ، فراح يتأدى في حدة :

— عسكرى ! . عسكرى !

فصاح الشاب في استخفاف :

— عسكرى ! عسكرى ! .. ماذا يهمنى ؟ ! لن تفضح إلا نفسك .

وأقبل جندى يهرول ، واقرب من الرجلين ، وما أن وقعت عيناه على الرجل الثائر ، حتى دوى صوت حدائه ، وارتفعت ذراعه بالتحية العسكرية ، فقد كان الرجل من الرجال البارزين ، وقال في احترام :
— أفندم .

واضطرب الشاب لأول مرة ، وذابت شجاعته ، وتفككت أوصاله ، ودارت الدنيا به ، وما كاد يسمع ما يهدير به الرجل الثائر ، ولكنه شعر بالجندى يدفعه أمامه ، فسار ذليلا ينعى على فلسفته تغريرها به ، وتوريطه فيما قاده إلى القسم ، ليقتضى فيه ليلة ، كان يرجو أن يقضيها في سرور ، لتزيد أيام حياته على أيام ذلك السعيد الذى وجدها أربعة عشر يوما فحسب .

فهرست

صفحة	
٣ صدی السنین
٢٢ صدیقی جیمس
٤٤ غصبة الحرم
٥٢ ترويض امرأة
٦٢ کازنوف جدید
٧٧ البخيل
٨٩ مولد اديب
١٠٢ امرأة أعمال
١٠٨ قصة حب
١٢٤ رجل وامرأة
١٣٦ غنان
١٤٢ شرف
١٤٩ رسالة حارة
١٦٢ غيرة القصير
١٦٩ قصر في الجنة
١٨١ قصة الخداء
١٨٦ فارس وامرأة
١٩٦ في العيد
٢٠٠ من أجلك أنت
٢٠٦ دمی
٢١٤ روميو
٢٢٢ شجرة الشيطان
٢٢٤ امرأة وألحان
٢٣٢ رسول النساء
٢٣٤ ليلة حمراء

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الشنن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السمار وشركاه

To: www.al-mostafa.com